

المسيح عيسى ابن مريم

ذلك عيسى ابن مريم . قول الحق الذي فيه يمترون

قرآن كريم

عبد الحميد جوده السحار

لجنة النشر للجامعيين

المسيح عيسى بن مريم

تأليف

عبد الحميد جوده السحار

التزام الطبع والنشر

مكتبة مصر

١٠ شارع كامل صدقي باشا

(١٣ شارع الفجالة سابقا)

دار مصر للطباعة

٤٠ شارع كامل صدقي باشا (الفجالة)

الإهداء

إلى صديقى محمد محمد فرج . . .

الذى دفعنى إلى إخراج هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

« ذٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فيه يَمْتَرُونْ » .

(قرآن كريم)

١

« إذ قالت الملائكة يا مريم ، إن الله اصطفاك وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقنتى لربك واسجدى ، واركعى مع الراكعين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون »
(قرآن كريم)

تنفس الفجر ، فانبثق فى الأفق الشرقى نبع من الضوء ، راح يبعث أشعته الفضية لتبدد ظلام الليل .. وصاح الديك إيذانا بمولد نهار جديد ، فهبت الشمس تقطع رحلتها الأبدية ، وأرسلت أشعتها الأولى إلى الناصرة ، فانقشعت الغشاوة عن التلال ، وعن أشجار السرو العتيقة التى حنت يد الزمن أطرافها ، وسقط الضوء على أشجار التين والزيتون ، وراح ينسل إلى البيوت الصغيرة المبعثرة فى الوادى الخاشع عند أقدام التلال .

وتألق زهر البرتقال الأبيض كالزنابق ، وتفتح نوار الرمان الأحمر ، وبدا كأنما يبتسم لنور الصباح ، ورجع اليمام على الأشجار ، تسبيحا لخالق الكون والجمال ، وراح الأخيل الأزرق ينتقل فى مراح بين الحقول ، ويحط على الأشجار ، فتلوح كأنما أثمرت ثمارا من الفيروز .

وأريق النور من كوات المنازل ، فقام عمران من نومه ، واعتدل فى فراشه ، ومد يده ، وتناول التوراة ، ففتح سفر دانيال ، وراح يقرأ ويفكر فيما يقرأ ، فيهيم فى دنيا من الأحلام . إنه ليجد فيما يقرأ غذاء لروحه ، ومادة لتأملاته . إن أسعد أوقات حياته لهى تلك السويعات التى يمضيها فى قراءة التوراة فى الصباح ، وتلك السويعات التى يمضيها مع جيرانه فى المساء ، يتحدث عن الأنبياء وعما فعلوه لبنى إسرائيل ، وعن النبوءات التى تحققت ، وعن النبوءة الكبرى التى يترقبها الجميع : نبوءة مجىء المسيح ملك اليهود ، الذى سيرسله الله إلى بنى إسرائيل .

كان يستشعر الزهو يملأ جوانحه إذا قرأ قصة راعوث أو قصة داود ، فهو من نسل ذلك البيت العريق ، إنه سليل الملك داود ؛ وكذلك زوجه من نفس ذلك البيت الكريم ، فما كان لإسرائيلى أن يتزوج إلا من طبقته . إنه من نسل الأنبياء ، وقد تزوج من امرأة يجرى فى عروقها دم النبوة الكريم .

وكانت حنة زوجه ، تقدم له طعام الفطور ، وتجلس تشاركه فى طعامه ، فيدور الحديث عن الدين والأنبياء ، فما كان هناك حديث فى الناصرة إلا عن الأنبياء والدين ، فأهلها جميعا من نسل هارون وداود .

وكانت الناصرة تتكون من أسرات قليلة فقيرة ، ولو أنها أسرات تنحدر من أصلاب الأنبياء . وكانت كل أسرة تحترف حرفة يتوارثها الأبناء عن الآباء ؛ فقد احترف فرع داود النجارة ، واحترف فرع هارون تجارة الأخشاب ويجلبونها من التلال ، واحترفت الفروع الأخرى صناعة النعال أو تجفيف التين .

وكان عمران يخرج إلى عمله ، وينطلق فى شوارع الناصرة الضيقة ، يلقى السلام على كل من يقابله ، فالرجال يعرف بعضهم بعضا ، ويرجع ذلك التعارف إلى أجيال ، فالزواج محصور فى تلك الأسر الهابطة من الأنبياء ، حتى لا يضيع الدم الزكى بين الناس .

كان عمران يمارس عمله ، فإذا نزل بحانوته زائر أو صاحب عمل ، طفق يحدثه عن قصص التوراة ، ويردد مزامير داود فى صوت أخاذ يهز المشاعر ، وينزل الخشوع بالقلوب ، فترتيلاته تنبعث من قلب نقى ، مفعم بالإيمان العميق .

وأقبل يوم السبت ، فارتدى عمران أفخر ثيابه ، وارتدت حنة ثياب الخروج ، وانطلقا إلى الكنيس ، وذهب عمران إلى مكان الرجال ، وذهبت حنة إلى الشرفة العالية المعدة للنساء المحجبات ، وراح الجميع يصلون ، فانبعثت الأصوات ملائكية تأخذ بالألباب ، فأحس عمران كأنما يهيم فى السموات ، وما انتهت الصلاة حتى عادت تراوده الفكرة التى طالما راودته فى يقظته ، وطافت به فى منامه ؛ فكرة الذهاب إلى أورشليم ، لخدمة المعبد العظيم ، فقد رأى فى منامه أنه يقوم بسدانته وطهوره وتجميره ، وتقديم الذبائح إلى إله إسرائيل .

إن زكريا ، زوج اليصابات أخت حنة ، هناك فى معبد الرب ، يقوم بخدمته

ويكرس حياته للعبادة ، فلماذا لا ينطلق هو من إساره ، ويتحرر من قيود الدنيا ، ويهب نفسه خالصة لله رب العالمين ؟

عاد عمران إلى بيته ، وقد ملىء عزما على الخروج إلى أورشليم ، ليكون من خدام المعبد المخلصين ، وأفضى إلى حنة بما قر عليه رأيه ، فجعلا يتأهبان للخروج ، حتى إذا تم لهما ما أراد انطلقا فى الطريق المنساب بين التلال ، مخلفين وراءهما بيوت الناصرة الناصعة ، وهبطا إلى السهل الأخضر اليانع ، وراحا يطويان الأرض ، حتى أشرفا على السامرة فأخذا يتقدمان تقدما فى حذر ، فالسامريون يبغضون اليهود ، فهم يعتقدون أنهم أبناء إسرائيل الحقيقيون ، ولا يعترفون إلا بكتب موسى الخمسة ، دون باقى التوراة ، ويعتزون بنسخة من هذه الكتب دونت على جلد الماعز ، ويقولون إن هارون كتبها بخط يده .

تأصلت العداوة بين السامريين واليهود ، فكان حجاج الناصرة والبلاد الشمالية يتجنبون المرور بالسامرة فى عيد الفصح ، فى طريقهم إلى أورشليم ، خشية أن يقع بينهما ما يكدر صفو الجميع ، وما كان السامريون يذهبون إلى أورشليم لذبح قرابينهم ، بل كانوا يترقون فى الجبل ، يسوقون ذبائحهم ، حتى إذا كان القمر بدرا ، أمر الكاهن بالذبائح فتنحر ، وتلطخ أبواب الخيم بالدم ، كانت لهم تقاليدهم ومعتقداتهم وشريعتهم ، وكانوا يعتقدون أنهم وحدهم الذين يعرفون الله .

ونام عمران وحنة ليلتهما ، ما تكاد تغمض عيونهما حتى يفر النوم خوفا ، وأشرقت الشمس وقاما يستأنفان سفرهما . كان النهار رائعا ، والحقول مخضرة ، والتلال أقل وحشة ، والرعاة ينطلقون أمام الأغنام يرسلون أصواتهم العذبة بالغناء القوى فيعبث بأوتار القلوب ، والفلاحون يعملون : هذا يبذر الحب ، وذاك يحرث الأرض ، وثالث ينتظر الثمار من الرب ، والفتيات يحملن الجرار فى طريقهن إلى الدور ؛ وطويت الأرض ، وإذا بأشجار قليلة على جانبى الطريق ، وبينها بئر يعقوب ، فذهبت حنة تملأ الماء ، واستلقى عمران فى ظل شجرة ، فالبئر مكان اجتماع النساء ، فى الصباح وفى المساء ، وما كان ليذهب إليها رجل .

وعادت حنة وجلست إلى جوار زوجها ، وجعلا يتحدثان عن البئر التى

حفرها أبوهم إسرائيل . ثم استأنفا سفرهما وفى قلبيهما أمل ، أمل الوصول إلى أورشليم ، لخدمة المعبد العظيم .

وفيما هما منطلقان إذا بغلمان يلعبون ، فهز مشهدهم أوتار قلبيهما ، وهفت روحاهما إليهم ، فما رزقهما الله أولادا ، وبلغا بئر راعوث ، فنزلا عندها وقد سرت فيهما بهجة ، وطاف برأسيهما ما ورد فى التوراة عن هذا المكان الذى عاشت فيه جدتهما الكريمة التى انحدر من نسلها الملك داود .

وناما ليلتهما عند البئر الحبيبة ، وإنهما ليستنشقان عبير الماضى ، ويتمثلان حوادثه* الهادئة التى مرت بجدتهما كحلم لطيف بين مآسى التاريخ ، وانقضت الليلة بهيجة ، ثم قاما إلى الطريق يضربان فيه ، يخترقان الصحراء والحقول ، ويمران بالقرى التى كانت تبدو كصناديق من الطين مبعثرة .

وبلغا أرباض المدينة المقدسة فخفق قلباهما ، لاحت أورشليم شامخة فى الفضاء ، وبدت قبة المعبد الذهبية تتألق تحت ضوء الشمس الوهاج ، فأحس عمران روحه تخفق بين جنبيه ، وطفرت الدموع من مآقيه .

وانطلقا بين التلال المغطاة بالكروم وأشجار التين والزيتون ، وانسابا فى مسالك المدينة يشعران بالغبطة ، حتى وصلا إلى بيت زكريا ، فراحت حنة تعانق أختها اليصابات ، وصافح زكريا عمران فى شوق وترحيب .

ومرت الأيام ، وانقطع عمران للعبادة ، وكانت حنة واليصابات تذهبان إلى المعبد ، تجلسان فى الشرفة المثلثة التى أعدت للنساء ، وقد دثرهما إيمان عميق ، فالأنوار السماوية تتلألأ ، والأصوات الملائكية تتردد فى المكان ، فتحلق الأرواح فى عوالم من الصفاء ، والرجال فى مسوح الرهبان أطرقوا خاشعين ، فانعكست على وجوههم طمأنينة النفوس ، وزكريا وعمران يخدمان المعبد ، فقد وهبا أنفسهما لله . ربطت بينهما المصاهرة ، وألف بين قلبيهما حبهما لله ، وجعلا يسارعان فى الخيرات ، ويدعوان الله رغبا ورهبا ، وكانا له خاشعين .

وكرت الأيام حلوة هنية ، وحملت حنة ، فهزها الفرح ، لأن أعظم ما تفعله فتاة فى إسرائيل ، أن تنجب لزوجها أولادا ، وشغلت بما فى بطنها ، فراحت تفكر فيه ، وتتمنى أن يكون كجده داود .

كانت تقضى جزءا من نهارها فى المعبد ، وتصغى جزءا من ليلها إلى قصص موسى وهارون ودنيال ، فكانت تعيش مع الأنبياء ، وكانوا محور تفكيرها ، فإذا فكرت فيمن فى بطنها ، أمدتها ذاكرتها بما رسب فى واعيتها على مر السنين وكر الأيام ، ولطالما رأته بعين خيالها نبيا من أنبياء بنى إسرائيل ، كانت تراه مرة كالصبى دانيال ، وتراه تارة أخرى كالصبى داود يصرع جالوت ، ورأته أكثر من مرة كموسى على الجبل يناجى ربه .

ومرض عمران ، واشتدت عليه وطأة المرض ، فراحت حنة تمرضه ، وشغلت به عما فى بطنها ، ولم ينفعه حب زوجه وتمريضها ، فذهب إلى ربه ليجد ما عمله من خير محضرا . وتأهبت حنة للعودة إلى الناصرة ، وقبل الرحيل انطلقت إلى المعبد ، ونظرت فوجدت زكريا قائما ، فحرك ذلك أشجانها ، وزاد فى حزنها أن انقطع بموت عمران شرف خدمة المعبد الذى كان فى بيتها ، فأطرقت أسفا ، وداعبتها فكرة أضاءت ظلام نفسها ؛ لماذا لا تنذر ما فى بطنها لخدمة المعبد ، فيقوم بما كان يقوم به أبوه ، فيعود إلى البيت شرفه ؟ واطمأنت إلى الفكرة ، فشخصت ببصرها إلى السماء ، وقالت فى حرارة :

— رب ، إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا ، فتقبل منى إنك أنت السميع العليم .

ورجعت إلى الناصرة ، وعادت إلى بيتها تنتظر تمام شهورها ، ثم جاءها المخاض ، ووضعت ما فى بطنها ، فإذا به فتاة ، فنظرت إلى السماء من خلال كوة فى الجدار ، وقالت معتذرة :

— رب ، إنى وضعتها أنثى .

والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وفكرت فى اسم لها ؛ وكانت مريم أخت هارون وموسى امرأة تقية ، فلماذا لا تسمى ابنتها باسمها تيمنا ؟ شخصت إلى السماء ثانية وقالت :

— وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .

تقبل الله مريم بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا ، فكانت تمضى سحابة يومها مع أمها فى خدمة البيت ، وتنطلق إلى البئر تجلب لها الماء ، وتسق الأغنام القليلة

التى تملكانها ، وتذهب فى طرقات الناصرة تقضى حاجاتها ، فإذا جن الليل وفد إلى الدار بعض الأقارب ، وأخذوا يتجاذبون بأطراف الحديث ، وكان حديثهم يدور حول الدين والأنبياء ، فكانت تعيرهم سمعها ، فذلك الحديث يصادف هوى فى نفسها ، وكانوا يتحدثون عن المسيح الموعود ، فالمدن اليهودية تستيقظ لتتحدث عنه ، وتهجع وصدى الحديث عن ملك اليهود المنتظر يتردد بين جنباتها .

وكبرت مريم ، وصار على حنة أن تفى بنذرها ، فأخذت ابنتها وانطلقت إلى أورشليم ، لتسلمها إلى العباد المقيمين فى المعبد ، ودخلت على اليصابات تنتظر ، وأقبل زكريا فذكرت له ما جاءت من أجله .

وذاع بين العباد المنقطعين للعبادة أن امرأة عمران جاءت بابنتها تدفع بها إلى من يكفلها ، فتنازعوا فى أيهم يكفلها ، وأراد زكريا أن يستبد بها دونهم ، فاليصابات خالتها ، فقال للمختصمين :

— أنا أحق بها منكم .

— ما أحد أحق بها من أحد .

— فماذا ترون ؟

— نرى أن نقترع ، فمن خرجت قرعته كان له حق كفالتها .

وجاء كل منهم بقلم معروف به ، وحملوا الأقلام ووضعوها فى موضع ، وأمروا غلاما لم يبلغ الحنث (كاتون[1]) أن يخرج قلما منها ، فأخرج واحدا ، فكان قلم زكريا ، فقال الرجال :

— لا ، نقترع مرة ثانية .

فقال لهم زكريا :

— ماذا تطلبون ؟

— نلقى أقلامنا فى النهر ، فأينا جرى قلمه على خلاف جريه فهو الغالب .

وذهبوا إلى النهر ، وألقوا أقلامهم . فسارت جميع الأقلام مع التيار ، إلا قلم زكريا فقد جرى على خلاف جريه فى الماء .

---

(١) تطلق على اليهودى الذى لم يبلغ الثانية عشرة .

فكفلها زكريا ، وأخذها لتكون خادمة من خدام المعبد ، وخصص لها مكان للعبادة فى الطبقة العلوية ، فكانت تصغى إلى النقاش الدائر بين العباد ، وإلى المعلمين الذين يعلمون تعاليم الدين ، فإذا أسدل الليل سدوله ، وخلت بنفسها فى غرفتها ، راحت تقرأ فى التوراة عن المسيح ابن الإنسان ، الذى سيجىء من نسل داود ليقيم العدل ، وينزل أمراء الأرض والجبارين عن عروشهم ، وينزع أسنان مرتكبى الإثم والشرور ، فتشخص إلى السماء بعينيها الواسعتين السوداوين ، وتشرد فى عوالم واسعة من التأمل والتفكير .

وجاء عيد الفصح ، فوفد الحجاج من سورية ومصر وأثيوبيا وآسيا الصغرى وبابل واليونان ، يسوقون أمامهم النحائر ، يقدمونها للنحر فى المذبح ، وأصوات المصلين تتجاوب فى المعبد . ولما انتهى العيد ، خرجت بنات أورشليم إلى الحدائق ، وخرج الحجاج الشبان خلفهن ، يبحثون عن زوجات ، ولم تبق فى منازل أورشليم فتاة ، إلا مريم كانت فى محرابها تصلى لله .

وفدت حنة مع الحجاج ، وقابلت مريم ، ولما انقضى العيد أخذتها إلى الناصرة تعيش معها أياما ، ثم تعود إلى محرابها للعبادة والصلاة ، وانطلقت القافلة من أورشليم ، ومر يومان ، وفى اليوم الثالث أشرفت على الجليل ، كان الربيع قد جاء ، فبدت الحدائق فى ثوبها القشيب ، والحقول كأنما فرشت ببساط من سندس أخضر ، أخذت الأرض زخرفها وازينت ، فتلفتت مريم منشرحة ، فالجليل قد بدا كقطعة من جنات النعيم .

وانسابت القافلة فى طريقها حتى أشرفت على الناصرة ، فإذا أشجار السرو والتين والزيتون تغطى سفوح التلال ، وإذا البيوت فى الوادى خاشعة فى محراب السكون العريض ، وإذا مريم تمد بصرها ، فلا ترى من بين تلك الدور إلا دارها الصغيرة ، التى نبت فى فنائها بعض أشجار الزيتون ، وراحت بعض الأغنام تجول فيه .

عادت مريم إلى الناصرة ، ولكن روحها هائمة بأورشليم ، فصلوات الرهبان تنساب رقيقة عذبة فى آذانها ، ومشاهد العباد تترادف فى مخيلتها ، ومحرابها الذى تقوم فيه ليلها ونهارها ماثل أمام عينيها .

وجاء الليل بهدوئه وأسراره ، وبدأت حلقات السمار تتجمع فى الناصرة ،

وبقيت حنة ومريم وحيدتين فى دارها ، وتصرم من الليل أوله ، وإذا بطارق يطرق الباب ، فقامت مريم وفتحته فإذا قريب وافد للمؤانسة والحديث .

جلس الرجل ، وبدأ يتحدث فيما جاء فيه ، قال :

— أصبحت مريم شابة ، وخير ما تفعله فتاة من بنى إسرائيل أن تتزوج ، وأن تنجب أولادا ، وقد جئت أخطب مريم .

فأطرقت حنة قليلا ، ثم قالت :

— لمن ؟

— ليوسف بن يعقوب .

كان يوسف قريبا لمريم ، وكانت حنة تعرفه ، ولكنها صمتت قليلا ، فقال الرجل :

— يوسف شاب كريم ، وهو من بيت داود ، وإنى أزكيه .

فرفعت حنة رأسها وقالت :

— أحب شىء إلى نفسى أن أزوج مريم قبل أن أموت .

* * *

وتجاذب الرجل وحنة أطراف الحديث ، ومريم صامتة لا تنبس بكلمة ، حتى إذا انتهت هذه الزورة ، ودخلت فراشها ، أحست سحابة من الأسى تنتشر فى صدرها ، كانت تسمع فى المعبد أن المسيح سيأتى من نسل داود ، وستضعه عذراء ، وكانت تحلم ككل عذراء فى إسرائيل أن تكون أم ذلك النبي المنتظر ، أما وقد خطبت إلى يوسف بن يعقوب ، فقد تبخر من رأسها ذلك الحلم الجميل .

وأعلنت فى الناصرة خطبة مريم ، وأجل الزواج إلى أن يقيم يوسف له بيتا تنتقل إليه العروس ، وأحست مريم شوقا إلى أورشليم ، إنها تفتقر إلى الغذاء الروحى الذى كانت تتناوله فى المعبد ، فاستأذنت من أمها فى العودة إلى محرابها ، تمجد الله وتقدس له ، حتى ينتهى يوسف من إعداد عش الزوجية السعيد .

كان على يوسف أن يعمل فى حانوته بيده ، ليدخر المهر الذى يدفعه للعروس ، وما يكفيه لإقامة دار قريبة من دار حنة ، وذلك يحتاج إلى وقت طويل ، فأهل الناصرة فقراء ، لا يدفعون إلا أتفه الأثمان فيما يقوم لهم به من أعمال النجارة ،

فلم يعترض على عودة مريم إلى أورشليم ، لتعيش فى المعبد ، فى رعاية زكريا ، قريبها الشيخ المبارك .

وعادت مريم إلى محرابها ، تمضى نهارها فى العبادة والاستغفار ، وتمضى ليلها فى التطلع إلى نجوم السماء ومناجاة ربها ، وتصل إليها ترتيلات المصلين عذبة تنعش روحها . وفى ذات ليـــلة ، بينما كانت غارقة فى ابتهالاتها ، أحست كأن شخصا فى محرابها ، فتلفتت فلم تجد أحدا ، فمشى الخوف فى أوصالها ، وأرهفت حواسها ، واتسعت عيناها السوداوان رعبا ، ومس أذنها حفيف صوت ، فغمغمت فى فزع :

— من هناك ؟

وإذا بصوت عذب يقول :

— أنا رسول ربك إليك .

وغرق المكان فى ضوء باهر ، فخفق قلبها فى شدة ، وانبهرت أنفاسها ، وتفصد العرق منها ، وانبعث صوت عذب مس شغاف قلبها :

— يا مريم ، إن الله اصطفاك وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين .

وساد المحراب سكون رهيب ، وبقيت مريم فى ذهول ، حتى إذا أفرخ روعها ، أحست أمنا يغشاها ، وطمأنينة تنسكب فى روحها ، فملئت نشوة ، وسالت دموع الفرح على خديها ، وخرت ساجدة شكرا لله رب العالمين .

٢

« وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب ؛ وجد عندها رزقا ، قال : يامريم ، أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » . (قرآن كريم)

الهدوء يلف كل شيء ، حتى كان زفيف النسيم يسمع ، والضوء الخافت المنبعث من الذبالة يبدد الظلام ويفرش المكان بنور واه لطيف ترتاح إليه النفوس ، وكان للمكان قدسية وجلال ، ولاحت فى الضوء الخافت اللطيف مريم ، راكعة فى خشوع ، تبتهل إلى الله ، وجرت الدموع على خديها من الرهبة والوجد ، كان في وجهها نورانية وصفاء ، وأقبل زكريا يسير الهوينى . وقد نال منه الكبر ، يلوح فى وجهه التقى والصلاح ، ودخل عليها المحراب ، فوجد عندها فاكهة فى غير أوانها فتعجب ، وقال لها :

— يا مريم ، أنى لك هذا ؟

— هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

وخرج زكريا ، وفتحت مريم التوراة ، وراحت تقرأ قصص الأنبياء ، فأحست قربا منهم ، فرسل الرحمن الذين أرسلوا إلى موسى وهارون وداود حدثوها ، وبشروها بأن الله قد اصطفاها وطهرها ، إن الحوادث التى كانت تقرؤها فى شغف ، أصبحت تلمسها وتحسها فى أعماقها ، كانت تتمنى أن تكون كراعوث وراحيل اللتين كانتا بركة على بنى إسرائيل ، فإذا الملائكة تخبرها أن الله اصطفاها على نساء العالمين .

وراح زكريا يفكر فى أمره ، إنه قارب الثمانين ولم يرزق ولدا ، وحز فى نفسه أن يبقى فردا وقد مسه الكبر ، وتمنى أن يهب الله له غلاما ، ولكن ما كان له أن يطمع فى ذلك واليصابات عاقر ، ولكن لما وقع بصره على الفاكهة ، أحيا

ذلك موات الأمل فى نفسه ، إن الله الذى يرزق مريم بفاكهة فى غير أوانها ، قادر على أن يهب له ذرية على الرغم من أنه شيخ وامرأته عاقر .:

ودخل محرابه ، وسجد فى خشوع ، وجعل ينادى ربه فى حرارة :

ـــ يارب ، يارب ، يارب .

وصفت نفسه ، وتفتحت روحه ، وأحس كأن ينبوعا من النور تفجر فى جوفه ، فبدد الظلام الذى كان يحتويه صدره ، وشعر كأنما دنا من ربه ، فقال :

ـــ رب ، إنى وهن العظم منى ، واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا ، وإنى خفت الموالى من ورائى ، وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ، ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا .

وأطرق برأسه خاشعا ، وفاض النور فى المحراب ، وسمع حفيفا خفيفا ، فتلفت ، فرأى ملكا كريما ، يقول فى صوت حلو أخاذ :

ـــ يا زكريا ، إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سميا .

فرفع زكريا رأسه وقال :

ـــ رب ، أنى يكون لى غلام ، وكانت امرأتى عاقرا ، وقد بلغت من الكبر عتيا ؟ !

قال الملك :

ـــ كذلك قال ربك : هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا .

ـــ رب اجعل لى آية .

ـــ آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا .

وخرج زكريا على قومه ، يفيض وجهه بالبشر ، ويخفق قلبه بالسرور ، ورمز إلى قومه أن يسبحوا بكرة وعشيا ، فقد استجاب له ربه ووهب له يحيى .

ودخل زكريا على مريم محرابها ، فوجد عندها رزقا ، فرمقها فى إكبار ، واستشعر فى نفسه أن الله يعدها لأمر جليل ، فهى من نسل داود ، وما زالت عذراء ، فمن يدرى ، قد تكون أم المسيح الذى تنبأ بمجيئه وبشر به الناس .

وقنتت مريم لربها ، وسجدت وركعت ، وابتهلت إلى الله فى فحمة الليل ، وفى رائعة النهار ، وبينما هى فى محرابها هبت نسائم رقيقة ، وعبق الجو بروائح

زكية ، وغرق المكان فى نور سماوى ، وإذا بالملائكة أمامها ، وإذا بأمن عجيب ينزل بصدرها ، ورفعت بصرها وقالت الملائكة :

— يا مريم ، إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين .

أذهلتها البشرى ، فاضطربت ونسيت أنها كانت ترجو أن تكون أم المسيح المنتظر ، ونسيت ما كانت تعرفه من أن أمه ستحمل به وهى عذراء ، فنظرت إلى السماء وقالت :

— رب ، أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟

قال :

— كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون .

واجتهدت مريم فى عبادتها ، فصفت نفسها ورقت ، وجاء الصيف ، فكان النهار طويلا ، والجو حارا ، فأحست عطشا ، فرفعت قلتها لتشرب ، فلم تجد فيها ماء ، فقامت وهبطت إلى المعبد ؛ فطفقت أصوات المصلين تتضح فى مسامعها ، وألفت روحها تردد الصلاة فى أعماقها ، وذهبت وقلتها فى يدها ، وخلفت المعبد وراءها ، ولكن أصواتا ملائكية عذبة ظلت تردد الصلوات فى الفضاء ، فخيل إليها أن الكون كله يمجد الله ، وأن الريح تسبح بحمده ، وأن كل شىء يذكر اسمه . ففاضت بهجتها ، وبلغت البئر وملأت قلتها ، وتأهبت للعودة ، ولكنها وقفت تتطلع فى عجب ، فالدنيا خاشعة ، كل شىء هادىء ، كأنما الأرض تتلقى وحيا من السماء ، وفجأة سمعت حركة بجوارها ، فالتفتت خائفة ، فإذا بشاب وسيم يشع من وجهه نور . فاضطربت وارتدت وقد اتسعت عيناها رعبا وانبهرت أنفاسها ، وقالت :

— إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا .

فقال فى صوت يقطر رقة وعذوبة :

— لا تراعى .

فقالت ولا زالت فى خوفها :

— من أنت ؟

— إنما أنا رسول ربك ، لأهب لك غلاما زكيا .
— أنى يكون لى غلام ، ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا ؟
— كذلك قال ربك ، هو على هين ، ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا .

ونفخ الله فيها من روحه ، ثم عادت إلى محرابها ، وقبعت فيه مطرقة تفكر ، فغشيها هم وقلق ، لقد حملت بالمسيح ، وستظهر عليها علامات الحمل . فهل يصدقها الناس إذا قالت لهم إن الله وهب لها غلاما زكيا ؟ لن يصدقها الناس ، سيتغامزون عليها ، ويرمونها بالفاحشة ، ولن تستطيع لاتهامهم دفعا .

وراحت الأيام تمر وهى تعيش فى أفكارها ، واجتمعت عند البئر بفتيات يتحدثن ، فدار الحديث حول الدين ، وجاء ذكر المسيح المنتظر ، فرأت مريم أن تعرف رأى الناس إذا كاشفتهم بسرها ، فقالت لهم :
— لقد حملت به .

فاتسعت العيون دهشا ، وارتسمت على الوجوه زراية ، وجرت على الألسن سخرية مريرة ، فانسحبت مريم وهى حزينة ، تكاد كبدها تنفطر ، وعزمت على أن تطوى سرها فى صدرها ، ولكن حديث البئر ذاع بين بنات أورشليم ، وقال الناس : إن مريم تريد أن تخفى خطيئتها بادعائها أنها حملت بالمسيح ، عرفت أنها من نسل داود ، فوجدت بذلك مبررا لدعواها الكاذبة .

وانتشر حديث حمل مريم انتشار الريح ، وذاع حتى بلغ الناصرة ، فساد القوم وجوم ، وراحوا ينظرون إلى يوسف النجار فى احتقار ، وقاطعوه لأنه جنى الثمرة قبل أوانها .

وعجب يوسف لنظرات الناس وكشحهم بوجوههم عنه ، وسأل عما دفع الناس إلى احتقاره ، فبلغه ما يقول الناس عنه ، فنزل به حزن ثقيل ، ولم يصدق ما يلصقه الناس بمريم . إنه يعرفها تقية نقية ، وقلبه يوحى إليه أنها لا تأتى فاحشة ، وما كان قلبه يخدعه . واستمر حديث الناس يؤذيه ، فلم يستطع عليه صبرا ، فشد الرحال إلى أورشليم ، إلى حيث تتعبد مريم .

انطلق وهو حزين ، ونفسه موزعة بين الرجاء واليأس ، إذا أراد أن يتهمها

ذكر صلاحها وبراءتها ، وإذا أراد أن يبرئها ذكر ما يقول عنها الناس ، فبقى فريسة لأفكاره لا يهدأ له بال ، ولا تغمض له عين ، فيستريح من الرؤى التى تهاجمه فى قسوة ، فتمزق روحه ، وتفتت كبده .

وبلغ أورشليم ، وتقدم خافق القلب ، مضطرب النفس ، وقد شغل بإحساساته عن كل ما حوله . وقابل مريم ، فألفاها قد رق جسمها ، واصفر لونها ، وكلف وجهها ، ونتأ بطنها ، فانقبض ، ونزل بقلبه حزن عميق ، وغشى وجهه إظلام ، ولكنه كبت ما يقاسيه ، فقد كانت نفسه كإسفنجة تمتص الآلام ولا تطفح بها ، فقال لها وهو مطرق ، لا يرفع عينيه إليها :

— بلغنى ما يقول الناس عنك ، وقد حرصت على أن أميته وأكتمه فى نفسى ، فغلبنى ذلك ، فرأيت أن الكلام فيه أشفى لصدرى .

فقالت مريم فى ثبات :

— فقل قولا جميلا .

— ما كنت أقول إلا ذلك ، فحدثينى : هل ينبت زرع بغير بذر ؟

— نعم .

— فهل تنبت شجرة من غير غيث يصيبها ؟

— نعم .

— فهل يكون ولد من غير ذكر ؟

— نعم ، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ، والبذر إنما كان من الزرع الذى أنبته الله من غير بذر ، أولم تعلم أن الله أنبت الشجر من غير غيث ، وأنه جعل بتلك القدرة الغيث حياة للشجر ، بعد أن خلق كل واحد منهما وحده ؟ أو تقول لم يقدر الله على أن ينبت الشجر حتى استعان عليه بالماء ، ولولا ذلك لم يقدر على إنباته ؟

قال يوسف :

— لا أقول ذلك ، ولكنى أعلم أن الله بقدرته على ما يشاء ، يقول لذلك كن فيكون .

— أو لم تعلم أن الله عز وجل خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى .

— بلى .

وأطرق مفكرا ، وقع فى نفسه أن الذى بها شىء من عند الله ، ولم تتركه لفكره . بل قالت له :

— إن الله بشرنى بالمسيح عيسى ابن مريم .

كان يوسف مؤمنا تقيا ، يعتقد أن الله سيرسل المسيح إلى بنى إسرائيل نبيا ، من صلب داود ، وستضعه عذراء ، ومريم من تلك السلالة الطاهرة ، وهى كفء لحمله ، فلم يمار فى ذلك ، ولم يكذبها .

ودخل لينام ، فإذا بملك يقول له :

— يا يوسف ، إن ما فى بطن مريم من عند الله ، وقد اختارك الله لتكفل رسوله ، ولتكون راعيا له .

فهب يوسف من نومه منشرحا ، وسجد لله شكرا ، أن اختاره حارسا لمسيحه ، الذى سيرسله هداية لبنى إسرائيل .

٣

« فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت ياليتنى مت قبل هـذا وكنت نسيا منسيا » .

(قرآن كريم)

رأى رهبان المعبد أمارات الحمل تظهر على مريم ، فاستعظموه ولم يدروا على ماذا يحملون أمرها ، وساءهم أن تلوث المعبد من كانوا يظنونها أتقى أهل الأرض طرا ، إنهم تخاصموا فى أيهم يكفلها ، وقد شبت بينهم لاتغادر محرابها إلا لضرورة ؟ إن هذا الأمر يقلقهم ويحيرهم ويعصر نفوسهم فى أسى ، فاجتمعوا يتشاورون ، يديرون قداح الرأى بينهم ، فرأوا أن يحاكموها ، فإذا ظهر أنها فسقت رجموها ، كما تقضى شريعة موسى .

وراح زكريا يذكر لهم ما رأى فى محرابها ، ويذكرهم ببشارات الأنبياء بالمسيح ، وأن هذه التى يتهمونها ظلما هى الأم الموعودة ، التى يترقب بنو إسرائيل وليدها . إن زوجته ما حملت إلا ببركتها ، فلولاها لما رزقه الله يحيى . واستمر يبرئها مما نسبوه إليها ، ولكنهم أعرضوا عنه ، ووضعوا أصابعهم فى آذانهم ، وقالوا ما انبرى للدفاع عنها إلا لأنه كفيلها ، ولأن أمها أخت زوجته اليصابات .

وخيم الظلام ، ودثر أورشليم فى غلالته السوداء ، ونام الرهبان ينتظرون الصباح ، ليحاكموا مريم ويرجموها ، ودخل يوسف إلى فراشه ، وما أسلم جنبيه للرقاد ، وأغمض عينيه حتى هتف به هاتف :

— يوسف قم ، وأخرج مريم ، فالقوم يأتمرون بها .

هب يوسف من نومه ، فأعد حماره ، وانطلق إلى مريم وهو يترقب ، فأخبرها بما أوحى إليه ، ثم حملها على حماره ، وانطلقا فى سكون الليل فى الطريق الضيق ، حذاء الأسوار الهائلة التى تبعث فى النفوس الرهبة ، تلك الأسوار التى

بناها داود حول المدينة المقدسة ، وتركا الطرق المتعرجة ، وانسابا بين التلال الصفر ، ثم خرجا إلى الفضاء ، فصفرت الرياح ، ومشت الرعدة فى أجسامهما . كانت الليلة شديدة البرودة ، وأرسل القمر ضوءه ينير الطريق ، فبدت الصحراء الواسعة كبساط أصفر فضى وشاه الحسك . وانطوى الليل وأشرقت الشمس فدبت الحرارة فى الأجسام المقرورة .

ولمحا بئرا فذهبا إليها ، ونزلا عندها حتى إذا استراحا من السفر ، قاما يستأنفان رحلتهما ، وغابت الشمس فى الأفق الغربى ، ولاح الطريق الأبيض الذاهب إلى بيت لحم ، فانسابا فيه . وظهرت المدينة بأشجار السرو العالية ، والمنازل البادية كأشباح بيض بين أشجار الزيتون التى تظللها ، وأخذت بيت لحم تتضح أمام عيونهما ، تخفقت قلوبهما ، وبدت الأغنام بين الأشجار كقطع من الجليد متناثرة .

وبلغا باب المدينة ، فإذا النسر الرومانى فوقه ، وإذا بجند من جنود الرومان واقفون يحصلون الضرائب ، فالملك هيرودس يجبيها فى كل مكان ، ليرفعها إلى أسياده فى رومية . إنه يفعل كل ما يرضيهم وإن كان فى ذلك إرهاق لشعبه ، فغاية ما يبغيه أن يرضى عنه سيده أوغسطس قيصر .

دخلت القوافل بعد أن أدت الضرائب ، ومرت الجمال كالأطياف ، وراحت حوافر الحمير تضرب الأرض فترتفع أصواتها ، ودخل يوسف ومريم وقد أرخى الليل سدوله ، وانسابا فى طريق قامت على جانبيه أشجار الزيتون .

كانت ليلة شديدة البرودة ، وكان القمر فى ليلة تمامه ، يرسل أشعته ، فيسدل على الـكون وشاحا فضيا أخاذا ، وكانت النجوم فى رقعة السماء تتلألأ ، كأنما جلتها يد ساحرة .

وارتفعت نغمات مزمار ، فإذا براع يرعى غنمه فى الليل ، وإذا بالغنم قد استكانت ورفعت رءوسها ، كأنما الأنغام تسكب النشوة فى أجوافها ، فنظرا ، فقفزت إلى ذهنهما صورة داود وهو يرعى الغنم ، فقد رعاها فى هذه البقاع التى غطيت بالأعشاب ، فـكانت مراعى طيبة .

وسارا ، وما ابتعدا إلا قليلا حتى أحست مريم آلام الوضع . فتلفتت فوجدت

حقلا منبسطا ؛ إنه الحقل الذى جاءت إليه جدتها راعوث ، تجمع منه الحنطة وهى كسيرة الفؤاد ، بعد موت زوجها ومجيئها مع حماتها نعمى ، ووجدت ثلاثة من الرعاة جالسين فيه يحرسون أغنامهم ، فرأت أن تتحامل حتى تصل إلى نزل قريب ، ولكن فاجأها المخاض إلى جذع نخلة ، فاحتمت به تضع ما فى بطنها .

كانت الريح تزمجر ، والقر شديدا يجمد الأطراف ، فوقف يوسف بعيدا ، وقد أطرق أسى ، فمريم تضع أمل بنى إسرائيل المرتقب فى الخلاء ، ليس لها وطاء إلا الأرض ، ولا غطاء إلا السماء .

وهدأت الرياح ، وهبت نسائم عبقة بالعطر النفاذ ، وتغير الجو فإذا الليلة الباردة تنقلب ليلة رائعة من ليالى الربيع ، وسقط من السماء نور باهر أضاء المكان ، وانبعثت ترتيلات ملائكية هزت نفس يوسف ، وجعلته ينظر وهو لا يدرى ، أهو سابح فى حلم من أبهج الأحلام أم هو يقظان .

غشى النور أبصار الرعاة ، فنظروا مدهوشين ، ومست آذانهم الأصوات الملائكية التى كانت تسبح لله القادر ، فامتلئوا عجبا ، وفطنوا إلى أن المرأة التى التجأت إلى الشجرة إنما تضع مولودا مباركا له شأن عظيم .

وطاف برأس مريم خاطر ، جاءت ساعة الوضع ، وعما قليل تنهض وعلى يديها طفلها ، فماذا يقول قومها عنها ، فحزنت وبرح بها الحزن ، فقالت :

ــ يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا .

ووضعت ابنها ، وما لمس الأرض حتى ناداها من تحتها :

ــ لا تحزنى ، قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا ، فإما ترين من البشر أحدا فقولى : إنى نذرت للرحمن صوما ، فلن أكلم اليوم إنسيا .

وحمل يوسف مريم ووليدها ، وذهب إلى نزل وضيع ، وانطلق الرعاة إلى المدينة يقصون ما رأوه فى الليلة العجيبة .

وخرج ثلاثة رجال من فارس ، يرصدون نجوم السماء ، فهم يقرءون ماسطر فى سجل القدر ، ليرفعوه إلى ملكهم . كانوا على علم بالنجوم ، وما كان الملك يتخذ أمرا قبل أن يستمع إلى نصحهم ورأيهم .

كان الملك يحكم شعبه ، وهؤلاء الحكماء يحركون الملك ، فهم الملوك الحقيقيون : يعلنون الحروب ، ويقتلون الرجال ، ويوحون — إن أرادوا — بالسلام ، فهم القوة المحركة فى البلاد ، يقبضون على أزمتها باسم العلم والدين .

شخص ثلاثتهم إلى السماء ، يرصدون النجوم المتلألئة فى الرقعة الزرقاء ، قال قائل منهم :

— طلع الليلة نجم جديد .

— هذا نجم لم نره قبل الليلة .

— ولد الليلة ملك .

— إنه ملك اليهود .

— الملك الذى جاء ذكره فى التوراة ، ذلك الذى سيرسله الله سلاما .

— حقا هذا نجمه .

— وأين ولد ؟

— هناك فى أرض اليهود .

— فلنخرج إليه ، نعلن تصديقنا به ، وإيماننا بالله الذى أرسله .

وتجهزوا للرحلة الطويلة ، وحملوا هداياهم ، وكانت من الذهب والمر واللبان ، وامتطوا رواحلهم ، وخرجوا من فارس ، وعبروا دجلة والفرات ، وانسابوا فى الصحراء على امتداد البحر الميت ليبلغوا أرض اليهود ، ويسألوا عن المولود الذى بزغ نجمه فى المشرق .

بلغ الرجال الثلاثة صهيون ، وانطلقوا يتلفتون ، إنهم يرون القوافل غادية رائحة ، والعربات التى تجرها الثيران ذاهبة إلى الحقول أو خارجة منها ، فظلوا فى سيرهم حتى رأوا سوقا ، فهبطوا عن رواحلهم ، واندسوا بين الجماهير .

راحوا يتنسمون أخبار المولود الذى رأوا نجمه فى السماء ، فلم يهتدوا إليه ، واقترب أحدهم من عين من عيون هيرودس ، وقال له :

— بزغ فى المشرق نجم ملك اليهود الذى وعد الله أن يرسله سلاما ، فجئنا من بلادنا نبحث عنه ، ألا تدرى أين ولد ؟

— ماذا تريدون منه ؟

— جئنا نؤمن به ونصدقه .

— لم أسمع بهذا قبل الآن .

واستمر الرجال فى بحثهم وتنقيبهم ، وذهب رجل هيرودس إلى القصر ، وكان الملك فى قصره الجديد فى صهيون ، يفضى إليه بالنبأ العجيب ، فبعث هيرودس رجاله يحضرون له هؤلاء الذين جاءوا من فارس يوسوسون فى آذان الشعب ، أن ملكا جديدا قد ولد ، فيزعزعون ثقة الشعب فيه .

وخرج رجال الملك إلى السوق ، وجاءوا بالرجال الثلاثة ، فلما مثلوا أمام هيرودس الأكبر ، قال لهم :

— من أنتم ؟

— نحن أشراف قومنا ، شرفنا العلم والدين ، نقرأ النجوم ، ونعرف الغيب ، وما كان ملكنا يقضى أمرا قبل أن يرى رأينا فيه .

— وما الذى جاء بكم إلى أرضنا ؟

— هذا أوان نبى أظلنا زمانه ، فكنا نخرج كل ليلة نرصد النجوم ، نرقب بزوغ نجمه ، فلما بزغ شددنا الرحال إليه ، نصدقه ونؤمن به ، ونقدم إليه هدايانا .

— فما بال الذهب والمر واللبان قد اخترتموها من بين الأشياء كلها ؟

— تلك أمثاله ، لأن الذهب هو سيد المتاع كله ، وكذلك هذا النبى هو سيد أهل زمانه ، ولأن المر يجبر به الجرح والكسر ، وكذلك هذا النبى يشفى به الله كل سقيم ومريض ، ولأن اللبان ينال دخانه السماء ولا ينالها دخان غيره ، كذلك هذا النبى يرفعه الله إلى السماء ، لا يرفع أحدا غيره .

— وما أدراكم أنه يظهر هنا فى أرضنا ؟

— إنه رسول إلى بنى إسرائيل ، إنه ملك اليهود .

انقبض هيرودس ، ولكنه أخفى عواطفه ، والتفت إلى من حوله وقال :

— على بالكهنة .

فجىء بهم ، فقال لهم :

— اسمعوا ما يقول هؤلاء ، ثم أنبئونى أين يولد هذا المولود .

أصغى الكهنة إلى الرجال الثلاثة ، ثم قالوا :

— يولد المسيح ، نبى بنى إسرائيل ، فى بيت لحم مدينة داود .

فتطير هيرودس ، وانفجر فى جوفه مرجل غضبه ، وتحركت عوامل الحقد فيه ، إنه طاغية لا يطيق أن يعترض سبيله إنسان ، ويا طالما قضى على أفراد أسرته حتى لا ينافسه فى ملكه منافس ، وإذا بهؤلاء الغرباء يقدمون من بلاد بعيدة ، ليخبروه أن وليدا قد جاء إلى الدنيا ليستل منه عرشه ، لو أنه يدرى أين هذا الوليد لقتله ، ولاستراح منه ، ولكنه لا يدرى أين هو ، فكظم غيظه ، وجعل يدارى ما به ، وقال متكلفا الرقة :

— اذهبوا ، فإذا علمتم مكانه فأعلمونى ذلك ، فإنى أرغب فى مثل ما رغبتم فيه من أمره .

وانطلق الرجال الثلاثة إلى بيت لحم ، ودلفوا إلى الطريق الأبيض الذى قامت على جانبيه أشجار الزيتون . اخترقوا الحدائق ، وهم يتلفتون لا يدرون أين يذهبون ، وراحوا يبحثون وينقبون ، ولكنهم لم يهتدوا إلى الطفل المبارك الذى تجشموا أهوال السفر ليقدموا إليه هداياهم ، وكنوز قلوبهم العامرة بالإيمان واليقين .

وأقبل الليل ، وبزغ فى السماء نجم ، إنه نجم ذلك النبى الموعود ، فتطلعوا إليه فإذا بالنجم يسير ، كأنما يهديهم سواء السبيل ، فساروا فى أثره ، وقلوبهم تخفق فى حنايا الضلوع .

وتلألأ النجم فوق نزل متواضع كأنما يسير إليه ، فقالوا فى فرح :

— إنه هنا ، فى هذه الدار .

وتقدموا خافقة قلوبهم ، يشعرون برهبة ما أحسوا بها قبل الآن ، فطالما تقدموا إلى الملوك ثابتى الجنان ، لا يسرى فى أجوافهم خوف ، وطرقوا الباب هونا ، فإذا بالباب يفتح وإذا بصوت يدعوهم للدخول ، فتقدموا خاشعين ، وفى ضوء المصباح الخافت تبينوا المكان ، فإذا مريم جالسة وعلى ركبتيها ابنها الصغير ، تحيط به هالة من نور ، ووقف إلى جوارها يوسف ، الرجل الذى فتح لهم الباب ، ودعاهم إلى الدخول .

دنا الرجال من الطفل الصغير ، فنزل بقلوبهم أمن ، وانداحت فى أجوافهم

بهجة ، لأن رحلتهم لم تذهب هباء ، وقاموا إلى مريم يقدمون إليها ما يحملون من الذهب والمر واللبان ، وقالوا لها :

— خرجنا إلى هنــا حاجين ، وجئنا من فارس نعلن تصديقنا برسول رب العالمين .

ونام الرجال الثلاثة فرحين ، وعزموا على أن يرجعوا إلى هيرودس ويخبروه أنهم عثروا على المسيح ، ليؤمن به ويصدقه ، وما دار بخلدهم أن هيرودس وأهل بيته هم أعداؤه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيا .

وأغرقوا فى نومهم ، فرأوا من يقول لهم :

— لا ترجعوا إليه ، ولا تعلموه بمكانه ، فإنما أراد بذلك أن يقتله .

وانصرف الرجال إلى بلادهم ، وقد أخذوا طريقا غير طريق هيرودس ، الذى يبغى القضاء على رسول الله إلى بنى إسرائيل .

٤

« فأتت به قومها تحمله ، قالوا : يامريم لقد جئت شيئا فريا ، ياأخت هارون ما كان أبوك امرء سـوء ، وما كانت أمك بغيا ، فأشارت إليه ، قالوا كيف نـكلم من كان فى المهد صبيا » ؟

(قرآن كريم)

بقيت مريم فى المنزل لا تستطيع مغادرته ، فما كان لامرأة وضعت ما فى بطنها أن تترك البيت قبل أن يمضى على ذلك أربعون يوما حسب شريعة موسى ، وتمت الأيام، فخرج يوسف ومريم والوليد ، وانطلقوا فى رحلتهم الخالدة ، إلى الناصرة إذا نزلوا بئرا أطلق عليه من بعد بئر مريم ، وإذا استظلوا بشجرة حجت إليها الأجيال ، وإذا مدوا أبصارهم إلى مشهد من مشاهد الـكون ، هرع الفنانون والرسامون والـكتاب على مر العصور يستوحون الطريق الذى يجتازونه الآن ، ليمدهم بالمشاعر والانفعالات التى تيسر لهم إبراز لوحاتهم ، أو شحن كتبهم بالإحساسات النابضة .

كانت رحلة هينة ، لم يستشعروا فيها آلام النفس التى كانت تضنيهم ، فقد أقلع الخوف بعد أن صدق الله وعده ، ووهب لمريم ابنها فى بيت لحم اليهودية ، إن الله حارسهم ومؤيدهم ومظهرهم ، فلن تفت فى أعضادهم الشدائد ، ولن تعرف قلوبهم القلق وإن حاقت بهم الـكروب ، سيمتثلون أوامر الله صابرين ، حتى يتم نوره ولو كره الـكافرون .

وانقضت أيام ، وانطوى الطريق ، ولاحت تلال الناصرة تـكللها أشجار السرو والزيتون ، وانساب الركب الصغير إلى البيوت الناصعة . وظهر يوسف ومريم والطفل الصغير فى شوارع الناصرة ، فتطلع الناس إليهم فى احتقار ، وأشاحوا عنهم بالوجوه زراية ، فلم تطرق مريم عارا ، بل ظلت مرفوعة الرأس ، كانت على يقين من أنها تضم إلى صدرها أشرف مخلوق .

وأمام باب الدار هبطت عن ظهر الحمار ، فخف إليها بعض أقاربها يقرعونها أمام الناس ، مظهرين غضبهم مما فعلته ، مبرئين أنفسهم من إثمها الذى ارتكبته ؛ ولحتها أمها ، فانطلقت إليها ، الخزى يكللها ، والحزن ينهش قلبها ، والنار تلسع روحها ، ودموع العار تجرى على خديها .

نظر القوم إلى مريم ، مريم التى سميت باسم أخت هارون التقية الصالحة ، تيمنا بها ، فإذا بها تأتى إليهم وعلى يديها ابنها الناطق بفاحشتها ، وقالوا لها :

— يامريم ، لقد جئت شيئا فريا ، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا .

طأطأت حنة رأسها فى ذلة ، وتمنت لو أن الأرض تنشق وتبلعها ، فوقع ذلك المشهد شديدا على نفسها ؛ عاشت تقية نقية ، ومادار بخلدها أن الزمن يدخرها ليوم كيومها هـذا الذى تمنت لو لم تشرق شمسه ، أما مريم فـكانت هادئة ، لم تنبس بكلمة ، بل أشارت إليه أن كلموه ، فقالوا فى غضب :

— إن سخريتها بنا أفجر من فاحشتها ، كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟

وإذا بالصبى يتكلم ، فتنعقد ألسنة الجميع دهشا :

— إنى عبد الله ، آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شـقيا ، والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا .

انجلت عن صدر امرأة عمران الهموم ، وانداحت فيه نشوة هزتها ، فانهمرت دموع الفرح من مآقيها .

ودخلت مريم دار أهلها ، فإذا أشرقت الشمس جلست أمام الباب تداعب ابنها ، وتمد بصرها إلى ماحولها ، فتحس انشراحا ، فالأرض ازينت وارتدت ثوبها الأخضر القشيب ، فكانت كأنما ردت إلى شبابها ، والتلال توجت بأشجار التين والزيتون فلاحت فى النور زاهية ، وانطلقت الأغنام ترعى العشب هادئة بريئة ، براءة ذلك الطفل الراقد فى حجرها يهز يديه ورجليه فى مرح .

خيل لمريم أن الدنيا كلها راكعة تحت قدميها ، تتنافس فى أن تدخل البهجة على قلب ابنها : النسيم يهب رخاء ينعش الأفئدة ، والشمس ترسل أشعتها لطيفة

تبعث فى النفس الأمل ، والطيور ترفرف فوقها فى فرح ، والأغنام تفد إليها تتمسح بها ، فتضع يده على رءوسها ، فتشرق بسمة على ثغره ، إن قلبه الصغير ليهفو إلى وداعة الغنم .

كانت الطمأنينة تلف كل شىء فى الناصرة ، فقرت عين مريم ، وسكن الهدوء قلبها ، ولكن ما كانت هذه السكينة لتدوم طويلا ، فما كان الله يدع من يعده للرسالة للراحة والهدوء والدعة ، إن الله يحمله المشاق ، ليعوده الاحتمال والصبر ، ويقسو عليه بالحرمان ، ليغرس فى نفسه العطف ، ويرسله يضرب فى الأرض ، ليزيد فى كنوز قلبه الغالية .

ومن هناك من صهيون جاء الفزع . كان هيرودس يعيش فى قصره الجديد بين أشباح الماضى ، يرتجف فرقا على عرشه ، فهو يعلم أنه ارتقى العرش اغتصابا . كان حفيد خادم فى هيكل أشقلون ، واغتصب الملك بمعاونة قياصرة الرومان المغامرين ، وجاءه اليهود وأخبروه أنهم لا يقبلونه ملكا عليهم ، فما كانوا يملكون عليهم إلا رجلا من بنى إسرائيل ، فأزهق أرواحهم ، حتى لا ترتفع اعتراضاتهم الوقحة .

كان الخوف من أن يهوى عن عرشه يقلقه ، ويثير ضراوته ، فإذا طاف به طائف من شك برزت وحشيته ، أمر بخنق زوجته الأميرة مريمى ، لأنه ظن أنها تعمل على أن تعتلى عرشه ، ولم يشفع لها عنده أنها المرأة الوحيدة التى خفق قلبه بحبها ، وسفك دماء الفريسيين لأنهم تنبئوا بزوال ملكه ، وانقضاء سلطانه . وقتل بعض أولاده ، ليقضى على وساوسه التى نبتت فى صدره ، فقد حامت حولهم شكوكه ، وظن أنهم يتآمرون على ملكه .

كان همه الأوحد أن يوطد سلطانه ، ولما كان على يقين أن الشعب يبغضه ولا يؤيده ، استمد التأييد من القياصرة الرومان ؛ خضع لهم ، ورفع إليهم الضرائب ، وثبت النسر الرومانى على المعبد ، وعلى أبواب المدن ، وأحاط نفسه بجنود مرتزقة ، لا هدف لهم إلا سلب ماتصل إليه أيديهم .

كان حاكما قاسيا فظا غليظ القلب ، غارقا فى الآثام ، يلغ فى الدماء ، فطالما ذبح كهنة ونبلاء ، وطالما انتزع الاعترافات ممن يظنهم أعداء بالتنكيل والتعذيب ، وطالما سلب لينفق على آثامه ، حتى سلب قبر داود ، وراح يعب

كأس اللذات،وعرف عنه الشذوذ ، وضاق الناس به ، فذهب وفد من اليهودإلى روما يشكون سوء إدارة ذلك الطاغية ، فقالوا إن الذين أصابتهم نقمته أسعد حالا ممن يعيشون فى كابوس حكمه ، ولكن أوغسطس قيصر صم أذنه ، فهيرودس خادم أمين لروما ، يطبق قوانينها ، ويتبع سياستها ، ويعلم أبناءه بها ليرضعهم حبها ، ويغرس فيهم الخضوع لها .

وفد المجوس إليه وأنبئوه أنهم جاءوا من بلادهم لما بزغ نجم ملك اليهود ، فأنشب القلق أظافره فى جوفه ، وانتظر على كره منه أوبتهم ليخبروه بمكانه ، فيقضى عليه . ويستريح من أوهامه ، وطال انتظاره ، ولم يرجع إليه الرجال . فعيل صبره ، وكشر الوحش القابع فى أغواره عن أنيابه ، فأمر — كما أمر فرعون موسى من قبله — أن يقتل جميع الرضع فى بيت لحم ، حتى يقضى على ذلك المولود الذى تطير به ، وأقلقه وأنزل بصدره المخاوف والهموم .

كان ذلك فى القصر الهائل الشامخ على جبال صهيون ، أما فى الناصرة فقد عسعس الليل ، وأغلق يوسف النجار حانوته ، وعاد إلى البيت ، إنه يقاسى شظف العيش ، كان الفلاحون والفقراء يعهدون إليه بأعمال النجارة ، وما كان معهم مايجزونه به . وتناول طعامه ، وراح يقرأ فى التوراة ، حتى انقضى من الليل ثلثه ، ودخل إلى فراشه ونام ، ورأى فى نومه من يهتف به :

— يا يوسف ، قم واحمل الطفل وأمه واخرج إلى مصر ، فهيرودس يبحث عنه ليقتله ، فهب يوسف من نومه ، وقلبه يدق فى شدة ، وأخذ المصباح الخافت ، وانطلق إلى حيث كانت مريم ، فألفاها نائمة تضم إليها ابنها فى حنان . فناداها :

— مريم ، مريم .

ففتحت عينيها السوداوين الواسعتين ، ونظرت فوجدت يوسف أمامها ، وتبينت على الضوء الخافت قلقا فى وجهه ، فقالت :

— ماذا حدث ؟

— انهضى ، إن الله يأمرنا أن نخرج إلى مصر .

وقامت مريم تعد عدتها لسفر طويل ، وتجهز يوسف بالزاد والماء ، ولما تم كل شىء حملت مريم ابنها ، وركبت حمار يوسف ، وسروا فى سكون

الليل فى طرقات الناصرة الضيقة ، وأخذوا يطوون الطريق المتعرج الذى انساب بين التلال كثعبان .

وخرج جنود هيرودس إلى بيت لحم ، وانقضوا على الرضع انقضاض الكواسر ، ينزعونهم من الصدور الخافقة بالحنان ، ليذبحوهم ذبح الأنعام ، بين النواح والعويل والصراخ ، وسجا الليل وقد تجللت بيت لحم بسواد الحداد ، وانبعث من دورها النحيب والنشيج ، فما تركت سيوف هيرودس بيتا إلا طعنته فى سويداء الفؤاد .

وأشرقت الشمس والمدينة غارقة فى الدماء ، والركب الصغير الهارب من وجه الطغيان ينطلق رويدا رويدا فى جوف الصحراء . ونظر يوسف خلفه ، ثم أخذ بزمام حماره ، وتقدم يخوض محيط الرمال فى ثقة ، فقد كان على يقين أن الله يرعاهم ، وأنه لن يضيعهم .

٥

« وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » (قرآن كريم)

ارتفعت الشمس ، ومرت الساعات ولا شيء غير الشمس والرمال والسماء ، لا حركة ولا حس ، كأنما فارقت المكان الحياة ، حتى الرياح خمدت ، ولولا الحرارة المنبعثة من الرمال ، لخيل للركب الصغير المنطلق فى سبيل الله أن كل شيء قد مات .

وظلوا فى سيرهم ، ليلهم ونهارهم ، حتى بلغوا طريق القوافل ، فراحت مشاهد التوراة تتمثل حية أمام أبصارهم ، ففى هذا الطريق بيع يوسف بدراهم معدودة ، وفى نفس الطريق سرى يعقوب بأهله ليدخلوا مصر بسلام ، بعد أن صار يوسف على خزائن الأرض ، وفى هـذا الطريق ذهب موسى هاربا من وجه فرعون بعد أن قتل المصرى .

كانت تربطهم بهذا الطريق ذكريات وذكريات ، ذكريات حلوة مشرقة بالأمل ، وذكريات مرة تغلفها الأحزان . سـاروا يجترون حوادث الأيام ! وما دار بخلدهم أن هذه الرحلة التى يكابدون مشاقها إنما خلدت على الأيام .

واستمروا فى سيرهم بين شروق وغروب حتى أشرفوا على طور سيناء ، خفقت القلوب ورفرفت كجناح حمامة ، فقد تجلى الله لموسى على هذا الجبل ، وكتب فى الألواح وصاياه ، وذهبوا إلى الوادى المقدس طوى ، فخلع يوسف نعليه ، ووضعت مريم ابنها على الأرض ، فشخص ببصره إلى السماء ، وخرت هى ساجدة ، كانوا فى تلك البقعة الطاهرة يناجون الله .

ودخلوا مصر آمنين ، وتركوا الصحراء ، وانطلقوا فى الحقول ، وجاء الغروب ، فراحت الشمس تغوص فى الأفق البعيد ، فبدت جداول الماء فى لون

العقيق ، ثم انقلب لونها إلى أصفر فضى ، وسرعان ما انقلب إلى لجين ، وبدا النخيل كأشباح سود سامقة فى ظلال السماء ، واختفت الصقور والحدأ والغربان ، وخفتت زقزقة العصافير .

مضى النهار وبقى الشفق ، فلما نشر الليل أجنحته على مصر بعد ، وخشع السكون وهدأ ، وصار كل شىء لا ظل له ، وراحت النجوم تبزغ واحدة إثر أخرى فى رقعة السماء ، وأشرف القمر على الفضاء ، فأنار السبل ، وغلف الدنيا بسحره ، وانعكس ضوءه الفضى على صفحة النيل فبدا كمرآة .

رنا يوسف ومريم إلى النيل رنوة صداقة ، فقد حمل موسى لما ألقته أمه فيه إلى قصر فرعون ، ليشب فى كنفه إمعانا فى السخرية منه ، وشب موسى وكبر وأرسله الله إلى فرعون ليرسل معه بنى إسرائيل ، وظل صابرا حتى أخرج قومه من العبودية والذل المهين .

انفعل يوسف لتلك الذكريات ، وانفعلت لها مريم ، وكان لها فى أنفسهما وقع السحر ، قوت عزائمهما ، وثبتت إيمانهما ، وراح عيسى ينظر إلى ما حوله بعينيه الصافيتين ، وأشرق على فمه الصغير ابتسامة رضا ، فضمته أمه فى هيام ووجد .

ودلفوا إلى منف ، فإذا العجلات تعج فى الطرقات ، وإذا الجنود فى غدو ورواح ، وإذا الناس فى إقبال وإدبار ، وإذا الأعمدة فارهة عالية ، وإذا المعابد هائلة شاهقة ، وإذا التماثيل قدت من الصوان ، وإذا الجلبة والضوضاء ، فأزعجهم ذلك الصخب المنبعث من أرجائها ، بعد الهدوء الشامل المسيطر على الحقول والصحراء . وأدركهم النصب ، فهبطوا بها يقضون ليلة .

ثم ولد النهار ، فخرجوا إلى منف يجوسون خلالها ، فألفوا المتاجر منتشرة على جوانبها ، مكدسة بالبضائع والحلى وأدوات الزينة ، والعجلات الفاخرة تنطلق فى دروبها . إنها مدينة غنية ، ينعم بالعيش فيها السادة الفارغون أصحاب الإقطاعات ، أما الفقراء فيحيون فيها حياة السائمة . فرأوا أن يغادروها إلى الخلاء حيث الدعة والصفاء .

ذهبوا شمالا ، ونزلوا عين شمس ، وما انتظمت أنفاسهم بعد الرحلة الطويلة القاسية ، حتى أخذ يوسف يبحث عن عمل يقتات منه ، إنه نجار ، فامتهن

النجارة ، ووفقت مريم إلى العمل فى حقل من الحقول ، فما أشرف أن يأكل المرء من كسب يده .

كانت مريم تخرج مع الشمس ، وتعود مع الغروب ، وفى وقت الظهيرة تستظل بشجرة جميز عجوز ، وتتناول طعامها ، ثم تستأنف عملها ، المهد فى منكبها فما كانت تأمن على ابنها أحدا ، والوعاء الذى تجعل فيه السنبل فى منكبها الآخر ، فإذا جن الليل ذهبت تصلى لله وتدعوه ، ثم تنام فى المكان الوضيع الذى أعده صاحب الأرض لمبيت عماله .

ومرت شهور وأعوام ، وعيسى فى مصر ، يرقب بزوغ الشمس ومغيبها ، وجريان النيل وزيادته ونقصانه ، وبذر الحب وترقب الثمار من الرب ، ويصغى إلى أمه تقرأ له التوراة ، وتعلمه الدعاء والصلاة ، فكان فى هجعة الليل يرنو إلى النجوم المتلألئة فى سماء مصر الزرقاء ، الصافية صفاء القلوب المؤمنة ، ثم يأخذ فى مناجاة ربه ، فيحس على صغره ، كأنما ملىء قلبه نورا وحكمة .

وتعاقب الليل والنهار ، ومرت الشهور إثر الشهور ، وجرت الفصول خلف الفصول ، وكرت السنوات ، وترادفت الفيضانات ، وزاد عمر الزمن سنوات ، وعيسى فى مصر يرى قسوة الحكام ، وذلك الثراء الذى يخرج من الطين دون عناء ، ليبدد فى الهواء .

وفى ليلة من الليالى دخل على أمه ، فألفى الوجوم يخيم على المكان ، فنظر إليها فعرف فى وجهها الحزن ، فدنا منها وقال :

— ماذا حدث يا أماه ؟

— سرقت خزانة صاحب الدار .

— يا أم أتحبين أن أدله على ماله ؟

— نعم يا بنى .

— قولى له يجمع لى من فى الدار .

ذهبت مريم إلى الرجل ، والتمست منه أن يجمع كل النازلين بداره ، فلما اجتمعوا ، عمد عيسى إلى رجلين منهم ، أحدهما أعمى والآخر مقعد ، فحمل المقعد على عاتق الأعمى ، ثم قال له :

— قم به .

فقال الأعمى فى مسكنة :

— أنا أضعف من ذلك

فقال عيسى :

— فكيف قويت على ذلك البارحة ؟

فلما سمعوه يقول ذلك ، بعثوا الأعمى حتى قام به ، فلما استقل قائما بلغ المقعد كوة الخزانة .

قال عيسى للرجل :

— هكذا احتالا لمالك البارحة ، فقد استعان الأعمى بقوته ، والمقعد بعينيه .

فلم يستطع الرجلان نكرانا ، فقالا :

— صدق .

وردا المال إلى الرجل ، فجاء إلى مريم وقال :

— يا مريم ، خذى نصفه .

— إنى لم أخلق لذلك .

— فأعطيه ابنك .

— هو أعظم منى شأنا .

٦

« وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد ،
أو تسمع لهم ركزا » . (قرآن كريم)

تحت ظلال نخيل أريحا قام قصر هائل . . إنه قصر هيرودس الذى شيده لمسراته ، يجتمع فيه بجواريه وبمن يصطفى من زوجاته اللائى أكمل عدتهن عشرا ، كانت الراقصات العاريات يتثنين فى أبهائه ، وأصوات المغنيات تتردد فى جنباته ، وضحكات المجون تعلو على صخب الندماء والمخمورين .

ولف القصر — على غير عادة — سكون ، وخيم عليه هدوء شامل ، وراح الجنود والخدم يسعون هونا فى طرقاته ، فالملك الطاغية طريح الفراش ، يشكو ما ألم به من أسقام . كان مسجى فى سريره الفاخر ، يغوص فى الديباج ، ولكن القروح كانت تأكل جسمه ، والدود يسرى فيه .

اصفر لونه ، وذبل وغارت عيناه ، ولكن لم تختف قسوته وضراوته ، فإذا ضاق بمرضه حطم كل ما تصل إليه يداه .

وذاع فى البلاد خبر مرضه ، ولما كان الشعب يبغضه من كل قلبه ، استراح الناس إلى هذا النبأ ، وباتوا يترقبون الخلاص القريب ، إن هى إلا أيام ويموت الطاغية ، ويتنفس الشعب بعد حكم قاس دام أطول السنين .

وشاع فى أورشليم أن هيرودس الكبير قد مات ، فعم الفرح وأمر المعلمان اليهوديان يوداس ومتياس تلاميذهما أن يهبطا النسر الرومانى الذهبى الذى ثبته على باب الهيكل الكبير ، ليتخلصوا من ذلك العار الذى دمغهم ، وجثم على صدورهم ككابوس بغيض .

ونكس النسر الذهبى ، وارتفعت أصوات السرور ، ولكن لم تدم هذه البهجة طويلا ، فقد كان فى عمر الشقى بقية ، وبلغته وهو فى مرضه أنباء هذه الثورة ،

فبعث أقسى جنوده ليؤدبوا الثائرين ، وفى طرقات أورشليم دار القتال ، فانهزم الثوار ، ورفع النسر ثانية على باب الهيكل الكبير ، وجيء بأربعين من تلاميذ يوداس ومتياس ، وأراد هيرودس الراقد فى فراشه أن يبرهن على قدرته وجبروته ، فأمر بحرقهم أجمعين .

واشتدت وطأة المرض عليه ، وفكر فى أمره ، فساءه أنه سيموت ولن يذرف عليه أحد دمعة ، وحركت هذه الفكرة الوحش الكامن فى نفسه ، فأرسل إلى رؤساء القوم ومشايخ الأسرات أن يوافوه إلى قصره فى أريحا ، وأمر أن يذهبوا إلى ملعب الخيل ، ليرفهوا عن أنفسهم ساعة ثم يأتوا إليه ، وانطلق سادات القوم إلى هناك ، وما دلفوا إلى المكان حتى أغلقت دونهم الأبواب .

وأرسل إلى أخته سالومى ، وأسر إليها أن تقتل هؤلاء الرجال يوم موته ، فما ينبغى أن يكون ذلك اليوم يوم فرح وابتهاج ، بل ينبغى أن يكون يوم بكاء ونحيب ، وأن يسيطر على البلاد حزن عام ، ولن يكون ذلك إلا إذا قتل أشراف القوم وساداتهم .

أضناه المرض ، وضاق بالقروح المنبثقة فى جسمه ، فهاجت قرحة نفسه ، وفكر فى أن يتخلص مما يقاسيه من كرب وعذاب ، فهم بالانتحار سأما من الجحيم الذى يحيا فيه ، فالقمل يسرى فى بدنه . والنار تسرى فى روحه ، فتعذبه عذابا ما أقساه ، ولكن أخفقت محاولته ، فلا زال له نصيب من الضنى فى دنياه .

وفى سكرات الموت لم يفارقه طبعه ؛ خيل إليه أن ابنه انتيباس يتعجل موته ، ليتربع فى الحكم بعده ، فأمر بقتله ، ولكن لم يجرؤ أحد على أن ينفذ أمره ، فما كان هناك من يصغى إلى رجل يلفظ آخر أنفاسه ، ويخرج مع تلك الأنفاس أمره بهلاك من سيئول إليه السلطان !

واستسلم الطاغية للموت ، وأشباح ضحاياه تطوف بفراشه ، مستنزلة عليه لعنة السماء ، وانسل الروح الخبيث من الجسد الذى لم يعرف إلا الخطايا ، ولم يسع إلا إلى الشر والفساد . وماذاع نبأ هلاكه ، حتى اشتعلت الثورات ، فالشعب يريد التخلص من حكم أسرة هيرودس الطاغية ، فما يريد أن يحكمه أنتيباس

ولا أرخيلوس ، ولكن أرخيلوس اعتلى العرش ، ولم ينفذ وصية أبيه فى أشراف القوم ، لاحبا فيهم ، بل خوفا من الفتنة التى أطلت بخطمها .

وطالب الثوار أرخيلوس بمعاقبة نصحاء هيرودس ومستشاريه ، فلم يفعل . فأعلنت أورشليم العصيان ، وشاء أرخيلوس أن يعلم رعاياها ، أنه ليس أقل ضراوة من أبيه ، فأمر بذبح ثلاثمائة منهم فى الهيكل .

ثار الأردن ، وثارت اليهودية ، ودعا يهوذا الجليلى إلى حرب روما للتخلص من نيرها ، ففى ظلها يستبد بهم أمثال هيرودس وأرخيلوس ، فاجتمع الثوار وانطلقوا إلى أورشليم واحتلوها ، وحوصر الفيلق الرومانى الذى كان يحميها .

ونادى قائد من القواد بنفسه حاكما على أريحا ، وافتتح عهده بأن دمر قصر هيرودس وأشعل فيه النار .

ورفع علم الثورة فى جميع المدن اليهودية ، وخف الناس إلى يهوذا الجليلى يؤيدونه فى ثورته ، ويشدون أزره فى حربه ضد روما .

وغضب أوغسطس فى روما ، فأمر حاكم سورية أن يؤدب العصاة ، فخرجت الجنود العربية والفرسان الجرمان الذين كانوا تحت إمرة القائد الرومانى ، ودخلوا فلسطين ، يقتلون الرجال ، ويتركون المدن طعمة للنيران ، ففر الثوار منهم إلى التلال ، فمن لم يمت بالسيف مات بالعطش والجوع .

وسيطر الرومان على أورشليم ، ورفع الحصار عن حاميتها ، ونزل الكرب بالمدن اليهودية ، فاجتمع الفلسطينيون ومشايخ اليهود ، وبعثوا سفراء إلى أوغسطس يلتمسون منه أن ينصب عليهم ملكا يعيد الهدوء والسلام .

أصغى أوغسطس إلى الوفد القادم إلى روما ، يلتمس صيانة الأرواح ، فألفى الفرصة سانحة ليقسم فلسطين إلى ولايات ، تشغل بحزازاتها الداخلية عن النسر الرومانى الجاثم عليها ، يكاد يكتم منها الأنفاس .

قسم فلسطين إلى ولايات ، ونصب أبناء هيرودس الخمسة حكاما على تلك الولايات ، فهيرودس عبد مخلص لروما ، غذى أبناءه بحبها ، وسيتنافسون فى إرضاء النسر الرومانى ، وحمل الضرائب ، وخيرات البلاد إليه . واحتفظ بأرض اليهودية ، وجعلها ولاية رومانية ، يحكمها حاكم رومانى ، يتلقى الأوامر

من روما ، فما كان ليترك أورشليم ، القلب المقدس ، فى يد حاكم قزم من حكام الولايات .

وهدأت العواصف التى اجتاحت فلسطين ، وعاد الصناع إلى أعمالهم ، والتجار إلى تجاراتهم ، والتلاميذ إلى مدارسهم ، ولكن لم يرض المؤمنون الذين ملئت قلوبهم حقدا على الحكم الرومانى ، والقوانين الرومانية ، كانوا يرون طريق الخلاص فى العودة إلى شريعة موسى ، فلن يعرف الناس راحة القلب ، وهدوء النفس ، ولن يقوم العدل ، وتسود المحبة مكان التشاحن والبغضاء ، وتنقشع المظالم ، وتنمحى الفوارق ، ويتساوى الجميع ، ويعطف الأغنياء على الفقراء ، ويحب الفقراء الأغنياء ، إلا فى ظل حكومة تستمد قوتها من السماء .

مات هيرودس فى قصره فى أريحا ، وعيسى فى مصر ، يشب غريبا ، بعيدا عن أهله .

وجاء الليل ، وذهب يوسف لينام ، فرأى فى نومه من يقول له :

— قم وخذ الصبى وأمه ، واذهب إلى أرض إسرائيل ، لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبى .

وراح يوسف يتجهز للعودة ، حتى إذا تم كل شىء ، انطلق الركب المبارك فى الطريق الذى خرج منه موسى وقومه ، إن موسى خرج خائفا يترقب ، يخشى أن يلحق به فرعون ، أما يوسف وعيسى ومريم فينطلقون آمنين ، تداعبهم الآمال إذ هم مقبلون على قومهم ، ينتظرون وعد الله ومكتوبه .

* * *

خلفوا مصر وراءهم ووطئت أقدامهم أرض فلسطين ، وانطلقوا لا يرون إلا الصحراء المترامية ، فى الطريق الموصل إلى بيت لحم ، فقد كان يوسف يبغى أن ينزل بها ، ففيها ذكريات حبيبة إلى نفسه ، وهى قريبة من أورشليم ، لا يفصل بينهما إلا ساعات قليلة على ظهر حمار ، ولكنه علم وهو فى الطريق ، أن أرخيلاوس خلف هيرودس ، ولما كان يعلم أنه سر أبيه ، انطلق إلى الجليل ، ثم إلى الناصرة ، الوطن الأصلى ومنزل الجدود .

هبطوا الناصرة ، يحيون فيها حياة بسيطة . فى الصباح تذهب مريم إلى البئر تملأ جرتها ، ثم تعود لتعتنى بشئون بيتها ، ويذهب يوسف إلى حانوته ، يعمل

فى النجارة ، وعيسى معه يحمل الكراسى والصناديق إلى أصحابها ، فما كان يذهب إلى المدرسة ، بل كان يعمل ليحصل قوته .

وفى ذات يوم أقبل أحد الفريسيين إلى حانوت يوسف ، فرنا إليه يوسف فى قلق ، فالفريسيون هم رجال الدين المتزمتون الذين يراعون تطبيق حرفية شريعة موسى . أوصى موسى بالطهارة فراحوا يفتشون على الإسرائيليين ، ليتحققوا أنهم يسيرون على الناموس ، كانوا يأمرون بغسل كل شىء ، ولو كان الماء يغسل لأمروا بغسله .

تناول الفريسى الأوعية، وجعل يعاينها ، فلما اطمأن إلى نظافتها ، راح يجوس خلال الحانوت ، ويمرر إصبعه على الحيطان ، ويوسف يرنو إليه ، حتى إذا انتهى الرجل وخرج راضيا تهلل وجه يوسف انشراحا ، أما عيسى فكان يتطلع إلى ما يجرى أمامه فى امتعاض ، فما كان يطمئن إلى مثل ذلك الرياء .

وجاء يوم السبت فخرجوا إلى المعبد ، يوسف وعيسى إلى حيث يجلس الرجال ، ومريم إلى المكان المعد للنساء . وجاء خادم المعبد بالتوراة ، وقام رجل ووقف على الشرف ، وراح يقرأ سفر التكوين ، فى صوت عذب خشعت له القلوب.

وقضيت الصلاة ، واجتمع اليهود حلقات يتناقشون ، فضاق عيسى بنقاشهم ، وانسل من بينهم ، وانساب فى طرقات الناصرة ، وراح يرتقى تلا ، وجلس يرنو إلى السماء .

كان يحب الوحدة ، ويحس راحة إذا انفرد بنفسه ورنا إلى السماء . وطالما قالت له أمه إن الله هناك ، فكان ينظر فى شرود ، فيمتلىء غبطة ، فروحه تتصل بملكوت الخالق المتعال .

وهب النسيم من البحر رقيقا ، فداعب أوراق التين والزيتون ، فبلغ أذنيه حفيف الشجر ، فخيل إليه أن الكون يفضى إليه بأسراره .

وانحدرت الشمس ، وراحت تختفى وراء التلال ، وهو ينظر . يخيل لمن يراه أنه وسنان ، ولكنه هائم فى الفضاء ، يفتح قلبه للمعرفة ، والحكمة الهابطة عليه .

«وآتيناه الحكم صبيا ، وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا ، وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا » . (قرآن كريم)

سجا الليل ، وخيم على أورشليم ظلام ثقيل ، وتلألأت النجوم فى السماء ، ولكن نورها كان خافتا لايقوى على مصارعة أمواج الظلام ؛ وقامت التلال المحيطة بالمدينة موحشة ، وهجع الكون ، وسيطر سكون يبعث الرهبة فى القلوب ، وهبت النسائم خفيفة ، فكأنما كانت أنفاسه يرددها فى انتظام .

وخرج يحي يسعى فى الطرقات المتعرجة ، وسار وحده فى حلكة الليل ، يتوقى الأخاديد الموحشة ، وينطلق إلى جوار التلال الجرد الشامخة كأنها المردة والشياطين ، فلا يستشعر رهبة ، بل يرى فى هذه الوحشة جمالا تنفعل له نفسه ، وتشيع فيها طمأنينة عجيبة . ما كان يرتجف فرقا من الظلام ، كما يترتجف أترابه من الصبيان ، بل كان يسرى فيه وهو مشغول عنه بالنور المنبثق من روحه ، يبدد له ظلمات الحياة .

وبلغ الهيكل الكبير ، فإذا الهدوء شامل ، وإذا الظلام سائد فى أروقة الهيكل ، وإذا الرهبان يغدون ويروحون ، وإذا العباد راكعون فى خشوع . ومد يحي بصره ، فألفى أباه زكريا قائما يصلى فى المحراب ، فوقف يرقبه متفتح الروح ، فمشاهدة العباد وصلواتهم تنزل على قلبه بردا وسلاما .

وظل يحي فى مكانه ، يردد فى حرارة صلاته ، وانتهى زكريا من ابتهالاته ، وتأهب للعودة إلى داره ، فألفى ابنه شاخصا إلى السماء وفى عينيه دموع ، فانشرح صدره ، وتريث يرنو إليه فى وجد ، ثم ذهب إليه ولف ذراعه حوله ، وسارا فى ردهات الهيكل حتى خرجا إلى الطريق .

وما لاح الصباح حتى خرج يحي يقلب وجهه فى السماء ، ويمد بصره إلى

ملك الله ، فيحس رهبة وجلالا ، ويخشع قلبه ، ويعمل فكره . كان يرى الله فى كل ما تقع عليه عيناه . شب فى بيت النبوة ، فرأى أباه فى محرابه يعبد الله ويقدس له ، فعرفه وصار يهابه ويخشاه .

وانطلق وهو مشغول فى طرقات بيت المقدس المغبرة ، فلمحه أترابه من الصبيان ، فهرعوا إليه وقالوا له :

— يا يحي ، اذهب بنا نلعب .

فقال لهم وهو ذاهب فى طريقه :

— ما للعب خلقت .

ثم دلف إلى الهيكل الكبير ، فرأى المجتهدين من الأحبار والرهبان ، وعليهم مدارع الشعر ، وبرانس الصوف ، وهم يعبدون الله فى خشوع ، فتفتحت نفسه ، وهفت روحه إليهم ، ووقف ينظر وقد شاعت البهجة فيه ، وسكنت الطمأنينة قلبه ، وأحس هدوءا عجيبا .

وبقى فى الهيكل هائما ، تهيم روحه لتتصل بالله ، ثم قام وخرج إلى طرقات أورشليم ، وسار شارد اللب ، يقلب الفكرة التى احتلت رأسه . وعاد إلى الدار ، فذهب إلى أمه وقال لها :

— يا أماه ، انسجى لى مدرعة من شعر ، وبرنسا من صوف ، حتى آتى إلى الهيكل ، وأعبد الله تعالى مع الأحبار والرهبان .

فنظرت إليه أمه وقالت :

— حتى يأتى نبى الله زكريا ، فأؤامره فى ذلك .

وجعل يحي ينتظر مجىء أبيه . وتعلقت روحه بالعبادة ، فعزم أن يكرس حياته لله ، يعبده فى قنوت . إن أصوات المصلين تمس أذنيه عذبة رقيقة ، وإن صدى صلواته فى نفسه يشرح صدره ، ويسكب فى قلبه نورا طاهرا لألاء ، يرى على ضيائه جمال ما صوره المبدع الخالق من بدائع ، تنزل البهجة بأفئدة المؤمنين .

وسمع وقع أقدام، فأرهف حواسه . ودخل زكريا وقدمسه الكبر ، فنظر إلى أمه ، كأنما يوحى إليها أن تكلمه ، فقالت اليصابات :

— إن يحي قد طلب منى أن أنسج له مدرعة من شعر ، وبرنسا من صوف .

فالتفت زكريا إلى ابنه وقال :

— يا بنى ، ما يدعوك إلى هذا ، وإنما أنت صغير ؟

فنظر الصبي إلى أبيه بعينين يشع منهما بريق الذكاء وقال :

— يا أبت ، أما رأيت من هو أصغر منى ذاق الموت .

نطق الصبي بالحكمة ؛ إنه يخشى أن يموت دون أن يأخذ من دنياه لأخراه ؛ إنه يريد أن يدخر ليوم شديد ، لا ينفع فيه إلا ما قدمت يداه ؛ إلى يوم يجد ما عمله من خير محضرا . فانشرح قلب زكريا ، والتفت إلى زوجه ، وقال :

— انسجى له مدرعة من الشعر ، وبرنسا من الصوف .

ووهب يحي نفسه للمعبد ، يصلى فيه ولا يفارقه ، فتفتقت الدنيا أمام عينيه ، وكشفت له عن أسرارها . كان يصغى إلى الكتبة والفريسيين العاكفين على العبادة ، ولكن الحكمة التي يستنبطها من خشوع الليل ، وصخب النهار ، وزئير الرياح ، وهبوب النسيم ، أعظم مما يلتقطه من المعلمين الرافلين فى رغد العيش ، كانت مواعظهم تخرج من الفم لتذهب فى الهواء ، أما آيات الله فكانت تترادف عليه تصقل نفسه ، وتغذى روحه .

كانت زقزقة عصفور ، أو لألأة نجم ، أو هبوب موجة من البرد ، أو لفحة من الحر ، تترك فى روحه أثرا أعمق من موعظة طويلة لا تخرج من القلب . كانت روحه كوعاء على قمة شامخة لا يملؤه إلا ما ينزل من السماء .

٨

« ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل »
(قرآن كريم)

نما عيسى واشتد عوده ، وبلغ الثانية عشرة ، فأصبح بحسب شريعة موسى بالغا « جادول » ، يمتاز بالروح ، ويعامل معاملة الرجال ، فما صار لأحد عليه سلطان . إنه ابن الناموس «ابن هاتوراه» ، يفعل مايوحيه إليه عقله ، ويتحمل كل ماتجنى يداه .

وكان عليه أن يختار مهنة ، ففى هذه السن ينبغى لكل يهودى أن يحترف حرفة . كان يخرج مع يوسف إلى حانوته ، ولكنه لم يكن قد احترف النجارة ، فكان عليه أن يختار بمحض إرادته العمل الذى يمارسه . وجاء يوسف إليه يعرض عليه أن يعمل معه ، فقبل الفتى ، وذهب يتدرب ليكون نجارا .

راح يعمل فى الحانوت المتواضع من شروق الشمس حتى غروبها ، فإذا جن الليل خرج يقلب وجهه فى السماء ، وإذا جاء السبت ذهب إلى المعبد ، وما تنقضى الصلاة حتى ينسل إلى التلال يصغى إلى موسيقا الطبيعة : فهمسات النسيم ، وتفتح الأزهار ، وتعاقب الليل والنهار ، تملأ قلبه علما وحكمة .

أشرف موسم الحج على أورشليم ، فالفصح ، ذلك العيد الذى اتخذه اليهود تخليدا لذكرى خروجهم من مصر ، على وشك الحلول . كان على كل يهودى أن يحج مرة كل سنتين ، فتأهبت مريم للحج ، ولما كان ابنها قد بلغ ، أصبح عليه أن يخرج مع الخارجين .

فرح عيسى لأنه سينطلق إلى أورشليم ، إلى المدينة التى طالما حدثته عنها أمه ، والتى رآها بعين خياله شامخة تناطح السحاب . سيخرج من الناصرة المحصورة بين التلال ، إلى العالم الواسع الفسيح ، ليرى بدائع خلق الله التى تنطبع فى نفسه ، وتعمل على صقلها .

راحت مريم تتجهز للرحلة ، فتملأ أباريق الزيت وتضع التين المجفف في الأكياس ، ثم تصر بعض الأطعمة الجافة فى صرة لاتفتحها إلا فى أورشليم ، وتعد صرة أخرى لطعام الطريق ، وظلت فى غدو ورواح ، حتى إذا جاء المساء جلست تعد عباءة جديدة لابنها ، عباءة بيضاء من الصوف سيبدو فيها رائعا ، كـكاهن صغير يشع من وجهه نور التقى والصلاح .

وحل آذار ، فهبت نسائم الربيع تنعش القلوب ، وخرج الحجاج من بيوتهم ، وتجمعوا فى سوق الناصرة ، قبل الانطلاق إلى أورشليم . ووضعت الأحمال على حمار ، وحمل يوسف صرة ، وحمل عيسى صرة ، وانطلقوا يحدوهم فرح عظيم .

وتقاطر الناس من بيوت الناصرة البيض ، وازدحمت السوق بهم ، حتى إذا انتظم عقدهم ، تقدم أسن سبعة بينهم ليسيروا على رأس القافلة . وفصلت العير ، وانسابت فى الطريق الضيق بين التلال المغطاة بأشجار السرو والزيتون ، وهبطت إلى الطريق الجيرى متدفقة إلى سهل يزرعيل .

كان الربيع يمس الـكون بيده الساحرة ، فلبست الأرض زخرفها وازينت ، وبدت سنابل القمح فى ضوء الشمس كأمواج من الذهب ، وقامت الورود حمرا وصفرا وزرقا على جانبي الطريق ، فـكانت الحقول كثوب عروس وشى باللؤلؤ والزبرجد والياقوت .

سارت القافلة على ضفة نهر قيشون ، فراح عيسى يصغى إلى خرير المياه ، فـكان له فى أذنيه وقع التسبيح ، وراح يدور بعينيه فيما حوله ، فيحس كأنما شفت منه الروح ، ودخلت القافلة إلى يزرعيل العاصمة ذات المبانى الشاهقة ، ثم سارت إلى جبل جلبوع المتقشف ؛ كان عاريا من كل ثوب ، فما كانت الأمطار تهبط عليه لتنسج له ثوبا من ثيابها الخضر الزاهية ، التى تجود بها على الوديان والسفوح . وخاضت القافلة رمال تاناس ، ثم لاحت «ماجدو» فى الأفق البعيد .

وارتفعت أصوات عذبة رقيقة ، تسرى مع النسيم . كان الفرح يداعب النفوس ، فانساب فى المشاعر أنغاما حلوة ، تشيع البهجة فى الصدور ، وطويت الأرض .

وبلغ الركب عين غانم ، فنزلوا يبيتون ليلتهم ، فى أحضان الطبيعة التى سخت بالجمال ، حتى بدا المكان كجنات النعيم .

وأقبل الحجاج من كل صوب إقبال الروافد إلى النهر الكبير . أقبل حجاج كفر ناحوم وحجاج المجدل ، وانضموا إلى حجاج الناصرة ، وأخذ الرجال يتحدثون إلى الرجال ، والنساء إلى النساء ، والأطفال يلعبون ويجرون فى مرح . زالت الفوارق ، وتدانت القلوب ، فالجميع متوجهون إلى الله بقلوب صافية ، عامرة باليقين .

ووضعت مريم الطعام ، وكان من زيتون وعسل . فلما فرغوا منه ، قام يوسف يجوس بين الحجاج الذين كانوا يتسامرون فى سرور ، وفيما هو فى سيره ، إذ قابل صديقه زبدى ، فصافحه فى حرارة ، وعرض عليه أن يرافقهم فى الطريق ، وكان مع زبدى بناه يعقوب ويوحنا ، وكانا فى مثل سن عيسى ، فراح الغلمان يتحدثون ، يعقوب ويوحنا يذكران البحر والمراكب ، فهما يعاونان أباهما صياد الأسماك فى عمله ، وعيسى يتحدث عن الله وملكوته ، فعيناه لا تتطلعان إلا إلى السماء .

وأسدل الليل ستائره ، وأخذت الأصوات تخفت ، ورفرف النعاس ، فتناول عيسى غطاء ، ونام مع يعقوب ويوحنا ابنى زبدى تحت النجوم .

وأشرقت الشمس ، فهب الناس من نومهم ، وقاموا يتأهبون لاستئناف رحلتهم . حمل الفقراء أمتعتهم ، وقادوا حميرهم وبغالهم ، أما الأغنياء فأسرع عبيدهم يحملون عنهم الفراش الوثير . وانطلق الركب فى طريقه ، ولاحت حدائق التين وغابات الزيتون ، وخلفوا تلال السامرة الجميلة التى تبدو كغادة أبرزت مفاتنها ، واقتربوا من بئر يعقوب ، فأغذوا السير ، ليحطوا الرحال عند البئر ، ويستريحوا من وعثاء السفر الطويل .

وانقضى الليل ، وولد النهار ، فدوى فى المكان قرع الطبول ، فقام الحجاج يستعدون للسير . وفصلت العير ، وانطلقت فى قطار طويل ، النساء على الدواب ، والرجال آخذون بزمامها ، والغلمان يجرون ويلعبون ويضحكون .

الأرض تطوى تحت أقدامهم ، هاهم أولاء يمرون بشيلوه ، ثم بجبعة شاول ،

ثم ببيت إيل ، وهاهوذا النهار ينسحب بعد أن قطعوه ، وأقبل الليل وبئر راعوث على مرمى حجر ، الأشجار عندها تبدو لهم كأمل حلو مرتقب ، فنزلوا يسقون ويطعمون .

وفى البكرة انسابوا فى الطريق ، ولاحت لهم أورشليم ، فخفقت القلوب فى الصدور ، فمدينة داود المقدسة قائمة أمامهم ؛ الأبراج والقصور شامخة فى الفضاء، عالية فى كبرياء ، والهيكل العظيم يتألق فى الشمس كجوهرة تخطف الأبصار ، والدور البيض غارقة فى الضوء ، وقصر هيرودس على جبل صهيون يرنو إلى المدينة كأنما يعد عليها أنفاسها .

ونظر عيسى إلى أورشليم ، فأحس قلبه ينجذب إليها ، إنه يراها بروحه ، ويشعر بقدسيتها تراق فى نفسه ، إنه يحبها بكل مشاعره ، وإنه ليخيل إليه أنها تبادله عواطفه .

واندفعوا إلى الوادى حيث قابلهم سفراء عن المعبد مرحبين بمقدمهم ، وتفرقت الجموع ، وراحت كل أسرة تهتم بشئونها ، تبحث عن قريب لها فى المدينة تقضى عنده موسم الحج . ولما كانت الشريعة تحرم أخذ نقود مقابل إيواء الحجيج ، فمن لا أقارب له ولا أصدقاء يقاسى فى إيجاد مأوى له ، فراح كثير من الناس يقيمون لأنفسهم أكواخا صغيرة من حصر البوص ، ونزل آخرون فى العراء ، وزخرت أورشليم بآلاف الوافدين من سورية فى أرديتهم الوطنية ، ومن بابل فى ملابسهم السود ، ومن آسيا الصغرى وروما وفلسطين ، وراح يوسف ومريم وعيسى يشقون طريقهم بين الجموع ، حتى بلغوا بيت زكريا ، فصافح زكريا يوسف وعيسى ، واحتضنت مريم خالتها أليصابات ، وراحتا تتبادلان القبلات .

وفى الصباح ذهبت الأسرة إلى السوق لشراء الزيوت والعطور ، ثم انطلقت إلى المعبد . كان الصيارفة جالسين أمامهم أكداس النقود ، يستبدلون العملات المصرية والبابلية والعملات الأخرى بشاقل إسرائيل ، وكان تجار الأغنام يعرضون على الحجاج خرافهم وعجولهم ، وجلس تجار الحمام يبيعون للفقراء ما يقدمونه قربانا لله ، وأخذ يوسف يشترى أضحية ، فما ساق معه خروفا من الخراف التى عنده ، خشية أن ينفق فى الطريق ، أو يصاب بإصابة تجعله غير لائق للتضحية ،

فلا يقدم إلى الله قربانا إلا إذا كان بارئا من العيوب . وذهب عيسى ومريم مع الناس إلى صندوق النذور يضعون فيه صدقاتهم .

ونظر عيسى ، فألفى حلقات العلماء ، وقد جلس كل كاهن على شرف عال ، يحيط به تلاميذه ، فهفت نفسه إليهم . أحس رغبة فى أن يذهب يصغى إلى ما يقولون ، ويسألهم عن بعض ما يجول فى خاطره ، فهذه الزيارة تركت فى نفسه آثارا ؛ لم يعجبه بعض ما رآه ، وهو يريد أن يعبر عما يخالجه ، وهم بالذهاب إليهم ، ولكن أمه جذبته من يده ، ليدخلا يقدمان صلاتهما لله رب العالمين .

كانت شرفة النساء تعج بالزائرات ، والمعبد يموج بالمصلين ، وارتفعت الأصوات خاشعة ، شحنت إيمانا وطهرا ، فأشرقت الوجوه بالنور ، فقد كانوا يقدمون إلى الله القلوب .

وقضيت الصلاة ، وخرجت الأسرة إلى أورشليم ، كان هلليل العظيم موضع احترام اليهود ، كان سقاء يحمل الماء ، وعالما من أبرز علماء بنى إسرائيل ، وكان صديقا وفيا لعمران أبى مريم ، فذهبت الأسرة لزيارته ، وتحدث هلليل وعيسى يلقى إليه سمعه وهو مشغوف .

وتجاذبوا أطراف الحديث ، وتكلم عيسى ، فألفى هلليل قلبه ينجذب إليه ، فالحكمة تتدفق من فم الفتى الصغير ، وما أتم عيسى حديثه حتى قال هلليل فى إكبار :

— ذرية بعضها من بعض ، إنك ابن حق لإبراهيم الخليل .

وتتابعت الأيام ، وعيسى يذهب إلى المعبد ، فى عباءته البيضاء ، يجلس إلى حلقات العلماء يعيرهم سمعه ، وتنبعث فى قلبه نشوة ، فحديث الدين والأنبياء إلى قلبه حبيب .

وجاء ميقات التضحية ، فخرج يوسف وعيسى وزبدى وولداه يوحنا ويعقوب ، وذهبوا إلى قاعة الإسرائيليين ، وكانت تزخر بالحجاج يقودون القرابين ، وصعد يوسف إلى المذبح ، وذبح خروفه ، وتلقى الكاهن الواقف عند المذبح بعض دمه فى فلجانة من الذهب ، وأعطى تلك الفلجانة إلى كاهن آخر ، وهذا أعطاها آخر ، وراحت تتنقل من يد إلى يد ، حتى بلغت الكاهن الأعظم ، فألقى الدم فى المذبح الكبير .

وارتفعت فى القاعة الأخرى أغنيات اللبفيين وقرع الطبول ورنين الأجراس ، ولـكن عيسى شغل عن تلك الأصوات بالمشاعر النابتة فى جوفه ، والمشاهد التى تجرى أمام عينه .

تصرمت أيام العيد السبعة ، وتأهب الحجاج للعودة إلى دورهم ، وخرجت القوافل من أورشليم ، وقفل ركب الناصرة وكفر ناحوم والجـدل راجعا فى نفس الطريق الذى جاء منه ، وانقضى اليوم الأول ، ونزل الناس عند بئر راعوث ، ونظرت مريم فلم تجد ابنها ، فسرى فى قلبها قلق ، وراحت تنقب عنه فلم تهتد إليه ، فخفق قلبها رهبة ، وذهبت إلى يعقوب ويوحنا ابنى زبدى تسألهما عن عيسى ، فأخبراها أنهما لم يرياه مذ خرجا من أورشليم ، فزادت مخاوفها ، واستمرت فى بحثها تسأل كل من تقابلها عن ابنها ، ومر الليل وهى فى قلقها وأرقها ، وما لاح نور الصباح حتى عادت ويوسف إلى أورشليم ، يبحثان عن ابنها.

راحت تمر على الأسرات التى تعرفها فى أورشليم تسأل هذا وذاك عن عيسى دون جدوى ، فزادت مخاوفها ، وأخذت تفحص عن كل غلام تراه بعينها السوداوين القلقتين ، وانقضى النهار ثقيلا بغيضا ، وأقبل الليـل ومضى ومريم فى قلق وحيرة ، وما أقبل الفجر حتى خرجت تستأنف بحثها .

كانت تبحث فى الأسواق ، وطرقات المدينة المتعرجة ، وعند سور الملك داود ، وعند الآبار ولـكنها لم تجد له أثرا ، فدثرتها رهبة ، وعصر الأسى قلبها ، وطفرت الدموع من عينيها .

وانقضى اليوم الثانى كسابقه ، ذهاب هنا وهناك ، وعيون تتلفت فى كل مكان ، وقلب ينزف أسى وحزنا ، ولـكن ما من أثر له ، ووفد الليل ومريم تكاد تسقط من الإعياء .

وفى اليوم الثالث تذكرت ما كانت نسيته ، أن ابنها قد هفت روحه إلى المعبد ، وأمضى معظم أيام العيد بالقرب من حلقات العلماء ، فلماذا لا يكون هناك ؟ إنها بحثت عنه فى كل مكان ولـكنها لم تذهب إلى الهيكل .

هرعت مع يوسف إلى المعبد ، وفى حجرة من حجراته لمحته ، عيسى بعباءته البيضاء جالسا على الأرض وسط المعلمين ، فخفق قلبها فى شدة ، وراح الخوف

ينقشع عن صدرها ، ليحل مكانه طمأنينة وأمن ، ونظرت فإذا ابنها بين شيوخ أجلاء ، اشتعلت رءوسهم شيبا ، كان هناك هلليل العظيم ، وابنه الحاخام سيميون وشماى الكبير ، ونيقوديموس ، وأكابر بنى إسرائيل ، فداعب قلبها فرح ، ولكنها لم تجد فى ذلك غرابة ، فقد كانت على يقين أن الله يعده ليكون معلما لمن هم أعلم من هلليل وشماى وسيميون .

ونادى يوسف :

— عيسى .

وانطلق إليه وأخذه من يده ، وعاد به إلى أمه ، فضمته إلى صدرها فى حنان ، وقالت له :

— لماذا فعلت هذا بنا ، لقد بحثنا عنك وانتابنا خوف وحزن ، وخفنا أن نفقدك .

فنظر إليها فى هدوء وقال :

— ما كان الله ليضيعنى .

وخرجوا من أورشليم ، وسروا وقد خلوا بالكون ، فجعل عيسى يفكر فيما سمع ، كان ما سمعه رائعا بالغ الروعة ، ولكن ارتفاع الشمس وهبوطها ، وبزوغ القمر وأفوله ، وهدوء الليل وتألق نجومه تمده بحكمة أروع مما سمع ، كان فى قلبه كنوز من العلم والحكمة ، تفوق كل كنوز العلماء والرهبان ، فهؤلاء حصلوها بالدرس وحفظوها فى الصدور ، أما هو فقد وهبها له العليم ، وغرسها فى قلبه ، وجعلها تجرى فيه مجرى الدم .

٩

« قال الله هـذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ، لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز العظيم » . (قرآن كريم)

عاد عيسى إلى الناصرة ، واستأنف العمل فى حانوت يوسف ؛ كان حاضرا بجسمه ، أما روحه فكانت تتصل بخالق السماء ، أصبح يحب الليل ، لأنه فيه ينفرد بنفسه وبالله ، إذا أراد أن يناجى ربه ابتهل إليه فى خشوع ، وإذا أراد أن يصغى إليه فتح التوراة وقرأ الآيات .

وأحب العزلة ، فإذا جاء يوم السبت ، ذهب إلى المعبد ، فإذا قضيت الصلاة انسل إلى قمة التل الذى بنيت عليه الناصرة ، يقف بين أزهار الجبل المتفتحة ، ويملأ رئتيه بالنسيم العليل الذى يداعب شعره الأسود ، ويمد بصره إلى ماحوله ، فيرى حقول التين ، وبساتين النخيل ، والمنازل البيض ساجدة كعابد فى محراب الله .

ويمس أذنيه رفيف الطيور ، وحفيف الشجر ، وزفيف النسيم ، فيصغى إليها كأنما يتلقى وحيا من السماء ، كان يحس وهو فى عزلته شفافية فى روحه ، ورقة فى قلبه ، وصفاء فى نفسه ، فكان يخيل إليه أنه امتزج بالكون ، أو أن الكون ذاب فيه .

كان قلبه ناصعا أنصع من الثلج الذى يراه أمامه فوق قمة جبل حرمون ، وروحه عذبة أعذب من مياه نهر قيشون ، وكانت نفسه هادئة أهدأ من سطح بحيرة الجليل فى يوم صاف هدأت عواصفه ، ونامت رياحه .

كان أترابه من الصبيان يتلقون علومهم فى مدارس الربيين ومدارس الكتبة ، أما هو فكان يتلقى الحكمة فى مدرسة الله ، تحت أشجار التين .

وفى الحقول فى الظهيرة وتحت نجوم الليل ، كان يستمد حكمته من السماء الصافية ، والسحب المتلبدة ، وزمجرة الرياح ، وهبوب النسيم ، وقيظ الحر ، وقر الشتاء . حتى الخشب الذى يصنعه بيديه ، يجد فيه مادة لتفكيره وغذاء لروحه . تلمذ لثلاثة علماء : العمل ، والطبيعة ، والتوراة .

كان يجالس الفقراء ويستمع إلى شكاتهم ، فقد كان فقيرا ، ويحادث الخطائين دون أن يلتفت إلى نظرات الاستنكار التى تصوب إليه ، ولم يكن خطاء ، بل كان ذا قلب كبير ، يرحم ضعفهم ، ويرى أنهم أحق بالرعاية والعطف من المتزمتين المتظاهرين بالتقى والصلاح ، كان إنسانا يغفر ضعف الإنسان .

أصغى إلى الكتبة والفريسيين ، ولكنه لم ينفعل لمواعظهم ، فكلماتهم تخرج من الفم كلمات ميتة بلا روح ، فلا تجد طريقها إلى القلب ، يقول الفريسيون ويرددون القول : إذا جلس اثنان يتحادثان ولم يكن حديثهما عن الشريعة ، كان اجتماعهما فى سبيل الشيطان ، قول منمق ولكن ما كانت العبرة باللفظ ، ولكن بأثره فى الفؤاد .

الفريسيون ينطلقون فى الطرقات يتجسسون على الفقراء ، ليتحققوا من طهارة ثيابهم ومنازلهم وحوانيتهم ، ولكنهم لا يهتمون كثيرا بطهارة النفس ؛ فالفواحش ترتكب دون أن يحركوا ساكنا ، فإنما كل ما يهمهم نظافة الثوب !

وأصغى إلى كبار الحاخاميين فى المعبد فى موسم الحج ، فألفى شريعة موسى البسيطة قد عقدت ، وتفرعت مذاهب ، فما يحلله هلليل يحرمه شماى ، فأعرض عن حلقات السفسطة والجدل ومعارض الكلام ، وأقبل بنفس متفتحة على الكون يغترف علما وحكمة من معينه الرقراق .

أكب على عمله فى حانوت يوسف النجار ، وأخذ يشكل قطعة الخشب التى فى يده فى مهارة ، ويبذل جهده ليجعلها ملساء ، إنها ستوضع حول رقبة ثور ثم يشد إلى المحراث ، فإذا كانت خشنة آذته ، ولما كان رحيما لا يحب تعذيب الحيوان ، فقد أتعب نفسه ، ليخفف من آلام ثور من الثيران فى حقل من حقول الجليل المترامية .

راحت الشمس تختفى خلف تلال الناصرة ، فأغلق يوسف حانوته ، وذهب هو وعيسى إلى الدار . كانا فى طريقهما يتبادلان الأحاديث عن الدين ، وكان يوسف يسبغ عطفه عليه ، ولكن يوسف انطلق الليلة وهو صامت ، فاحترم عيسى صمته ، ولم يحادثه ، وشغل عنه بما يدور فى نفسه من أفكار .

ودلفا إلى الدار . واتجه يوسف إلى فراشه ، وقبل أن يندس فيه ، توجه إلى الله ، وأخذ يقرأ الشمة : « اسمع يا إسرائيل . . . » وانتهى من صلاته ، وارتمى فى الفراش مبهور الأنفاس ، فقد كانت الحمى تسرى فى بدنه .

وأقبلت مريم وفى يدها مصباح ، ودنت تنظر فى وجهه ، فإذا العرق يتفصد من جبينه ، وإذا نفسه مضطرب ، فراحت تمرضه ، وانقضى الليل ومريم وعيسى إلى جواره يخفق قلباهما بالحزن العميق ، إذ بريان يوسف راح فى غيبوبة طويلة ، ولم ينبس بكلمة ، ولم يفتح عينيه مرة .

وأشرقت الشمس ، وغرقت الدور البيض فى النور ، فخرج عيسى إلى الحانوت ، يعصر قلبه الأسى ، فما خرج وحده قبل يومه ، وخطر الموت على ذهنه ، فراح يفكر فيه .

ونظرت مريم إلى يوسف المسجى أمامها وهى حزينة ، صدقها يوم كذبها الناس ، وآمن بابنها وصدق به قبل أن تكتحل برؤيته عيناه ، وفر بهما من وجه الطغيان فى سبيل الله . كان مؤمنا عميق الإيمان ، نفذ أوامر الله ، فكان نعم الحارس ونعم الكنف .

وشخص يوسف ببصره إلى السماء ، وغمغم فى صوت خافت :

— إلهى ، أعيد إليك وديعتك ، فقد انتهى عملى ، إلهى إنى ذاهب إليك وأنت أقدر على حفظ رسولك ، فأنت خير الحافظين .

وأسبل جفنيه ، وذهب إلى حيث يذهب المؤمنون الصادقون ، وغطت مريم وجهه بنقابها ، وجرت عبراتها على خديها ، وأقبل عيسى يذرف الدمع الهتون .

١٠

« يا يحيى خذ الكتاب بقوة » .
(قرآن كريم)

قصور حكام الأقاليم مراتع للهو ، فأنتيباس هيرودس غارق فى الشهوة ، تساق إلى قصوره أجمل الفتيات . راقصات عاريات ، وأغنيات ماجنات ، وكئوس الخمر تدور على الأصفياء ، فتنطلق الوحوش الكامنة فى النفوس تعب اللذاذات فى نهم .

وقصور الأغنياء مسارح للخلاعة ، وأوكار للمجون ، يحاكون رؤساءهم ، ويتقربون إليهم بالمعاصى والمنكرات ، ويتنافسون فى نيل الحظوة عند أنتيباس بتقديم العذارى الكاعبات إليه ، فقد قر فى أذهانهم أن المناصب لا تنال إلا بالنساء ، فهذان قيافا وحنان تقربا إليه بالأبكار الأتراب ، فتقاسما رياسة الكهنوت .

كانا ضالعين مع الرومان ، يشاركانهم حياة الفسق والمجون ، ويتظاهران أمام الشعب بالتقوى والصلاح ، يقدمان إلى مذبح الرب القرابين ، وفى نفس الوقت يقدمان إلى ولى نعمتهم النساء على مذبح الشهوات .

ودب الفساد فى مجلس السنهدرين ، ذلك المجلس الذى كان للدين حصنا ، صارت الكلمة فيه للهيروديين الوالغين فى الفساد ، أو للصدوقيين المخادعين الذين يتخذون من الدين ستارا .

وفى أروقة الهيكل اشتد الخلاف بين الفريسيين والصدوقيين ، أولئك يعتقدون فى الملائكة وهؤلاء لا يعتقدون فيم ، وأولئك يقولون بالبعث ، وهؤلاء ينكرونه .

وساد أورشليم والبلاد اليهودية ظلام ، ونزل بنفوس الناس هم ثقيل ، وحاق بهم ضيق ، ودب فى قلوبهم اليأس ، فقد انقضى زمن طويل دون أن يظهر فيهم نبى يخرجهم من الظلمات إلى النور .

كان يحيي عاكفا على العبادة فى الهيكل ، وكانت تصل إليه نتف من حياة قيافا وحنان ذات الوجهين ، ويرى عيشة الرغد التى يحياها الرهبان الفريسيون ، ويصغى إلى سفسطة الصدوقيين ؛ فرأى أن يخرج إلى البرية ، يعيش بين الوحوش ، فارا بنفسه من ذلك النفاق والرياء .

هام يحيي فى البرارى ، يأكل من ورق الشجر ، ويرد ماء الأنهار ، ويتغذى بالجراد ، وتستر جسمه مدرعة من الشعر ، وعلى حقوية منطقة من جلد ، وظل فى عزلته يتلقى وحى السماء .

وذهب إلى الأردن يدعو الناس إلى الله ، فاجتمعوا يسمعون إليه ، قال :

— إن الله عز وجل أمرنى بخمس كلمات ، أن أعمل بهن ، وآمركم أن تعملوا بهن ، وأولاهن أن تعبدوا الله لا تشركون به شيئا ، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبدا من خالص ماله بورق أو ذهب ، فجعل يعمل ويؤدى غلتــه إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ، وأن الله خلقكم ورزقــكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا .

وآمركم بالصلاة ، فإن الله ينصب وجهه قبل عبده مالم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا .

وآمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة ، كلهم يجد ريح المسك ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وآمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فشدوا يده إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : هل لـكم أن أفتدى نفسي منكم ، فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والـكثير حتى فك نفسه .

وآمركم بذكر الله عز وجل كثيرا ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا فى أثره ، فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه ، وإن العبد أحسن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله عز وجل .

وراح يحيي يقول للوفود التى توافدت عليه :

— توبوا فقد اقترب ملـكوت السماء .

وذاع فى البلاد أن نبيا خشنا قام فى البرية ، يدعو إلى الله ويبشر باقتراب

ملكوت السماء ، ولما كان اليهود يترقبون عودة إيليا ليخلصهم من الفساد ، قالوا إن إيليا قد قام . وخرج الرجال والنساء والأطفال من كل فج ، مهطعين إلى الأردن ، الأغنياء يحدوهم حب الاستطلاع ، والفقراء عامرة قلوبهم بأعمق الإيمان ، وجاءوا إليه يعترفون بخطاياهم ، فيعمدهم ويطهرهم .

وبلغ نبؤه أورشليم ، وسمع الناس أن نبيا جديدا قام فى إسرائيل ، فنزل ذلك الخبر على قلوبهم نزول الغيث على الأرض المجدبة ، فنبت الأمل ، وأرهفت الإحساسات ، ولاح فى الأفق تباشير عهد جديد ، عهد زاخر بالخيرات .

وقال قائل لأنتيباس إن نبيا فى البرية يدعو الناس إلى الثورة على دولة الأغنياء ، يحض من له ثوبان على أن يعطى من لا ثوب له ، فبعث إلى السنهدرين ، يأمرهم أن يوافوه بخبر ذلك النبي الجديد ، فاجتمع المجلس وقرر إيفاد رسله إلى ذلك الرجل الخشن ، الناحل من شدة التقشف ، الذى رنت كلماته فى القصور ، فزلزلت قلوب المردة الطغاة .

وفى شوارع الناصرة تحدث الناس عن النبي الجديد ، وتجاوبت فى أرجائها أنباؤه ، وبلغ عيسي دعوة يحي بن زكريا ، فأحس كأنما يترجم أفكاره ، ويعبر عما يجيش فى صدره . إنه يهاجم الغنى والأغنياء ، ويدعو إلى المساواة ، ويفضح رياء الكهنة والكتبة . فلم يستطع عيسى صبرا ، فشد إليه الرحال .

وأقبل الفريسيون ، رسل السنهدرين فى كبريائهم ، الغرور يجرى فيهم ، ويعتقدون أنهم أهل علم وكتاب ، فهم لايغادرون نضد التوراة ، يقرءون فيه ويقرءون ، ثم يعودون فيقرءون ، لا شغل لهم إلا قراءة التوراة ، حتى حفظوا النصوص ، وتزمتوا فى تطبيقها ، أما الروح فكانت شيئا لايؤبه له .

نظروا إلى ذلك الرجل الناحل ، العارى إلا من مدرعة من شعر ، وأصغوا إليه وهو يبشر الناس باقتراب ملكوت السماء . إنه لا يدعو إلى نفسه ، ولا يستغل النور المنبثق من روحه إلا فى إنارة طريق النبي القادم بعده ، ويطهر الناس ليكونوا أهلا لاستقباله . إنه صوت منطلق فى البرية ، يعبد الصراط المستقيم .

دنوا منه وقالوا له :

— من أنت ؟ حتى نخبر من أرسلونا . آلمسيح أنت ؟

— لا .

— أإيليا أنت ؟

— لا .

— آلنبي أنت ؟

— لا . أنا صوت صارخ في البرية ، قوموا طريق الرب ، كما قال أشعيا النبي .

فنظروا إليه في زراية ، وقالوا له :

— فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي ؟

— أنا أعمد بماء ، ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه ، هو الذي يأتي بعدي ، الذي صار قدامي ، الذي لست بمستحق أن أحمل سيور حذائه .

فنظر بعضهم إلى بعض يسخرون ، كان يحي صلبا كالصخر ، لايخشى في الحق لومة لائم ، لا يرجو عطف الناس ، ولا يخشى مقتهم ، إنه قوى في الحق ، خشن خشونة الصحراء التي يهيم فيها ، يرى غطرسة الفريسيين وتكبرهم ، لأنهم من نسل إبراهيم ، فقال لهم في صوت كالرعد :

— ياأولاد الأفاعي ، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي ، فاصنعوا ثمارا تليق بالتوبة ، ولا تفكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبا ، لأني أقول لكم : إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم ، والآن وضعت الفأس على أصل الشجرة ، فكل شجرة لا تثمر ثمارا جيدا تقطع وتلقى في النار ، أنا أعمدكم بماء التوبة ، ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني ، هو سيعمدكم بالروح القدس .

وتدفق الناس عليه ، العوام والخواص ، حتى الذين يخدمون هيرودس جاءوا يلقون إليه السمع .

وأشرف عيسى على وادي الأردن ، كانت الشمس ترسل أشعتها الحامية ، وكانت تتألق متوهجة في كبد السماء ، لم يظهر لشيء على الأرض ظل ، كانت أريحا قائمة بين أشجارها ، والبحر الميت يعكس وهج الشمس كمرآة تخطف الأبصار ، وجبال مؤاب شامخة على الشاطيء الشرقي ، والصخور الصفر عارية خامدة ميتة ، ولكن النهر لم يكن ميتا ، فيحي غائص في مياهه إلى ركبتيه ، يطهر الوفود الزاخرة المتدفقة ، التي وهبت للصحراء قلبا خفاقا ينبض بالحياة .

وهبط عيسى إلى الوادي ، وذهب إلى يحي بن زكريا ، الذي جاء يبشر الناس بقرب رسالته ، ويعبد الطريق أمامه حتى يبلغ الناس رسالات الله .

١١

« ياعيسى بن مريم ، اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس »

(قرآن كريم) .

السماء فوقه ، والرمال تحت أقدامه ، والفضاء أمامه ، والأفكار تنثال على رأسه . أصغى إلى يحي فألفاه يذكر الناس باقتراب ملكوت السماء ، وهو يعلم أن الله يعده ليبعثه رسولا إلى قومه ، فقد بشرت الملائكة أمه به قبل مولده ، وقالت لها إن الله يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ورسولا إلى بنى إسرائيل .

إن موسى قد ذهب للقاء ربه ، وانفرد فوق طور سيناء أربعين يوما وليلة يناجيه حتى تجلى له وكتب له فى الألواح شريعته ، فعزم عيسى أن يمكث فى الخلاء يتعبد ، ويتأهب لوحى السماء ، فالخلوة تطهر نفسه ، والمناجاة تشحذ روحه ، وتملأ قلبه نورا على نور .

وركع على ركبتيه ، وتطلع طويلا إلى السماء ، وجعل يبتهل إلى الله فى حرارة ، وجرت دموعه ، وبكى بمثل حنين الإبل ، بكاء من ودع الأهل ، وقلا الدنيا . وظل فى مناجاته ، لا يحس شيئا حوله ، فقد تعلقت روحه بالله .

واحتجبت الشمس وراء تلال مؤاب ، فصبغت التلال بلون القرنفل والأرجوان ، وملئت الأخاديد فى سفوحها بظلال زرق قاتمة ، وبدا نهر الأردن كخيط أزرق ملقى فى الصحراء ؛ وعيسى فى خشوعه غائب عن كل ماحوله من جمال ، فهو ينشد جمال الله .

ونامت عيون الأبرار وهو يقظان ، يدعو الله فى هجعة الليل ، وسكر بصره ، خيل إليه أن بابا فتح فى السماء ، وأن روحه عرجت إليها ، تهيم فى الملكوت ما شاء الله لها أن تهيم .

كرت الأيام ، ومرت الليالى ، وهو لا يحس مرور الأيام ولا كر الليالى . غاب عن الزمن ، وغاب عن المكان ، وغاب عن كل شىء إلا عن الله ، فهو يفكر فيه بذهنه ، وتنبض بذكره خفقات قلبه ، ويردد لسانه وهو ساجد : « إلهى ، أرنى نور وجهك » ، فتردد ذلك النداء فى حرارة كل خالجة من خوالجه . باتت حواسه كلها ألسنة تتضرع إلى الله أن يمن عليها بالنور .

شفت نفسه ، وأرهفت حواسه . وانقشعت الحواجز المادية أمام عينيه ، فبدت الدنيا صافية نقيـة ، وإذا نور سماوى يغشى المكان ، وإذا ذلك النور يراق فى جوفه ، فيحس كأنما خلق من جديد .

ومس أذنيه حفيف صوت ، فالتفت خافق القلب ، فرأى جبريل ، فجفل فى خوف ، ثم أخذت الطمأنينة تعود إليه رويدا رويدا ، فلما أفرخ روعه ، قال له الروح الأمين : إن الله أرسله رسولا إلى بنى اسرائيل ، وراح يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل .

تصرمت أربعون ليـلة وعيسى فى مناجاته ، يتلقى وحى السماء وهو على قمة الجبل منفردا بالله ، كما تصرمت من قبل أربعون ليلة وموسى على طور سيناء يتلقى كلمات ربه .

سار عيسى وقد استرسل شعره ، وطالت لحيته ، وغاضت تلك الوداعة التى كانت تشع من وجهه . وبان فيه قوة وعزم . انقضت أيام الدعة والهدوء ، وأقبلت أيام الكفاح والجهاد ، أيام الاضطهاد والتعذيب ، فما جاء أحد بمثل ما جاء به إلا اضطهده الناس وعادوه .

عاش عيسى تلك الأيام بروحه ، فلم يحس حاجات الجسد ، أما الآن فقد عاد إلى نفسه ، إنه يشعر بالجوع يعض أحشاءه ، وبجفاف العطش فى حلقه ، فتلفت لعله يجد ما يسكت به ذلك الصراخ المنبعث من جوفه ، ولكنه لم يجد شيئا . فانطلق وهو يفكر فى أمره . ووقعت عيناه على الحجارة المبعثرة فى الفضاء ، فرن فى أذنيه صوت يحيي القوى الخشن : « إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم » .

وتحرك جوعه ، فوضع يده على بطنه ، وأحس أنه لم يعد فى البرية وحده ، فالتفت فإذا رجل إلى جواره يرنو إليه فى ود ، ودنا الرجل منه وقال له :

— سل ربك أن يقول لهذه الحجارة كونى خبزا .

وقفزت إلى ذهن عيسى صور طالما عاش فيها بروحه ، فلطالما قرأ أن إسرائيل وهو فى البرية وقد نهكه الجوع ، سأل الله أن يطعمه فأنزل عليه المن من السماء ، وطالما رأى بين سطور التوراة ملاك الرب وهو يقود إيليا ، المضنى من الجوع ، إلى الطعام . إنه لو سأل ربه أن يحيل تلك الحجارة خبزا لاستجاب له ، ولكن ما كان يسأله ، فالتفت إلى الرجل وقال له :

— مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، بل بكل كلمة تخرج من فم الله .

وصمت عيسى قليلا ، ثم قال :

— أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كتب لك ؟

فأطرق الرجل قليلا ثم قال :

— فارق إلى ذروة هذا الجبل ، فترد منه ، فانظر هل تعيش .

فأقبل عيسى على الرجل ، وقال له :

— أما علمت أن الله قال : لا يجربنى عبدى ، فإنى أفعل ما شئت .

فبان فى وجه الرجل القهر ، واستمر عيسى فى حديثه :

— إن العبد لا يبتلى ربه ، ولكن الله يبتلى عبده .

وراح الرجل يوسوس له :

— لا ينبغى لك ياعيسى أن تكون عبدا ، فقد بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلمت فى المهد صبيا ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك .

— بل الربوبية لله الذي أنطقنى ، ثم يميتنى ثم يحيينى .

— تعال .

وارتقيا جبلا عاليا ، وأشار الرجل بإصبعه إلى ممالك الأرض ، وقال له :

— انظر ، إن كان لك عينان .

فنظر عيسى، فرأى جميع ممالك الأرض ، فقال له الرجل :

— سأمنحك هذه الممالك . سأجعلك الحاكم المطلق على البشر ، ستتألق

في المجد ، ستكون المسيطر على كل الأرض ، سأمنحك كل هذا لقاء شيء واحد، أن تسجد لي .

فصرخ فيه عيسى :

— ابتعد عني ياشيطان ، ابتعد يارجيم ، مكتوب : للرب إلهك تسجد ، وإياه وحده تعبد .

فلم يشأ الشيطان أن يعلن اندحاره ، فابتسم في خبث وقال :

— إن غضبك ليس بغضب عبد ، ولكن أدعوك لأمر هو لك ، آمر الشياطين فليطيعوك . فإذا رأى البشر أن الشياطين أطاعوك عبدوك ، أما إني لا أقول أن تكون إلها ليس معه إله ، ولكن الله يكون إلها في السماء ، وتكون أنت إلها في الأرض .

فغضب عيسى غضبا شديدا ، وصرخ فيه صرخة زلزلته ، فابتعد إبليس مذموما مدحورا ، وهو يغمغم في يأس :

— ياعيسى ، لقد لقيت فيك اليوم تعبا شديدا .

ووقف بعيدا يرنو إليه منهزما ، عجز عن أن يفتنه ، ولكن ما كان الشيطان ليقر بهزيمة ، وقفزت إلى ذهنه الشرير فكرة ؛ إذا كان قد عجز عن فتنته ، فسيجعله فتنة ، فقال وهو يختفي في الأفق البعيد :

— سأضل بك ياعيسى بشرا كثيرا ، وأبث فيهم أهواء مختلفة ، وأجعلهم شيعا ، ويجعلونك وأمك إلهين من دون الله .

١٢

« ورسولا إلى بنى إسرائيل »

(قرآن كريم)

« لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »

(متى ١٥ : ١٤)

الناصرة غارقة فى الصمت ، تطوف بها أحلام . راح الناس فى النوم ، حتى نجوم السماء هجعت ، فقد كانت ليلة لم يبزغ فيها نجم ، وفى ذلك الصمت والجلال كانت مريم قائمة تصلى ، فابنها خرج إلى يحيى بن زكرياء الذي بعثه الله بشيرا بملكوت السماء ، وتقضت أيام وليال وأسابيع ولم يرجع عيسى إليها ، كان اليقين يملؤها أن أوان بعث ابنها قد آن ، ولكن تلك الغيبة أقلقتها ، إنها لم تفارقه مذ وضعته ، وإنها لتذكر مرارة الأيام الثلاثة التى فقدته فيها ، وهو جالس فى الهيكل بين العلماء ، وإنها لترجو أوبته ليعود إليها الاطمئنان .

كانت العيون غافلة إلا عينى مريم فى بيتها الراقد فى تواضع عند أقدام التلال ، وعينى عيسى وهو فوق الجبل ، قد تعلقت بالرجاء .

وتوافدت إلى رأس عيسى الأفكار ، الى أين يذهب بعد أن بعثه الله رسولا؟ إلى بنى إسرائيل ؟ أيذهب إلى الناصرة تلك القرية المغمورة فى الجليل ، وينطلق إلى حانوت النجار يدعو الناس منه إلى عبادة الله ؟ أيقوم بين الناس داعيا إلى الهدى، وما قام بينهم واعظا قبل الآن ؟ ونبتت فى جوفه رهبة ، ولكن ما كان له بعد أن أيده الله بروح القدس أن يخاف .

وقفزت إلى ذهنه صورة يحيى وهو فى مدرعة الشعر ، ناحلا من التقشف والوجد ، يعظ فى قوة ، لايهاب أحدا ، ولايختشى بطشا ، ينزل القوارع بالفريسيين ويهاجم دولة المال ، فأمدته تلك المشاهد، التى تتوافد على رأسه، بقوة وعزم أكيد ، فاتضح الطريق أمام عينه ؛ سيجوب المدن اليهودية داعيا إلى الرشاد ، موطدا النفس على احتمال الأذى والعذاب ، فما أحلى الاضطهاد فى سبيل الله .

وسار فى ذلك الفضاء العريض ، يحس كأنما ملئ علما وحكمة ، فالصحراء والحجارة والسماء تمده بألوان جديدة من التفكير ، وذلك الانطلاق فى الفلوات لم يعد عزلة وانقطاعا، بل صار مؤانسة . فما كان فى تلك المفاوز وحده، بل كان فيها مع العليم الخبير .

وفى الطريق لاحت له أرباض مدينة ، فيمم شطرها ، ودخلها ليدعو أهلها إلى الصلاح ، وألفى الناس فى السوق غادين رائحين ، فاعتلى مكانا عاليا ، وراح يقول:

— يابنى إسرائيل ، يابنى إسرائيل .

فاجتمع الناس إليه يصغون ، فقال :

— يا بنى اسرائيل ، اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله ، فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار وما للظالمين من أنصار .

فارتفعت أصوات تسأله :

— من أنت ؟

— إنى رسول الله إليكم .

— وما أدرانا أنك رسول ؟

— جئتكم بمعجزة من ربكم .

— وما هى ؟

— أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير[1] ، فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله.

وأخذ عيسى قطعة من الطين وشكلها على هيئة الطير ، ثم نفخ فى الطين ، فدبت الروح فيه ، وطار فى الجو ، وعيون الناس معلقة به ، وعقد الدهش ألسنتهم ، وبانت فى وجوههم الحيرة ، وظلوا فى ذهول حتى سرى همس :

— هذا سحر .

وأفاقوا من دهشتهم ، فقالوا فى توكيد :

— إن هذا إلا سحر مبين .

وانفضوا من حوله وتركوه وحده ، وابتعد عنهم رويدا رويدا وهو حزين،

---

(١) ذكرت فى إنجيل توما وإنجيل الطفولية . ولم تذكر فى الأناجيل الأخرى لأنها وقعت قبل إيمان الحواريين بعيسى .

إنه يدعوهم إلى النجاة ، فيعرضون عنه ، ولو أنه دعاهم إلى الضلال لأقبلوا عليه يتسابقون .

وأطرق يفكر فيما كان ، إنه دعا الناس فجاءوا يصغون إليه ، وتركوه يبلغ رسالات ربه ، فإذا كانوا لم يؤمنوا بما قال ولم يصدقوه ، فسيأتي يوم يسارعون إليه وقلوبهم عامرة باليقين ، فرأى أن يعتصم بالصبر ، فالصبر من عزم الأمور .

وغابت الشمس ، وراحت تختفي وراء تلال الناصرة ، فبدت أشجار التين والزيتون نابتة في الشفق كأنما لصقت على لوحة في لون العقيق ، فخفق قلبه وأغذ السير . أحس شوقا إلى أمه ، ورغبة في أن يفضي إليها باصطفاء الله إياه ، وبعثه رسولا إلى بني اسرائيل .

وانساب في طرقات الناصرة ، وقد سيطر السكون ، ونشر الليل ألويته ، ودلف إلى البيت ، فلما رأته مريم هرعت إليه تضمه إلى صدرها في حنان ، وجلسا في جوف الليل يتناجيان ، وقال لها فيما قال :

— وفيما أنا في صلاتي وابتهالي فوق الجبل ، سقط من السماء نور باهر ، وإذا بجبريل الأمين يخبرني أن الله بعثني رسولا إلى بني اسرائيل .

وصمت عيسى قليلا ثم قال :

— سأغادرك يا أماه لأبلغ الناس أوامر الله ، وسأحتمل اضطهادهم وتنكرانهم وتكذيبهم في سبيل الله ، لن أستطيع بعد اليوم أن أقيم معك ، وأن أعاونك بخدماتي ؛ لم أعد يا أماه لك ، بل أصبحت لله .

ونظر إليها فألفى في عينيها دموعا ! فحسبها تبكي لفراقه ، فقال لها :

— لا تبكي يا أماه .

— هذه دموع الفرح ، إني نبئت يا بني بكل ذلك قبل أن تولد .

فقال عيسى لأمه في رجاء :

— صلي يا أماه لله من أجلي ، وابتهلي إليه أن يؤيدني ويثبتني ويمدني بنصر من عنده ، صلي يا أماه ، فصلاتك درعي .

فقالت مريم في حرارة :

— فليباركك رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، كما بارك آباءك .

وسجدا يصليان لله في جوف الليل ، وقد غرقت الناصرة في الصمت .

١٣

« وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين »
(قرآن كريم)

انتقل هيرودس أنتيباس إلى عاصمته الجديدة طبرية ، إنه حاكم الجليل ، ولكنه يريد أن يرتفع بعاصمته ، ليجعلها قطعة من روما ، فجعل فيها الملاعب وأحواض السباحة والمسارح والملاهى ، وبث فيها الحدائق ، فهو يقتفى آثار أبيه هيرودس الأكبر فى التقرب من روما ، وفى خضوعه لنزواته وشهواته . وكان معجبا بأبيه ، فراح يستمد منه وحيه ويحاكيه .

وكان يظهر لليهود أنه من حماة الشريعة المخلصين ، فإذا ما جاءت الأيام المقدسة ، ذهب خاشعا إلى الهيكل بأورشليم ، يقدم أنفس الضحايا والقرابين ، فإذا ما ضاق بالتظاهر بالتقوى والدين ، ترك قصره وذهب إلى قلعة ماكيروس القائمة على تل عال متحدية صحراء بتراء ، وهناك يتحرر من قيوده ، ويعيش لشهواته ونزواته، وهو آمن من أن يطلع عليه أحد اليهود ، فهذه القلعة قائمة فى أرض سدوم ، وكانت مدينة زاهرة دمرها الله بخطيئة أهلها ، وما كان بنو إسرائيل يدخلون أرضا حلت عليها لعنة السماء .

كان يتظاهر لليهود بتقواه ، وإن كان فى قرارة نفسه يشتهى أن يكون فى هيئة رومانى أصيل ، يتكلم اليونانية واللاتينية ، ويرتدى ثياب الأسياد ، ويقوم مثلهم بالحفلات ، ويتخذ لنفسه بلاطا من الفلاسفة والعلماء ورجال الفنون ، ولكن سحنته وعينيه السوداوين اللتين ورثهما عن أمه السامرية تفضحه وتصرخ به أنه رجل شرقى ، نابت فى لفحة الصحراء .

وتأهب للخروج إلى روما لمقابلة طيباروس إمبراطور الرومان ، ليقدم له فروض الولاء ، وقبل أن يخرج جاء إليه رسل السنهدرين الذين بعثهم إلى الأردن

ليروا ذلك الصوت المنبعث فى البرية يبشر الناس بقرب ملكوت السماء ، وقالوا له إن ذلك الرجل يفتن الناس ، ودعواه تهدد الأمن العام ، فهو يبشرهم بنبي جديد ، يستل الملوك من عروشهم ، إنه يحضهم على الثورة ضد المال والسلطان .

وفكر هيرودس أنتيباس فى ذلك الثائر الجديد ، فهاجت وساوسه ، وخشى إن سافر وهو طليق أن يقلب القوم عليه ، فإذا عاد وجده قد أفسد الناس ، فأمر جنوده أن يقبضوا عليه ، وأن يسجنوه فى قلعة ما كيروس .

وانطلق جنود أنتيباس إلى الأردن ، وألقوا القبض على يحيى الذى كان يبشر بملكوت الله ، وانفض الناس من حوله ، ليتجمعوا فى جبال السامرة معلنين سخطهم على ما حاق بنبيهم الذى أحبوه وآمنوا به ، ووجدوا فيه المبشر بالخلاص .

لم تكن السامرة تحت حكم أنتيباس ، بل كانت تحت حكم بيلاطس ، وكان بين أنتيباس وبيلاطس جفوة ، كان كل منهما ينتظر أن يبدأ زميله بزيارته ، بعد أن عين حاكما على ولايته ، فكل منهما يحسب نفسه أعظم شأنا من زميله ، ولم تقع الزيارة المرتقبة ، فتغيرت النفوس ، وحل الجفاء .

بعث بيلاطس جنوده إلى الثائرين اللائذين بالجبال ، وقتل بعضهم وفرق شملهم ، ولكنه كان يخشى أن يعود الناس للثورة فأرسل إلى أنتيباس ليرى رأيه فى ذلك الرجل الذى سجنه ، والذى تعلقت به قلوب المؤمنين المتعصبين .

شغل هيرودس أنتيباس بذلك السجين الذى لا يملك من دنياه إلا مدرعته من وبر الجمل ومنطقته من جلد ، وبيانا يزلزل عروش الطغاة ، إنه لو أطلق سراحه جمع قلوب المتعصبين حوله ، وهدد ملكه بالزوال ، وإذا أبقاه فى سجنه أوغر صدور الناس ، فرأى أن لا يشتط ، وأن يدع للصدور الفائرة بالحماسة منفذا ، فصرح بأن يزور يحيى حواريوه ، وأن يبعث إلى الشعب من سجنه بما يشاء .

وأقبل يوم السفر إلى روما ، فجاءت تودعه زوجته ابنة الحارث أمير العرب ، فى جمالها الشرقى الأخاذ ، فرنا إلى عينيها السوداوين الواسعتين ، وإلى وجهها الذى استدار كبدر ، وإلى شعرها الذى بدا كليلة حالكة من ليالى الصحراء المظلمة ،

فرفت على شفتيه ابتسامة لم تكن منبعثة من القلب ، فقد سئم ذلك الجمال ، وهو يرجو أن يجد فى روما مفاتن تجدد شباب الفؤاد .

ونزل على الإمبراطور طيباريوس ضيفا عزيزا . وفكر وهو فى روما أن يزور أخاه فيليبس الذى حرمه هيرودوس الأكبر من الميراث ، فعاش فى روما عيشة الرومان . دخل هيردوس على أخيه فيليبس ، فأعجبته هيروديا زوج أخيه ، كانت رائعة الحسن ، أندى من الندى ، وانضر من أزهار الربيع ، كانت ذات جمال يعبث بالأفئدة ، وتهفو إليه القلوب . راح يحادث أخاه ، ويرنو إلى زوجه فى إعجاب ، ويرمقها فى اشتهاء ، وتلاقت عيناه الوالهتان بعينيها ، فأحست حرارتهما ، وفهمت لغتهما ، فرفت على شفتيها ابتسامة مشجعة ، واشتعلت عيناها برغبة طائشة مغرية ، زادت حب هيردوس ضراما .

كانت هيروديا مغامرة ، تهفو إلى أن يزين تاج الملك جبينها ، وقد تقربت من البلاط الرومانى ، وصادقت الأمبراطور طيباروس لعلها تؤثر فيه ، وتقنعه أن يعين زوجها فيليبس حاكما على ولاية من ولايات فلسطين ، ولكنها لم تتمكن من تحقيق حلمها ، وها هو ذا هيرودس أخو زوجها وحاكم الجليل يغازلها ، ويفتح أمام أطماعها أبواب الأمل ، فما كان لها أن تنكص وتغلق ما يفتح أمامها من أبواب .

هام هيرودس بزوجة أخيه حبا ، وبادلته هيروديا ذلك الغرام ، فراحا يتلاقيان فى غفلة من العيون ، وملك حبه لها حواسه وسيطر عليه ، فلم يطق أن يعود إلى ولايته مسلوب الفؤاد ، فزين لها فى نجوى الهرب معه ، فقالت له فى خبث الحية :

— وزوجتك ؟

— أطلقها .

ما أيسرها من كلمة فى بيت هيرودس ، إن هيرودس الأكبر طلق وتزوج مرات ومرات ، حتى إن رجال الدين ضاقوا بذلك ، ورفعوا إليه أنهم يخشون ثورة الناس ، وإن هيرودس أنتيباس ، سر أبيه ، لا يجد فى طلاق زوجه أى أثم ، ما دام ذلك الطلاق يمكنه من إرضاء نزواته ، وإطفاء شهواته .

وفى غفلة من فيليبس ، الأخ المخدوع ، والمضيف الكريم الذى رحب بأخيه ، فر هيرودس وهيروديا وابنتها سالومى الصغيرة الجميلة ، التى لم تتفتح عن أكمامها ، ونزلت هيروديا القصر الرائع فى طبرية ، ولم تحتمل الزوجة العربية ، ابنة الحارث أمير العرب ، العار الذى لحق بها من جراء فعلة هيرودس الطائشة ، فالتمست من زوجها الاعتكاف فى قلعة ما كيروس حتى تهدأ غيرتها ، فسمح لها ليخلو له وجه هيروديا الساحرة .

امتلأت ابنة الحارث حقدا ، وما بلغت قلعة ما كيروس حتى فاض غضبها ، طعنها فى كبريائها ، ولن تنطفىء تلك الوقدة التى أججها فى أحشائها قبل أن تشعل ملكه نارا ، ففرت إلى صحراء بتراء ، إلى قلعة أبيها ، لتضرم نار العداوة فى قلب الحارث ، الذى ثار للإهانة التى ألحقها أنتيباس بابنته التى يحبها .

وتزوج هيرودس أنتيباس من هيروديا زوج أخيه فيليبس ، وابنة أخيه أرسطوبولس فى الوقت ذاته ، وغضب الشعب لذلك الزواج ، ولكن غضبه لم يبلغ القصر الصاخب بالوفود الرومانية والعلماء والفلاسفة والممثلين والراقصين ، الوافدين من روما ، ليزينوا بلاط هيروديا .

وضاق هيرودس بالحفلات والرسميات ، وأحس رغبة فى أن يتحرر من قيود اللياقة والتظاهر بالمدنية ، إن الوحش القابع فى أغواره يلح عليه أن يبدو فى صورته الحقيقية ، فدعا هيروديا إلى قصره بقلعة ما كيروس ، بعيدا عن أعين الفريسيين المتزمتين ، وإن كان يتظاهر أمام شعبه أنه من شيعتهم ، وأنه مثلهم متمسك بحرفية الشريعة الموسوية !

وبلغا القصر ، وأطلت هيروديا من القلعة الشاهقة ، المطلة على الصحراء المترامية . كانت كحارس ساهر على حدود الجليل الفاصلة بين أنتيباس والحارث أمير العرب . وقعت العداوة بينهما ، فما كان لذلك الحارس أن يغفل أو ينام .

وظهرت أمام عينيها أشجار النخيل الباسقة ، بسعفها الأخضر ، وأشجار الزيتون وكروم أريحا اليانعة ، وراحت تجوب خلال القلعة ، فصكت أذنيها دعوات يحيى القوية ، فأحست شيئا غامضا ينبعث فى جوفها ، فعادت إلى هيرودس والتمست منه أن تصغى إلى ذلك الرجل الذى أغلقت دونه الأبواب .

تمدد هيرودس فى فراشه الوثير ، ووقفت هيروديا خلف الستار ، وجاء الحراس بيحيي ، فلم تبهره الطنافس الرائعة ، ولا الستائر الفاخرة ، ولا الحرير الذى يغوص فيه الملك ! بلغه ما فعله هيرودس ، فارتسمت فى وجهه صرامة وثورة الحق . نظر هيرودس إليه ، فمشت رهبة فى جوفه ، كان يهابه فى قرارة نفسه ، ولكنه شاء أن يتظاهر بالقوة ، فقال له فى صوت آمر :

— ألا تكف عن هذيانك ؟

فلم يأبه يحيي به ، بل قال له فى قوة ، أطارت ما كان يتشبث به من شجاعته الهاربة :

— اهجر هذه المرأة .

— لماذا ؟

— إنها لا تحل لك .

ولم يجد هيرودس ما يقوله ، فأشار للجنود أن يأخذوه ، وأطرق مهموما ، وخرجت هيروديا من وراء الساتر ، وذهبت إلى زوجها ، يتطاير شرر الغضب من عينيها ، وهتفت :

— كيف سمحت له أن ينطق بما نطق به ، مرهم أن يقتلوه .

ولكن هيرودس لم يفعل شيئا ، كان فى أعماقه يهابه ، ويخاف أن يمد إليه يد السوء ، إذا قتله ثار الناس عليه ، وحلت عليه لعنة السماء .

وعاد يحيي إلى سجنه ، وبذرت بذور الحقد والكراهية والمقت فى صدر هيروديا . . .

١٤

« وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون » .

(قرآن كريم)

كانت حياته رحلة ، ولد فى بيت لحم ، ثم عادت به أمه إلى الناصرة وما استقر بها حتى جاء الأمر بالخروج ، فهرب يوسف ومريم به إلى مصر ، وما درج على أرضها حتى عاد إلى الناصرة ، يخرج فى المواسم إلى أورشليم . كانت حياته الأولى رحلة تتخللها فترات من الراحة والاستقرار ، أما رحلة اليوم فلن تعرف الراحة ، سيذهب من مدينة إلى مدينة ، ومن قرية إلى قرية ، ومن جبل إلى جبل ، داعيا بنى إسرائيل إلى ربه الذى أرسله رسولا يبشرهم بملكوت السماء . لن يستقر فى مكان ، ولن يتخذ له بيتا يأوى إليه ، سينام حيث يدركه النوم ، وحيث يجد أناسا يصغون إليه ، فقد انقضت أيام الدعة ، وأقبلت أيام الكفاح فى سبيل الله .

وغادر الناصرة ، وسار صوب الجليل ، واخترق الوادى الزاهر ، ومس أذنيه خرير الماء كتسبيح الملائكة ، ومس الجمال المكان بيده الساحرة ، فبدت الحقول زاهية ناضرة ، وقامت أشجار النخيل سامقة شامخة ، وامتدت الكروم رائعة تسر العيون ، وغردت الطيور ، وبدت البحيرة على هيئة قلب ممرد من قوارير زرقاء صافية .

ولاحت على شاطىء البحيرة الغربى الجبال الخضر . وامتدت على الشاطىء الشرقى الصحراء القاحلة الماحلة ، ومد بصره أمامه فرأى الجبال العالية تتوجها الثلوج الناصعة ، وسقطت أشعة الشمس عليها ، فبدت كمرمر مصفى .

وشيدت على الشاطىء الغربى مدن وقرى ، مدن يؤمها يهود وسوريون ورومان وصيادو أسماك ، فهى محاط للقوافل الذاهبة إلى الأردن ومصر وسورية ،

وكانت فى هذه المنطقة طبرية ، العاصمة التى شيدها أنتيباس ، وسماها بذلك الاسم متملقا الأمبراطور الرومانى طيباريوس ، فلا غرو والتملق ديدنه ، أن يطلق على المدينة التى يبنيها اسم العاهل الذى يستمد منه السلطان ، فقد سمى من قبل مدينته قيصرية ، إرضاء لأمبراطوره السابق ، قيصر .

ووقف على شاطىء البحيرة ينظر ، وهب النسيم يعابث الماء ، فطفا الزبد على سطح البحيرة كالحبب ، وأقبلت مراكب الصيادين تتهادى ، ووضحت أصوات المجاديف ، وراحت الشمس تبعث إلى الأرض آخر أنفاسها وتصبغ الشفق بالذهب ، إيذانا بانتهاء يوم العمل .

وازدحم الشاطىء بالناس ، فقام عيسى يعظهم ويدعوهم إلى الله ، إن ما يقوله لم يكن جديدا على أسماعهم ، فقد سمعوا مثله فى المعبد ، ولكنه يمتاز بشىء ، يمتاز بالحرارة التى تصهره ، فتجعله يبدو قشيبا ، كأنما يلقى فى أسماعهم لأول مرة .

كان فى نبراته قوة ، وفى صوته صدق ، وكلماته تتدفق من القلب لتصب فى القلوب ، فأحسوا نحوه انجذابا وإعجابا ، ولكن ذلك الإعجاب لم يكن ليجعلهم يصدقونه لأول وهلة .

وبين هؤلاء الجموع وقف صيادان يصغيان ، كان للكلام وقع السحر فى أنفسهما ، خيل لهما أنه يدعوهما وحدهما ، تفتحت له قلوبهما ، وتعلقت به أبصارهما ، وأريق فى جوفهما نور ، فقد أوحى الله إليهما أن آمنا بى وبرسولى ، فآمنا به وصدقاه .

وانفض الناس من حوله ، وسار وسار فى أثره أندراوس ويوحنا ، وسمع وقع أقدامهما ، فالتفت إليهما وقال فى رقة :

— ماذا تطلبان ؟

كانا يطلبان الهدى والرشاد ، ولكن ارتج عليهما ، فقالا :

— أين تسكن ؟

لم يكن له دار ، جاء يدعو إلى الله ، وينام فى الفضاء فى حراسة الله ، فقال لهما :

— تعاليا وانظرا .

جلسا يصغيان إليه ، وهو يبشرهما بملكوت السماء ، فأحسا سعادة . إن كل كلة ينطقها تمس شغاف الفؤاد ، وظلوا فى مناجاة حتى تصرم الليل ، فانصرف أندراوس ويوحنا ، وقد شهدا أن عيسى رسول الله .

ذهب أندراوس ينقب عن أخيه سمعان ليبشره بظهور نبى بعثه الله رسولا إلى بنى اسرائيل ، وترقب يوحنا بن زبدى عودة أخيه يعقوب ليخبره أن عيسى الذى ناما معه عند عين غانم ، يوم خروجهم إلى أورشليم هو الأمل المرتقب الذى ينتظره اليهود .

وأقبل سمعان ، وقد شرح الله قلبه للإيمان ، فما تحدث إليه عيسى حتى صدق ما يقول ، فقد أوحى الله إليه أن يؤمن به وبرسوله .

ووفد نثنائيل إلى الجليل ، وكان رجلا صالحا ، فذهب إلى شجرة التين ، وراح يصلى وعيسى يرصده من بعيد . قرأ « السكريشما » وهى خدمة الصلاة اليومية فى خشوع ، وابتهل إلى الله من قلبه ، فشعر بروحه تتفتح ، وبالدنيا حوله تزهو ، أحس كأنما رد إليها شبابها ، وكأنما سرى فيها روح .

وذهب عيسى إلى البحيرة ، وصادف شابا صيادا ، فوقف يحادثه قليلا ، ثم قال له فى رقة :

— اتبعنى .

فترك فيلبس شباكه ومركبه ، وتبع عيسى كظله ، فما كان له أن يفارقه بعد أن أوحى الله إليه الإيمان والتصديق .

واعتزل عيسى هؤلاء الصيادين الذين اتبعوه ، وراح يصلى لله ويناجيه ، فتشف روحه ، ويسكن قلبه إيمان عميق ، وانطلق فيلبس يبحث عن صديقه نثنائيل ، فلما قابله ، قال له فى حماسة :

— إن الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء قد وجدناه .

— عمن تتحدث ؟

— عن النبى الجديد .

— وأين وجدته ؟

— هنا ، فى الجليل .

— ومن هو ؟

— عيسى ابن مريم ، من الناصرة .

فقال نثنائيل فى استخفاف :

— من أين ؟

— من الناصرة .

فقال نثنائيل وعلى فمه بسمة :

— أيخرج من الناصرة شىء صالح ؟ !

كانت الناصرة حقيرة فى الجليل ، أهلها فقراء فى العلم والمال ، لا يخرج منها إلا نجارون وقرويون بسطاء ، يتعلمون ولا يعلمون ، فمن أين جاء هذا الناصرى بمواعظه التى يتحدث عنها فيلبس .

أصغى نثنائيل إلى فيلبس فى عجب ، فكل ما يقوله عجيب ، حتى فيلبس لاح فى عينى صديقه عجيبا ، لم يعرفه متدفقا فى حديثه كما هو شأنه اليوم ، ما كانت له حرارة الكلمات التى تخرج فى قوة من بين شفتيه ، وما قال له : « تعال وانظر » حتى ألفى نفسه يذهب معه وهو مأخوذ .

وجاءوا إلى عيسى ، فرنا إلى نثنائيل وقد أشرق وجهه بالنور وقال :

— هاهو ذا إسرائيلى لا غش فيه .

فعجب نثنائيل وقال له :

— من أين تعرفنى ؟

— رأيتك وأنت تحت التينة ، قبل أن يدعوك فيلبس .

وأصغى نثنائيل إليه منشرح الصدر ، أحس كأن بلسما مس روحه ، وكأن صوتا آتيا من السماء يدعوه إلى الإيمان والتصديق ، فقال فى انفعال :

— أشهد أنك رسول الله .

وهجر الصيادون شباكهم ، ووهبوا أنفسهم لله الذى أوحى إليهم أن آمنوا بى وبرسولى ، وذهبوا مع عيسى يصطادون الناس .

١٥

« إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ، أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم »

(قرآن كريم)

خوار ثيران ، وثغاء أغنام ، وهدير حمام ، ورائحة الروث تتصاعد فى المكان تزكم الأنوف ، وأصوات ترتفع هنا وهناك ، هذا يتحدث باليونانية ، وذاك بالرومية وثالث بالعبرية وآخر بالفرعونية ، حتى ليخال السامع أن سوقا من أسواق بابل دبت فيها الحياة .

وتحت الأقبيــة جلس الصيارفة ، يشع الجشع من عيونهم ؛ وأمامهم موائد عليها أعمدة من الفضة ، وأكداس من العملات الأجنبية ، وانبعث رنين النقود ، فكان نغمة من آلاف النغمات المتنافرة المدوية .

وسرت تراتيل اللاويين وصلوات الكهنــة ، وامحت فى محيط الضوضاء ، فما كان المكان سوقا عامة ، بل كان الحرم المقدس فى الهيكل المقدس ، ساق إليه التجار ثيرانهم وأغنامهم وحمامهم، ليبيعوها للحجاج الوافدين فى الفصح إلى أورشليم ؛ ليقدموا إلى الله القرابين ، وجلس الصيارفة أمام موائدهم يبدلون للحجيج نقودهم بالشاقل الإسرائيلى ، على جعل قدره خمسة فى المائة ، فقد فرض على كل إسرائيلى ، غنى أو فقير ، نصف شاقل فدية ، وكان يجمعها الكهنة ، وخوفا من أن تدفع لهم بالعملات النحاسية أو البرونزية أو بعملات أخرى قد يضطرون إلى مبادلتها بالجعل المقرر — وفى ذلك خسارة لهم — لذلك حددوها بشاقل إسرائيل ، ومنحوه القدسية ، لأن عصا هارون ضربت على وجهه ، وضرب على الوجه الآخر قدر المن على شكل كأس ، وكتب حوله بالسامرية: «شاقل إسرائيل» . وما قدسه فى نظر الكهنة إلا فضته النقية !

وثبتوا فى أذهان الناس أن حراما أن تدخل هيكل الرب ويدك خالية ، كأنما الغنى الوهاب فى حاجة إلى أعطيات الناس ، وكأنما من يرزق عباده يسترد لنفسه بعض ما وهب . إن الله غنى عن عباده ، أما الكهنة فعلى الرغم من غناهم ، كانوا فقراء إلى مافى أيدى الناس ، وإن كانوا محاويج يحرمون أنفسهم القوت ليشتروا لمن يتسترون خلف اسم الله هدية ، الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ، أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم .

والفريسيون المتزمتون المنطلقون فى الطرقات يتجسسون على الناس ، ليتحققوا أن كل شيء نظيف وطاهر ، كما تقضى الشريعة الموسوية ، لم تزكم أنوفهم رائحة الروث فى الحرم المقدس ، فتجار الثيران والأغنام من الأغنياء وما كانت أخطاء الأغنياء تثير ثائرة الفريسيين ، حتى هلليل وشماى وكبار رجال الدين لم يجدوا فى قذارة الهيكل ما يخدش قدسيته وجلاله !

وفى طرقات أورشليم تدفق الحجاج ، المصريون فى ثيابهم الفرعونية ، والسوريون فى أرديتهم الوطنية ، والأغنياء فى ثيابهم الغالية ، والفقراء فى أسمالهم البالية ، والجنود الرومان فى غدو ورواح ، ينظرون إلى البحر المتلاطم من الأجناس المتباينة ، جاءوا يقدمون خشوعهم لله .

ووفد حجاج الجليل ، النساء المحجبات على ظهور الحمير والبغال ، والرجال بلحاهم الطويلة يسيرون جماعات ، والصبيان يلعبون فى مرح ، وبين تلك النساء كانت مريم . كانت فى كل فصح تذهب إلى الهيكل المقدس ، الإيمان العميق يسكن قلبها ، أما فى هذا الفصح فقد دخلت المدينة المقدسة وقلبها فى جوفها يخفق كجناح حمامة ، الرهبة تكتنفها ، والقلق يسرى فيها ، كانت تعلم أن ابنها سيقدم إلى أورشليم يعرض نفسه على الناس ، ويطلب منهم أن يؤمنوا به ويصدقوه .

دلفَ عيسى إلى الهيكل ، فإذا التجار يحتلون رواق الأمم ، رأى فيه هذه الثيران والأغنام وهو صغير ، وأحس يومها امتعاضا ، ولم يفعل شيئا غير الامتعاض ، فما كان له سلطان ، أما اليوم فهذا المشهد يحرك غضبه . لم يعد ذلك الغلام الذى لا يملك إلا الأسى ، إنه رسول الله ، وما كان يقبل أن يتحول بيت الله إلى سوق للبيع والشراء .

عزم على أن يطهر الحرم المقدس من الثيران والأغنام والتجار والصيارفة ، ويعيده كما كان ، مكانا للعبادة والتقديس ، فتلفت فوجد حبالا على الأرض فتناولها وصنعها سوطا ، وراح يطرد الخراف والثيران حتى إذا خلا المعبد منها ، ذهب إلى تجار الحمام ، وقال لهم فى صوت آمر :

— ارفعوا هذا من هنا .

أذعن التجار وحملوا أقفاصهم وخرجوا ، كانوا فى أعماقهم يشعرون أنهم مخطئون ، فما كان الحرم مكان بيع وشراء ، وما عاونهم على الاسترسال فى خطئهم إلا أنهم لم يجدوا من يردهم عن غيهم ، فما أيسر هزيمة الرذيلة إذا دفعتها الفضيلة بيد قوية ، وما أسرع أن ينجاب الظلام إذا سلط عليه النور .

وذهب إلى موائد الصيارفة وقلبها ، فتبعثرت الشواقل الفضية المقدسة ، وجرت النقود تختفى فى الروث ، وصاح الصيارفة فى فزع ، ولم يحتجوا على ذلك الذى لم يدروا بأى سلطان يطردهم ، كانوا على أموالهم مشغولين .

وتجمهر الناس يرقبون ذلك الثائر لكرامة الهيكل ، وقد ملئت أفئدتهم إعجابا ، ورنا الفريسيون والكهنة إليه فى غيرة ، ضايقهم أن يقوم جليلى فقير على تلك الثورة التى صادفت فى نفوس الحجاج هوى ، وزاد فى غيرتهم التفاف الناس حوله ، وإلقاء السمع إليه .

ودخل عيسى إلى الهيكل يصلى ، وسارت الجموع خلفه ، فلما أتم صلاته ، دنا منه رجل وقال له :

— إن الشعب يحب أن يسمعك .

وتقدم عيسى يعظ الناس ، هرعت الجماهير إلى المكان حتى ضاق بهم ، وجلست مريم فى الشرفة العلوية المخصصة للنساء ، تلك الشرفة التى طالما جلست فيها تصغى إلى الوعاظ قبل أن تبشرها الملائكة بابنها الماثل أمامها كملاك . وانبعثت فى جوفها إحساسات متباينة ، واستشعرت فرحا ، ولكن لم يكن ذلك الفرح خالصا ، فقد امتزج برهبة ، وطأطأت رأسها فى خشوع وغابت عما حولها لحظة ، صلت فيها لله ، وابتهلت إليه أن يمد ابنها بتوفيقه ، وأن يؤيده بنصره .

ارتقى الشرفة مهيبا قويا ، تلك الشرفة التى ارتقاها قبله علماء وكتبة ، وأشار

بيده أن اصمتوا ، فغرق المكان فى الصمت ، فقال فى صوت قوى يمتاز بحرارة الإيمان :

تبارك اسم الله القدوس ، الذى من جوده ورحمته أراد ، فخلق خلقه ليمجدوه .

تبارك اسم الله القدوس الذى خلق نور جميع الأنبياء والقديسين ، قبل كل الأشياء ، ليرسله لخلاص العالمين ، وقال على لسان داود : « قبل كوكب الصبح فى ضياء القديسين خلقتك » .

تبارك اسم الله القدوس الذى خلق الملائكة ليعبدوه ، وتبارك الله الذى خذل الشيطان وأتباعه ، الذين لم يسجدوا لمن أحب الله أن يسجد له .

واستمر عيسى فى موعظته ، واشتد على الشعب ، لأنهم نسوا أوامر الله ، وعنف الكهنة لجشعهم ، ووبخ الكتبة الذين تركوا التعاليم الصحيحة ليعلموا الناس تعاليم باطلة زائفة .

وأثرت موعظته فى الناس ، فجرت دموعهم على خدودهم ، وانهمرت دموع مريم ، واستشعر الشعب رهبة ، وأحسوا الله فى أنفسهم ، فقد كانت موعظته قوية تمس أوتار القلوب ، أما الفريسيون والكتبة والكهنة فامتلئوا غيظا ، وتحركت بغضاؤهم ، نال منهم على ملأ من الحجاج ، ولكنهم كتموا ما فى قلوبهم خشية من ثورة الناس إذا مسوه بسوء ، وكان أعضاء السنهدرين حاضرين يسمعون ، فحقدوا عليه إلا نيقوديموس ، كان لكلامه وقع فى نفسه جميل .

كان نيقوديموس غنيا حكيما ، وثالث عضو فى السنهدرين ، أثرت فيه دعوة عيسى ، وأحس رغبة فى أن يصغى إليه ، ولما كان عالما كبيرا ، خشى أن يجلس إلى جليلى فقير أمام الناس يتلقى منه علما وحكمة .

تريث حتى إذا أقبل الليل خرج متسترا بالظلام ، وجاء إلى عيسى ، فألفاه يبشر بملكوت الله ، فقد كان يبشر ، كما كان يحي يبشر ويقول : « توبوا فقد اقترب ملكوت السموات » . كان عيسى بشيرا ، يدعو قومه إلى التأهب لذلك اليوم الذى يأتى فيه ملكوت الله ، إلى اليوم الذى ينزل الله فيه الذكر ويحفظه بين الناس .

لم يكن عيسى صاحب رسالة جديدة ، فما جاء لينقض الشريعة الموسوية ، بل جاء يكملها ، وكان يتلقى وحى السماء فيحدث به قومه ، ولم يكتب منه حرفا ، فقد كان يهيء بنى إسرائيل بذلك الوحى ليوم آت ينزل فيه الله دينه ، ويوحى فيه كتابه ، ويحفظه إلى أن تزول الأرض والسماء ، ذلك هو ملكوت الله .

دنا نيقوديموس من عيسى ، وألقى إليه سمعه ، فراح عيسى يحاوره ، ويجاذبه أطراف الحديث ، فقال نيقوديموس :

— نعلم أنك أتيت من الله معلما .

فقال له عيسى ، وهو مقبل عليه :

— الحق الحق أقول لك ، إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله .

لم يفهم العالم الكبير ما يقوله عيسى ، فقال متعجبا :

— كيف يمكن الإنسان أن يولد وهو شيخ ؟ ألعله يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويولد ؟

لم يفهم العضو الثالث فى السنهدرين أنه يكفى للدخول فى اليهودية الولادة من الماء ؛ أن ينزل المرء من صلب يهودى ، أما الدخول فى ملكوت الله فلابد له من ولادة جديدة ، من روح جديدة مؤمنة ينفخها الله فى المؤمنين ، فقال له عيسى :

— الحق الحق أقول لك ، إن كان أحد لا يولد من الماء والروح ، لا يقدر أن يدخل فى ملكوت الله ، المولود من الجسد هو جسد ، والمولود من الروح هو روح ، لا تتعجب إنى قلت لك ينبغى أن تولدوا من فوق ، الريح تهب حيث تشاء ، وتسمع صوتها ، ولكنك لا تعلم من أين تأتى . ولا إلى أين تذهب ، هكذا كل من ولد من الروح .

لم يفهم الفريسى الكبير أن الله يملأ قلوب المؤمنين بروح قوية ، روح مؤمنة جديدة غير الروح التى نفخها فيهم يوم خلقهم من ماء ، هذه الروح العلوية تجعلهم خلقا جديدا ، خلقا صالحا للدخول فى ملكوته ، فى دينه الذى سيبعثه هداية للعالمين ، فقال نيقوديموس :

— كيف يمكن أن يكون هذا ؟

فقال له عيسى فى دهش :

— أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا ؟ الحق الحق أقول لك ، إننا إنما نتكلم بما نعلم ، ونشهد بما رأينا ، ولستم تقبلون شهادتنا . إن كنت قلت لكم الأرضيات ولستم تؤمنون ، فكيف تؤمنون إن قلت لكم السماويات ؟

قال له عيسى إننا — نحن الرسل — نتكلم بما يوحى إلينا نحدثكم بما تحسونه فلا تصدقوننا ، أفتصدقوننا لو حدثناكم بالغيب الذى فى السماء ؟

أكان عيسى يحدثه بذلك الغيب ، ويقول له سيأتى آخر مثلى يؤسس ملكوت الله ، وذلك الإنسان لا يزال فى السماء حتى الآن ، يبعثه الله هداية ورحمة ؟ !

وقام نيقوديموس من عنده وهو مؤمن أن عيسى رسول الله ، أرسله إلى قومه بشيرا ، وانطلق وكلمات عيسى ترن فى أذنيه ، يزيد فى روعتها ذلك الغموض الذى يدثرها .

١٦

« ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله »
(قرآن كريم)

الفريسيون يرصدون فعاله بعين الشر ، والناس يصغون إليه فى إعجاب ، ولا شيء بعد الإعجاب ، كان أدرى الناس بالناس ، إنهم يلقون إليه السمع ، وينفعلون بما يقول ، ولكنهم لرؤسائهم الروحانيين ينقادون ، فإذا اشتدت العداوة بينه وبين الفريسيين والكتبة وأعضاء السنهدرين ، فسيخلون بينه وبينهم ، ولن يفزعوا لنصرته أو يمدوه بالعون والتأييد ، فرأى أن يغادر أورشليم معقل الكتبة والفريسيين المرائين ، وأن يذهب إلى الجليل يبشر الناس باقتراب ملكوت السموات ، فإذا كثر تابعوه ومؤيدوه ، جاء إليهم عزيز الجانب ، يناوئهم فى معقلهم ، تظاهره قوة تعاونه على إظهار الحق المبين .

هبط من التلال العالية التى شيدت فوقها أورشليم ، يحيط به بطرس وأندراوس ويوحنا ويعقوب وفيلبس وصديقه برثولوماولس ، الإسرائيلى الذى لا غش فيه ، وانطلقوا مع الطريق ، فإذا انحنى فى حدة انحنوا معه ، وإذا انساب فى يسر انسابوا فيه ، وإذا صعد فى جبل ، راحوا يصعدون ، وعند الآبار كانوا يحطون الرحال ويستريحون .

خرجوا من اليهودية ، ووقفوا على حدود السامرة ، وأراد التلاميذ أن يدوروا حولها ، فما كان اليهود يدخلونها ، فهم يحتقرون السامريين ، ويضعونهم فى مصاف الوثنيين ، لأنهم يعتنقون مذهب غاريزيم ، ذلك المذهب الذى لا يعترف إلا بالإصحاحات الخمسة التى نزلت على موسى ، أما المزامير وأما ما كتبه مردخاى فلا يعترفون به ، فالتوراة نزلت على موسى ، فكيف يكتب موسى ما وقع بعد موته ؟

كان اليهود يبغضونهم من سويداء قلوبهم ، ويجدون وزرا فى محادثتهم ، حتى

إذا سقط ظل سامرى على واحد منهم ، أوجب ذلك التطهير من النجس الذى حل به ، وقالوا «إن قطعة الخبز التى تأكلها مع سامرى ، هى قطعة من لحم الخنزير» .

لم يلتفت عيسى لتلك الأوهام ، فراح يخترق السامرة ، حتى إذا بلغ منه التعب ذهب إلى شكيم (نابلس) .

كانت الشمس فى كبد السماء ، ترسل أشعتها الحامية ، فيتفصد العرق من الوجوه ، ونظر عيسى حوله يبحث عن مكان يستريح فيـه ، فألفى بئر يعقوب ، تظللها أشجار التين ، فانطلق إليها وجلس على حافتها يستروح النسمات التى كانت تهب بين الحين والحين .

وبقى عيسى فى ذلك المكان وحده ، ذهب تلاميذه إلى المدينة يشترون طعاما ، ونام السكون فى تلك القيلولة ، وهدأت الطبيعة ، ونظر عيسى أمامه فرأى معبد السامرة وقد شيد على الجبل لينافس أورشليم ، ففى ذلك المكان ، كما جاء فى سفر التكوين ، فى ديار « شكيم » سجد إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب لله رب العالمين .

إنها بقعة مباركة ، جاء إليها يعقوب ونصب فيها خيمة . وأقام مذبحا دعاه إيل إله إسرائيل ، وجاء إليها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، إنها بقعة عاطرة بالذكريات النبوية ، توحى بالتأمل والتفكير .

ومد عيسى بصره إلى الوادى الأخضر ، وإلى الأشجار الشامخة ، وإلى سنابل القمح المتماوجة فى ضوء الشمس كنهر من التبر ، فأحس راحة لذيذة بعد التعب المضنى الشديد .

وجاءت امرأة سامرية تملأ جرتها ، فقال لها عيسى :

— أعطينى لأشرب .

عجبت السامرية لذلك الطلب ، وترجمت عن عجبها بقولها :

— كيف تطلب منى لتشرب ، وأنت يهودى وأنا امرأة سامرية ؟

فقال لها فى هدوء :

— لو كنت تعلمين عطية الله ، ومن هو الذى يقول لك أعطينى لأشرب ، لطلبت أنت منه ، فأعطاك ماء حيا .

فنظرت المرأة إلى البئر العميقة ، وقالت له فى استخفاف :

— يا سيد ، لا دلو لك ، والبئر عميقة ، فمن أين لك الماء الحى ؟ لعلك أعظم من أبينا يعقوب الذى أعطانا البئر ، وشرب منها ، هو وبنوه ومواشيه ؟

فأرادعيسى أن يرفعها من الماديات إلى المعنويات ، أن يرفع هذه السامرية الفقيرة ، كما رفع نيقوديموس معلم بنى إسرائيل ، وثالث أعضاء السنهدرين ، فقال لها :

— كل من يشرب من هذا الماء يعطش . ولكن من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا ، فلن يعطش إلى الأبد ، بل الماء الذى أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ، ينبع إلى حياة أبدية .

أحست المرأة أنها فى حضرة حكيم ، فقالت وقد اختفت نبرات الاستخفاف من صوتها :

— أعطنى هذا الماء لكيلا أعطش ، ولا آتى هنا لأستق .

— اذهبى ، وادعى زوجك ، وتعالى ههنا .

— ليس لى زوج .

فنظر إليها عيسى قليلا ثم قال :

— حسنا قلت ليس لى زوج ، لأنه كان لك خمسة أزواج ، والذى لك الآن ليس هو زوجك .

أطرقت المرأة قليلا ، فقد كشف عيسى عن سر حياتها الخليعة ، كانت تبيع نفسها ، فغمغمت :

— أنت نبى .

إنها فى حضرته تحس خزيا ، ورفعت رأسها فوقع بصرها على المعبد الذى أقامه السامريون لمنافسة أورشليم ، فخطر لها أن تحول الحديث إلى تلك الناحية ، فأشارت إلى الجبل وقالت :

— آباؤنا سجدوا فى هذا الجبل ، وأنتم تقولون إن فى أورشليم الموضع الذى ينبغى أن يسجد فيه .

نطقت المرأة الدنسة صدقا ، فهنا سجد إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، أما أورشليم فقد فتحها داود ، ثم بنى ولده سليمان فيها هيكله . هذه البقعة أكثر قدسية من الهيكل ، فلماذا لا يحج إليها الناس ؟ أيحدثها عيسى عن أسرار رسالته كما حدث نيقوديموس ؟

حدثها عيسى عن ملكوت الله ، عن دين الله القيم الذى سيختاره للعالمين ، فإذا جاء ذلك الدين فلن يسجد الناس فى أورشليم أو شكيم ، فلله المشرق والمغرب ، فأينما يول الناس وجوههم فثم وجه الله ، راح يقول لها :

— يا امرأة صدقينى ، إنه تأتى ساعة لا فى هذا الجبل ولا فى أورشليم تسجدون لله ، أنتم تسجدون لما لستم تعلمون ، أما نحن فنسجد لما نعلم .

وسواء أصدقته المرأة أم لم تصدقه ، فقد صدقه الزمان . جاء ملكوت الله : الدين القيم الذى جعل الأرض كلها مسجدا .

قالت له المرأة وقد تأثرت بما قال :

— أعلم أن المسيح يأتى ، فإذا جاء أخبرنا بكل شىء .

فقال لها عيسى :

— أنا هو الذى أكلمك .

وجاء التلاميذ فوجدوه يتكلم مع امرأة ، ذلك المعلم الكبير ، الربى الصادق ، يخالف ما يقول به الربيون . فقد كان محرما أن يتكلم الربى علانية مع امرأة ، حتى ولو كانت زوجته . ولاح الدهش فى وجوههم ، فهو لا يتكلم مع سامرية فحسب ، بل يحدث سامرية فاجرة .

ذهبوا إليه وقد كتموا دهشهم ، وفرت المرأة مخلفة جرتها ، وانطلقت إلى المدينة تذيع على الملأ نبأ ذاك النبى الذى كشف لها عن أسرارها . ووضع التلاميذ الطعام أمامه وقالوا له :

— كل .

— أنا لى طعام لستم تعرفونه .

فالتفت التلاميذ بعضهم إلى بعض وقالوا :

— لعل أحدا أتاه بشىء يأكله .

فقال لهم عيسى ، مؤكدا رسالته :

— طعامى أن أعمل مشيئة الذى أرسلنى ، وأتم عمله .

* * *

وجاء سكان شكيم تقودهم السامرية يتدفقون ، وغص بهم المكان ، فراح يبشرهم باقتراب ملكوت السموات ، فتفتحت قلوبهم له ، ودعوه أن ينزل عندهم يومين .

فقام عيسى وذهب يحيط به بطرس وأندراوس ويوحنا ويعقوب وفيلبس وبرثولوماوس ، الإسرائيلى الذى لا غش فيه ، ليمضوا يومين فى ضيافة السامريين أعداء اليهود ، غير آبهين لذلك المثل الذى يقول : « إن قطعة الخبز التى تأكلها مع سامرى هى قطعة من لحم الخنزير » .

١٧

« يابنى إسرائيل . اعبدوا الله ربى وربكم . إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار »
(قرآن كريم)

بدا بحر جنيسارت الأزرق الهادىء كصقال مرآة ، ولاحت للعيون شمسان ؛ شمس فى السماء وشمس فى الماء . وامتدت حقول القمح وحدائق الفاكهة ، وكسيت الأرض حلة خضراء ، وزها الوادى بالألوان ، فقد كان مرتعا للجمال .

وعلى هذا البحر الصافى الرقراق يقع كفر ناحوم ، وهى مدينة لصيد الأسماك ، ومرفأ لتصدير فائض الجليل من القمح والزيت والصوف والفواكه ، فالمراكب تحمل البضائع ، ثم تبحر إلى الشاطىء الآخر ، حيث ولاية فيليبس ، ابن هيرودس حاكم الربع من قبل الرومان .

كان الرجال فى غدو ورواح ، الحمالون يحملون سلال الفواكه وأكياس القمح ، وينقلونها من الشاطىء إلى المراكب ، والبحارة فى ألوانهم النحاسية ، يتسامرون ، وتجلجل فى الفضاء ضحكاتهم الفضية ، والنساء ينشرن الشباك على أشجار التين العارية من أوراقها لتجفيفها ، وتجار السمك يجففونه ويرصونه على سعف النخل ، وما كانوا يأكلونه مكتفين بالتين والبلح ، فما كان التجار يأكلون رءوس أموالهم .

وراح محصلو الضرائب يمارسون أعمالهم ، يزنون كل ما يخرج إلى المراكب ويقدرون عليه الرسوم ، وما كانوا تابعين لسلطة واحدة ، بل كانوا فريقين ، فريقا يجمع الضرائب للرومان ، وفريقا يجمعها لحاكم الولاية ينفقها على أبهته ونزواته وشهواته .

وكان اليهود يمقتون هؤلاء الجباة من أعماقهم ، لطبيعتهم التى تبغض الإنفاق ، ولأن هؤلاء الجباة يذكرونهم على الدوام أن سلطان الدين ذهب ، وأنهم أصبحوا رعايا لدولة وثنية ، لم تكن فى يوم من الأيام شعب الله المختار .

كانوا يكرهون الجباة وينفرون منهم ، ولا يحادثونهم ، ويعتبرونهم عشارين خطاة ، وكان يزداد ذلك المقت ، إذا كان الجابي يهوديا ممن باع نفسه للرومان .

كانت كفرناحوم مدينة فقيرة مزدحمة بالفقراء ، لم يكن فيها مجمع يجتمع يوم السبت فيه الصيادون والحمالون والأجراء ، يصغون فيه إلى التوراة ، ويقيمون فيه شعائر الصلاة ، ومال قائد روماني إلى اليهودية فبنى فوق هضبة تطل على البحيرة معبدا لله .

بنى المجمع وما كانت الصلاة فيه ميسورة للكادحين الفقراء ، فما كان كاهن المعبد الأكبر يعظ الناس لوجه الله ، إنه يريد الهدايا والأموال ، فكان يفرض عليهم النذور والقرابين فما كانت الحقيقة سفرت عن وجهها ، فمن ذا الذى يعلمهم أن الله لا ينال لحومها ولا دماءها ولكن يناله التقوى من الناس ؟ حتى الكهنة واللاويين يجمعون لأنفسهم العشور من الوافدين على بيت الله .

كان الناس فى كفرناحوم يتحدثون فى إيمان عن عيسى الذى نزل مدينتهم . إنه أبرأ ابن نبيل من البلاط من مرضه ، دون أن ينتقل من موضعه ، إن الرجل جاء إليه ضارعا أن يشفى ابنه ، فأخبره أن إيمانه برأه من علته ، فلما عاد النبيل إلى بيته ألفى ابنه الذى تركه مسجى فى فراشه ، بارئا يغدو ويروح هنا وهناك .

راح كل واحد يعلق على هذه المعجزة ويحاول أن يجد لها شبيها فى التوراة ، فقال بعضهم إنه إيليا قد قام ، فإيليا شفى المرضى من أسقامهم ، وقال بعضهم إنه النبى الذى بشرت بمقدمه البشارات ، وقد أيده الله بالمعجزات ، ليصدقه الناس ويؤمنوا بما جاء به من عند الله .

وجاء عيسى إلى المرفأ ، فلما رآه الصيادون والحمالون والأجراء فتنوا به ، فتركوا ما فى أيديهم وذهبوا إليه ، فنفوسهم صادئة إلى نهر الكلام العذب ، النابع من قلب ملأه الله علما وحكمة ، والتفوا حوله ، فارتقى حجرا ، وراح يحدثهم بما أوحى الله إليه .

وتقاطر الناس ، وازدحم المرفأ بهم وهو يحدثهم حديثا يأسر أفئدتهم ، كان حديثه لا يخرج عما جاء فى التوراة ، ولكنه كان حديثا مجلوا أخاذا ، فقد أزال عنها جمود السنين . رمقوه فى إعجاب ، ونطقت وجوههم بالفرح النازل بالصدور وبدوا كأنما أريقت فيهم نشوة ، وزاد فى إعجابهم أنه كان يذكرهم بيحيى ، إنه يبشرهم بقرب الخلاص كما بشرهم ابن زكريا قبل أن يقبض عليه هيرودس .

أنتيباس ، فهو يصيح بهم مثله : « توبوا لأنه اقترب ملكوت السموات » .

تعطل العمل فى المرفأ ، فقطار الحمير المحملة بإنتاج وادي يزرعيل ، لايجد من ينقل الفواكه والحبوب إلى المراكب ، وتلفتأصحاب الأموال ، فلم يجدوا الحمالين والأجراء ، فتملكهم الغضب ، وذهبوا إلى حيث اجتمع الناس .

ألفوا الصيادين والحمالين والأجراء يصغون إلى عيسى كالمأخوذين الذين لا يحسون ما حولهم ، حتى الجباة العشارون ألقوا إليه سمعهم ، فاشتعلت ثورتهم ، وصاحوا به : إن الوعظ ليس فى المرفأ بل هناك فى المجمع ، وإنه يفسد الأجراء ، ويعطلهم عن أعمالهم : وما صكت أصوات أصحاب الأعمال آذان الحمالين والأجراء حتى هبطوا من السموات التى حلقوا فيها لحظات ، وانصرفوا إلى عملهم وهم يغمغمون ؛ إن الأغنياء يكرهون عيسى لأنه يعطف عليهم ويواسى فقرهم .

وانصرف الجميع إلا اثنين ، أحدهما كاتب يعرف التوراة ، ويعلم الناس فى المجامع والآخر محصل ضرائب يهودى باع نفسه للرومان ، كرهه اليهود وقاطعوه ،وإذا تحدثوا عنه قالوا فى زراية : متى العشار .

ووقف متى مذهولا عما حوله ، فهو مشغول بالإحساسات الجديدة المتفجرة فى جوفه ، إن نورا ينبعث من أغواره ، فينير كل شىء أمام بصيرته ، وإن صوتا فى نفسه يوحى إليه أن آمن بذلك الرسول ، الذى رفعك وقربك من السماء .

وتقدم الكاتب إلى عيسى عارضا عليه نفسه ، قال :

— أتبعك أينما تمضى .

وفى نظرة أحاط عيسى بذلك الكاتب الذى فيه غرور الكتبة ، فلم يفرح به ، ولم يقبله تلميذا من تلاميذه ، بل قال له :

— للثعالب أوجرة ، ولطيور السماء أوكار ، أما ابن الإنسان فلا يدرى أين يضع رأسه .

إنه فى كفر ناحوم يمضى ليله فى بيت سمعان ، ولكنه ما كان يمكث فى مكان واحد طويلا ، إنه فى رحلة دائمة ، يوم فى أورشليم ، ويوم فى كفر ناحوم ، ويوم فى الناصرة ، ويوم فى غيرها من المدن والقرى اليهودية ، ينام حيث ينام ، وما كان ذلك الكاتب بقادر على أن يعيش هذه الحياة ، أو يحتمل ذلك التقشف الذى لا يحتمله إلا رجل عميق الإيمان .

وانصرف الـكاتب ونظر عيسى فوجد متى ينطلع إليه وفى عينيه صفاء ، كانتا كمرآة صادقة تعكس طهارة النفس ، وفى لمحة فحص عيسى عن المعدن النفيس ، فذلك الرجل الذى فى ثياب عشار انشرح صدره للإيمان : أوحى الله إليه أن آمن بى وبرسولى ، فأشار له وقال :

— اتبعنى .

وسار عيسى ومتى يتبعه . لم يعد محصل ضرائب للرومان بل صار محصل علم وحكمة ، وما انطلقا قليلا حتى جاء تلميذ من تلاميذ المسيح وقال له :

— يا سيد ، إيذن لى أن أمضى أولا وأدفن أبى .

فقال له عيسى فى هدوء :

— اتبعنى ودع الموتى يدفنون موتاهم .

وذاع فى كفر ناحوم أن عيسى فى المرفأ . فجاء الناس والمرضى من كل فج ، يتضرعون إليه أن يبرئهم من أسقامهم ، وراحوا يتسابقون إليه ليمسهم أو يمسوا طرف ردائه ، وازداد الزحام فأشار إلى سمعان أن يأتى بسفينة ، وصعد إليها ، وابتعدت السفينة عن الشاطىء قليلا ، وأخذ عيسى يعظ منها الناس .

وجاء الليل ، وبعث القمر ضوءه ، فانعكست أضواء القمر والنجوم على صفحة الماء ، وظهرت صور المراكب كأنما تنعكس على مرآة متموجة ، والجماهير شاخصة إليه ، وقد أرهفوا السمع ، ثم راحوا ينصرفون ، وقد برأ الأكمه والأبرص ، وبرأت نفوس من أسقامها .

والتف التلاميذ حوله ، ولما كان قد أرسل ليدعوا الناس إلى الإنجيل[1] ، إلى البشارة بملـكوت الله ، إلى كتاب الله الذى سيبقى بين الناس إلى انقضاء العالم ، فقد التفت إليهم وقال لهم :

— فلنذهب إلى مكان آخر من المدن القريبة منا لأ كرز (أعظ) هناك أيضا ، لأنى لهذا العمل خرجت .

وخرج عيسى وتلاميذه إلى المدن المنتشرة حول كفر ناحوم ، ليبشر الناس ويقوم لهم : « توبوا لأنه قد اقترب ملـكوت السماء » .

(١) معنى إنجيل : بشارة بالسعادة الحقيقية .

١٨

« يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله ، فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة » .

(قرآن كريم)

فى الفجر ، قبل أن يذهب الليل ويأتى النهار ، وهن القمر وراح يمحى أمام طلائع الشمس التى انتشرت فى الأفق الشرقى كمروحة هائلة ، أطرافها من فضة ، وقاعدتها من ذهب نضار ، وهجرت الطيور أوكارها تغرد مستقبلة النهار بتسبيحة الصباح ، وعلى الجبل المطل على كفر ناحوم ، كان عيسى يصلى لله ، انفرد وحده يدعو ربه فى خشوع ، ويتلقى وحى السماء .

كان نسيم الفجر رخاء ينعشه ، وابتهاله إلى الله يشرح صدره ، والمشاهد الرائعة تسكب فى روحه حكمة ؛ هذه الزنابق وهذه الأزهار ، وحقول القمح التى تكسو وادى يزرعيل ، وبساتين الفواكه المنتشرة كالجنان ، وجمال بحيرة جنيسارت ، وماؤها الأزرق الذى يبدو فى صفاء البلور تحرك مشاعره ، إنه يراها بعين الشاعر والفنان ، وبعين الحكيم ذى البصيرة النافذة ، وبعين الرسول الذى كشف الكون له عن أسراره ، فتختزن نفسه كل هذه الروائع ، وتتحول فيها إلى أمثال يضربها للناس .

وظل عيسى فى صلاته ، فشغل بالطمأنينة المنداحة فى جوفه عما حوله ، كانت روحه تهيم لتتصل بالسماء ، ومس أذنيه أصوات ، فانتبه إلى نفسه ، ونظر فألفى تلاميذه يزحفون نحوه ، فقام وأقبل عليهم ، وتحت شجرة من أشجار السرو جلسوا يحدثهم ويفقههم فى أمر دينهم .

كان تلاميذه كثيرين ، يمارسون أعمالهم ، ثم يأتون إليه يلقون إليه أسماعهم ، ولكنه كان يريد أصفياء لا يفارقونه فى الحل والترحال ، أناسا يهجرون الدنيا

ومتاعها ، ويهبون أنفسهم لله ، فراح يختار من بين التلاميذ حوارييه ، فاختار اثني عشر رجلا ليلازموه ، لا يفارقونه في الليل أو في النهار .

وارتفعت الشمس ، وعيسى وتلاميذه تحت الشجرة ، يعلمهم وهم يسمعون ، راح يقول لهم :

— أيها الإخوة[1] ، إن سبق الاصطفاء لسر عظيم ، حتى إني أقول لكم الحق لا يعلمه جليا إلا إنسان واحد ، هو الذي تتطلع إليه الأمم ، الذي تتجلى له أسرار الله تجليا ، فطوبى للذين سيصيخون السمع إلى كلامه متى جاء إلى العالم ، لأن الله سيظللهم كما تظللنا هذه الشجرة ، بلى إنه كما تقينا هذه الشجرة حرارة الشمس المتلظية هكذا ، تقي رحمته المؤمنين بذلك الاسم من الشيطان .

ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر ، بالرحمة الغزيرة التي يأتي بها ، كما يجعل المطر الأرض تعطي ثمرا بعد انقطاع المطر زمنا طويلا ، فهو غمامة بيضاء ملأى بالرحمة ، وهي رحمة ينثرها الله رذاذا على المؤمنين كالغيث .

إني أشرح لكم الآن ذلك النذر القليل الذي وهب الله لي معرفته ، بشأن هذا الاصطفاء نفسه . يزعم الفريسيون أن كل شيء قدر على طريقة ، لا يمكن معها لمن كان مختارا أن يصير منبوذا ، ومن كان منبوذا لا يتسنى له بأية وسيلة كانت أن يصير مختارا . وأنه كما أن الله قدر أن يكون عمل الصلاح هو الصراط الذي يسير فيه المختارون إلى الخلاص ، هكذا قدر أن تكون الخطيئة هي الطريق الذي يسير فيه المنبوذون إلى الهلاك .

لعن اللسان الذي نطق بهذا ، واليد التي سطرته ، لأن هذا إنما هو اعتقاد الشيطان ، فيمكن المرء على هذا أن يعرف شاكلة فريسي هذا العصر ، لأنهم خدمة الشيطان الأمناء .

فماذا يمكن أن يكون معنى سبق الاصطفاء سوى أنه إرادة مطلقة ، تجعل للشيء غاية ، ووسيلة الوصول إليها في يد المرء ، فإنه بدون وسيلة لا يمكن أحدا

---

(١) هذا الحديث من إنجيل برنابا .

تعيين غاية . فكيف يتسنى لأحد تقدير بناء بيت وهو لا يعوزه الحجر والنقود ليصرفها فقط ، بل يعوزه موطىء القدم من الأرض ، لا أحد ألبتة . فسبق الاصطفاء لا يكون شريعة الله بالأولى ، إذا استلزم سلب حرية الإرادة التى وهبها الله لإنسان بمحض جوده ، فمن المؤكد أننا نكون إذ ذاك آخذين فى إثبات مكره لا سبق اصطفائه .

أما كون الإنسان حرا ، فواضح من كتاب موسى ، لأن إلهنا عندما أعطى الشريعة على جبل سيناء قال هكذا : « ليست وصيتى فى السماء لكى تتخذ لك عذرا قائلا : من يذهب ليحضر لنا وصية الله ؟ ومن يا ترى يعطينا قوة لنحفظها ، ولا هى وراء البحر لكى تعد نفسك كما تقدم ، بل وصيتى قريبة من قلبك ، حتى إنك تحفظها متى شئت » .

قولوا لى : لو أمر هيرودس شيخا أن يعود يافعا ، ومريضا أن يعود صحيحا ، ثم إذا هما لم يفعلا ذلك أمر بقتلهما ، أفيكون هذا عدلا ؟

أجاب التلاميذ :

— لو أمر هيرودس بهذا لكان أعظم ظالم وكافر .

حينئذ تنهد المسيح وقال :

— أيها الإخوة ، ما هذه إلا ثمار التقاليد البشرية ، لأنه بقولهم إن الله قدر فقضى على المنبوذ بطريقة لا يمكنه معها أن يصير مختارا يجدفون على الله ، كأنه طاغ وظالم ، لأنه يأمر الخاطىء أن لا يخطىء ، وإذا أخطأ أن يتوب ، على أن هذا القدر ينزع من الخاطىء القدرة على ترك الخطيئة ، فيسلبه التوبة بالمرة .

ولكن اسمعوا ما يقول الله على لسان يوئيل النبى : « لعمرى يقول إلهكم : لا أريد موت الخاطىء ، بل أود أن يتحول إلى التوبة » أيقدر الله إذا مالا يريده ؟

تأملوا ما يقول الله ، وما يقول فريسيو الزمن الحاضر .

يقول الله أيضا على لسان أشعيا : « دعوت فلم تصغوا إلى » وما أكثر ما دعا الله .

اسمعوا ما يقول على لسان هذا النبى نفسه : « بسطت يدى طول النهار إلى شعب لا يصدقنى ، بل يناقضنى » .

فإذا قال فريسيونا : إن المنبوذ لا يقدر أن يصير مختارا ، فهل يقولون سوي أن الله يستهزىء بالبشر ؛ كما لو استهزأ بأعمى يريه شيئا أبيض . وكما لو استهزأ بأصم يكلمه فى أذنيه ؟

أما كون المختار يمكن أن ينبذ . فتأملوا ما يقول إلهنا على لسان حزقيال النبي : « يقول الله لعمرى إذا رجع البار عن بره . وارتكب الفواحش ، فإنه يهلك ، ولا أذكر فيما بعد شيئا من بره ؛ فإن بره سيخذله أمامى ؛ فلا ينجيه وهو متكل عليه »

أما نداء المنبوذين ، فماذا يقول الله فيه على لسان هوشع سوى هذا : « إنى أدعو شعبا غير مختار ، فأدعوهم مختارين »

إن الله صادق ولا يكذب ، ولما كان الله هو الحق ، فهو يقول الحق ، ولكن فريسيي الوقت الحاضر يناقضون الله كل المناقضة بتعليمهم .

وجاء الصيادون والأجراء والكتبة ورجال الدين فى عباءاتهم الواسعة وعمائمهم السود ، وأقبل أناس من نواحى غير كفر ناحوم ، وكان بين الحاضرين رجال من أورشليم ، وانتشرت الجموع على سفح الجبل ، فقام عيسى فى ردائه الأبيض ، وفى قدميه نعلاه ، وراح يعظ الجماهير فى صوته الذى كان له فى آذانهم وقع السحر ، فاشرأبت الأعناق ، وجعل الناس يرشفون ما ينطق به فى لذة ونشوة ، راح يقول :

طوبى للمساكين بالروح ، لأن لهم ملكوت السموات ، طوبى للحزانى لأنهم يتعزون ، طوبى للودعاء ، لأنهم يرثون الأرض ، طوبى للجياع والعطاش للبر ، لأنهم يشبعون ، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى للأتقياء القلب ، لأنهم يعاينون الله . طوبى لصانعى السلام ، لأنهم أبناء الله يدعون ، طوبى للمطرودين من أجل البر ، لأن لهم ملكوت السموات .

طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم ، وقيل عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين . فرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم فى السموات ، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم .

أنتم ملح الأرض . ولكن إن فسد الملح فبماذا يملح ، لا يصلح بعد لشيء ، إلا لأن يطرح خارجا ويداس من الناس .

أنتم نور العالم ، لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل ، ولا يوقدون سراجا ويضعونه تحت المكيال ، بل على المنارة ، فيضيء لجميع الذين في البيت ، فليضيء نوركم هكذا قدام الناس ، لكي يروا أعمالكم الحسنة ، ويمجدوا أباكم الذي في السموات .

أخذ الناس يهزون رءوسهم إعجابا ، وظل الكتبة ورجال الدين صامتين . كانوا يشعرون بالحسد ، ولكنهم لم يكشفوا عن الغيرة التي تأكل صدورهم . ماذا يقولون وهو يدعو الناس بالموعظة الحسنة ، ويحدثهم عن الله الواحد ، لم يشرك به شيئا ، فلو أنه أشرك مع الله إلها آخر ، لرجموه تنفيذا لشريعة موسى ، وزاد في صمتهم أنه أعلن على الملأ أنه ماجاء لينقض تلك الشريعة ، بل جاء يؤيدها ويثبتها ، قال :

لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ماجئت لأنقض بل لأكمل ؛ فإني الحق أقول لكم ، إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل . فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى ، وعلم الناس هكذا ، يدعى أصغر في ملكوت السماء . وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيما في ملكوت السموات ، فإني أقول لكم إنكم إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين ، فلن تدخلوا ملكوت السموات .

كانوا جميعا من بني إسرائيل ، يعبدون الله وحده ، فلما وجدوه يعلن أنه ما جاء بشريعة جديدة تنقض شريعتهم ، بل جاء يكملها ، صاحوا فرحا وسرورا ، أما الكتبة والفريسيون فقد أحنقهم تعريضه بهم ؛ ولكن لم ينبسوا بكلمة ، خشية من الجماهير المنتشية بخمر موعظته

قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل ، ومن يقتل يكون مستوجب الحكم ، وأما أنا فأقول لكم : إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم .

قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن ، وأما أنا فأقول لكم : إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه ، فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها ، وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ، ولا يلقى جسدك كله في

جهنم . وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها ، وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ، ولا يلقى جسدك كله فى جهنم .

وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق . وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنا ، يجعلها تزنى ، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى .

فارتفعت أصوات الكتبة ورجال الدين بالاعتراض ، وراحوا يصيحون :

— إن هذا يناقض شريعة موسى .

— هذا الذى يقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل ، قد بدل الناموس قبل أن يزول هو من موضعه .

— لم يقل بهذا نبى ولا رسول .

وارتفعت صيحات التأييد ، وانقضى وقت طويل قبل أن تهدأ العاصفة ، ليستأنف موعظته ويقول :

سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنث . بل أوف لربك أقسامك ، وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا ألبتة ، لا بالسماء لأنها كرسى الله ، ولا بالأرض لأنها موطىء قدميه ، ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم .

سمعتم أنه قيل : عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا . ومن سخرك ميلا واحدا ، فاذهب معه اثنين ، أو من سألك فأعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده .

وصاح أحد الفريسيين :

— إن هذا ما جاء يكمل الناموس ، بل جاء يعارضه .

وماج الناس ، وارتفعت الأصوات وتشابكت الجموع فى مناقشات ، وتصرم وقت طويل قبل أن يعود السكون ، ويستأنف موعظته .

— لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون ، بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء ، حيث لا يفسد

سوس ولاصدأ ، وحيث لاينقب سارقون ولايسرقون ، لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضا .

سراج الجسد هو العين ، فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيرا ، وإن كانت عينك شريرة ، فجسدك كله يكون مظلما ، فإن كان النور الذى فيك ظلاما ، فالظلام كم يكون !

لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر ، لا تقدرون أن تخدموا الله والمال . لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون ، أليست الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس . انظروا إلى طيور السماء ، إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن . وأبوكم السماوى يقوتها ، ألستم أنتم بالحرى أفضل منها ؟ ومن منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعا واحدة . ولماذا تهتمون باللباس ؟ تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو . لا تتعب ولا تغزل ، ولكن أقول لكم: إنهولا سليمان فى مجده كان يلبس كواحدة منها ، فإن كان عشب الحقل الذى يوجد اليوم ويطرح غدا فى التنور يلبسه الله هكذا ، أفليس بالحري جدا يلبسكم أنتم يا قليلى الإيمان ؟ فلا تهتموا قائلين : ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس؟ فإنهذه كلها تطلبها الأمم[١]، لأن أباكم السماوى[٢] يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها ، لكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره ، وهذه كلها تزاد لكم ، فلا تهتموا للغد ، لأن الغد يهتم بما لنفسه ، ويكفى اليوم شره .

واستمر فى موعظته حتى إذا أتمها ، هرع الكتبة والكهنة إليه يناقشونه فيما قال . وأسرعت الجموع إليه تلمس طرف ردائه ، وازداد ضغط الناس عليه ، فذهب سمعان إليه يلتمس منه أن يستريح ، وجاء تلاميذه يكفكفون الجماهيرعنه ، ولكن هيهات ، كانوا يتدافعون ليبلغوه ، حتى الأطفال جاءوا يلتمسون بركته .

---

(١) كان بنو اسرائيل يطلقون على الشعوب الأخرى « الأمم » للتحقير كما كان العرب يطلقون عليهم « العجم » .

(٢) يلاحظ أنه يطلق على الله « أباكم » بمعنى « ربكم » وعلى ذلك فلفظة « أبى » بمعنى «ربى» .

١٩

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ،
ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر ، فسيحشرهم إليه جميعا »
(قرآن كريم)

هبط عيسى من الجبل ، وانطلق وحده بعيدا عن ضوضاء الناس ، فقد تركوه يلتقط أنفاسه ، وتفرقت الجموع ، ومواعظه تتردد فى نفوسهم ، يقلبونها ويفكرون فيها ويمعنون فى التفكير ، قال لهم : اسألوا تعطوا ، اطلبوا تجدوا ، اقرعوا يفتح لكم ، فماذا خلف هذه الأقوال ؟ أيقول لهم : اسألوا الله التوبة والمغفرة فيعطيكم توبته ، واطلبوا ماعنده يمنحكم بركته ، واقرعوا بحسناتكم أبواب الآخرة فيفتح لكم جناته ؟ أيعلمهم بهذه الأقوال أن هذا أول الإيمان : أن يعتمدوا على الله ، وأن يسألوه وحده ، وأن يطرقوا أبوابه ؟ أيهدف إلى أن يغرس فيهم أن يكون الله الملاذ الأوحد ، وألا يتخذوا من دون الله أربابا ؟ ماذا خلف هذه الأمثال ، أيعلمهم أن هناك حياة غير هذه الحياة تبدأ بعد الموت ! وأن هذه الدنيا ممر ، فعليهم أن يأخذوا من ممرهم لمقرهم لعلهم يفلحون ؟

لا تزال موعظته تتردد فى آذانهم ، لكأنما الكون كله يهمس بها : « ادخلوا من الباب الضيق ، فما أوسع الطريق المؤدى إلى الهلاك وأرحبه ، وما أكثر الداخلين منه ، وما أضيق الباب وأكرب الطريق المؤدى إلى الحياة ، وقليلون هم الذين يجدونه » .

ذهبوا إلى دورهم ، ففى رءوسهم ما يفكرون فيه ، أما هو فذهب ليستريح بعد ذلك الجهد المضنى الشاق ، ولكن أنى له الراحة ، فهذا أبرص يعترض طريقه ، ويجثو على ركبتيه ، ويتضرع إليه فى حرارة أن يشفيه ، فتتحرك عوامل الشفقة فى نفسه ، فيمد إليه يده ، ويلمسه فيذهب عنه برصه بإذن الله ، إن الله يؤيده بالمعجزات ليثبت رسالته ، كما أيد الرسل قبله بالمعجزات .

نظر الأبرص إلى نفسه . فإذا هو قد ذهب عنه السوء ، فامتلأ فرحا ، وأسرع يعلن المعجزة ، وينفذ ما اصطلح عليه اليهود عند إعلان التطهير من البرص ، فقد كانوا يعتبرونه نجاسة ، لا يتطهر منها الأبرص ، وإن برأ ، إلا بطقوس ورسوم .

كان الكاهن يأتيه خارج المحلة ، ويذبح عصفورا على ماء حى فى وعاء من خزف ، ويأخذ خشب أرز وقرمزا وعصفورا حيا ، ويغمسها فى الدم ، ويرش المتطهر من البرص سبع مرات ، ثم يطلق العصفور الحى ، ويعلن طهارة الأبرص ، فيغتسل ويحلق كل شعره ، ويقيم سبعة أيام خارج داره ، وفى اليوم السابع يأتى بخروفين ، ويذبحهما ، أحدهما ذبيحة إثم ، والآخر ذبيحة خطيئة ، ويقدم نعجة المحرقة ، ويأتى بدقيق وزيت فيأخذ الكاهن من دم ذبيحة الإثم والزيت ويدهن شحمة أذن المتطهر اليمنى وإبهام يده ، وإبهام رجله اليمنى . ويصب الزيت على رأسه ، ويعلن طهارته . طقوس كتبوها ما أنزل الله بها من سلطان .

ودخل عيسى كفر ناحوم والحواريون معه ، وما استقر بها حتى جاء إليه قائد مئة ، وفى عينيه رجاء ، إنه القائد الذى بنى لكفر ناحوم مجمعها ، جاء إليه يلتمس منه أن يشفى عبدا له ، غلاما يحبه تركه يتعذب من آلام المرض ، قال القائد :

— جئت ألتمس منك أن تشفى فتاى الذى غادرته وهو يقاسى نوبة صرع قاسية .

فقال له عيسى :

— أنا آتى لأشفيه .

تضايق اليهود الذين سمعوا ذلك ، كانوا يخشون أن يشفى عيسى ذلك الغلام ، فيؤمن به قائد المئة ، إنهم لا يريدون أن يدخل أحد فى دينهم ، ولا يتمنون هداية الأمم ، فهم يتصفون بأنانية دينية ، فلو اهتدى غير بنى اسرائيل لدخلوا الجنة مع الوارثين ، مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وما كان اليهود يرحبون بذلك ، فهم يرون الجنة لهم خالصة ، حتى إسماعيل بن إبراهيم لا يرحبون به فيها ، ولولا أن قال الله لأبيه أنه سيباركه ويجعله أمة عظيمة لطردوه من السماء !

كان الدخول إلى بيت وثنى خطيئة ، فقال القائد :

— يا سيد ، لست مستحقا أن تدخل تحت سقفى .

وصمت الرجل قليلا ثم قال :

— لى جند تحت يدى ، أقول لهذا اذهب فيذهب ، ولآخر إيت فيأتى ، ولعبدى افعل هذا فيفعل . قل كلمة فقط فيبرأ غلامى .

عجب عيسى لهذا الإيمان ، فالتفت إلى من عنده وقال :

— الحق أقول لكم لم أجد ولا فى إسرائيل إيمانا بمقدار هذا ، وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ، ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب فى ملكوت السموات .

فالجنة ليست وقفا على شعب دون شعب ، فالوارثون هم عباد الله المؤمنون ، سواء أكانوا من الأمم أم من الشعب المختار .

وقال لقائد المئة :

— اذهب وكما آمنت ليكن لك .

وجاء المساء ، ووضع الطعام ، وقبل أن يمدوا إليه يدا راح عيسى والحواريون يصلون لله :

أبانا[1] الذى فى السموات .
ليتقدس اسمك .
ليأت ملكوتك .
لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض .
خبزنا كفافنا ، أعطنا اليوم .
اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا .
ولا تدخلنا فى تجربة .
ولكن نجنا من الشرير .
لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد .
آمين .

كان أمينا فى تبليغ رسالته ، لم يدع مع الله إلها آخر فى صلاته ، وكان رسولا كالرسل الذين أرسلهم الله إلى الناس ، ليدعوهم إلى الصراط المستقيم ، ولو كان

---

(١) آب غير أب بمعنى الله واستعملها عيسى بمعنى رب .

يعلم أن مع الله إلها آخر ، لصلى له مع الله ، ولكنه ككل الرسل كان يصلى لله الأحد الصمد ، ولا يستنكف أن يكون عبدا لله ، داعيا لوحدانيته ، وعظ الناس فوق الجبل قائلا :

« لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر » .

كان يعلم هدف رسالته ، فما أرسل لينقض شريعة موسى ويقيم شريعة أخرى ، بل أرسل بشيرا باقتراب ملكوت السموات ، فراح يردد فى صلاته « فليأت ملكوتك » وراح أتباعه يرددونها مع الأيام .

« فليأت ملكوتك » ابتهالات تنبعث من قلوب المؤمنين سنوات وأجيال ، « فليأت ملكوتك » هى الإنجيل الذى جاء به إلى الأتباع والأنصار ، فراح المؤمنون يترقبون ذلك اليوم العظيم ، اليوم الذى يأتى فيه ملكوت بانيه الله ، وشارعه الله ، وشريعته كلام الله .

٢٠

« وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله »
(قرآن كريم)

كان يحي يعيش فى الصحراء الواسعة ، طليقا كالطير ، يستقبل الشروق منشرح الصدر ، يملأ رئتيه بالنسيم الطلق ، ويودع النهار راضى النفس ، فالشروق والغروب واصفرار الشمس كالنضار ، واحمرارها كالدم ، آيات تدعم فى قلبه الإيمان ، وتقربه من خالق الكون .

كانت روحه تهفو إلى النجوم ، فهى أنيسته فى سكون الليل . وهى شريكته فى تسبيح الله ، وكان ضوء القمر المنعكس على مياه البحر الميت يملأ قلبه نورا ، وهيام الوحوش والغزلان فى القفار ، وتحليق الطيور فى السماء توحى إليه قناعة ورضا ، إنها تجد رزقها فى دنيا الله كما يجد رزقه فى عسل النحل والجراد .

كان يدعو إلى التوبة وإلى تطهير النفوس من الإثم ، لاستقبال ملكوت الله ، فاجتمع الناس إليه مؤمنين به ، فحقد الفريسيون عليه ، وما كانوا يملكون إلا الحقد وبعض نصوص ميتة من الشريعة حفظوها عن ظهر قلب ، فرفعوا إلى هيرودس أنتيباس أنه يدعو الناس إلى الثورة وقلب نظام الحكم .

وألقى يحي فى حصن ماكيروس الرابض فى الصحراء ، فغابت عن عينيه السماء الصافية الزرقاء ، والطبيعة الطلقة الموحية ؛ شروق الشمس وغروبها ، وحرارتها التى كانت تبعث فى جسمه الناحل الحياة ، والنجوم المتلألئة الهامسة بالأسرار ، والقمر الهاتف بسنة الحياة ؛ محاق فهلال فبدر ثم محاق .

رطوبة السجن تسرى فى بدنه ، ورائحة الحياة البركانية تملأ صدره ، وتكتم أنفاسه ، والظلمة كانت كسحابة دكناء رانت على بصره ، وسلاسل ثقيلة فى قدميه ويديه ، عيشة بغيضة لربيب الحرية ، عيشة أهون منها على نفسه الموت .

كان السجن بغيضا إليه ، ولكن نفسه لم يعتورها وهن ، لم يضعف أمام جبروت هيرودس ، بل ظل يصرخ أن هيروديا لا تحل له ، فغير عليه قلب المرأة المغامرة الطامعة فى أبهة الحكم ، فراحت كالأفعى تنبعث سمومها ، وتوسوس لهيرودس أن يقتله ، فى الليل وفى النهار ، ولكن هيرودس كان يصم أذنيه عن فحيح الأفعى ، فهو متطير يخشى إن قتله — وهو نبى — أن ينزل به غضب السماء .

كان يحيى يقابل تلاميذه وهو فى سجنه ، يصغى إلى أخبار الناس ، ويبعث إليهم تعاليمه ، فبلغه أن عيسى قام مثله يصيح فى بنى إسرائيل : « توبوا فقد اقترب ملكوت السموات » وأنه يقوم بمعجزات ، يبرىء الأكمه والأبرص ، وأنه يدعو القوم إلى الله ، فأرسل اثنين من تلاميذه يقولان له : « أأنت هو الآتى أم ننتظر آخر ؟ »

غادر الرجلان القلعة ، وانحدرا من جبال مؤاب العالية التى كانت تحجب الشمس ، وسارا والضياء المنعكس من مياه البحر الميت يكاد يغشى عيونهما ، ولاحت لهما التلال العارية إلا من زنابق نبتت ، فكانت كجواهر تناثرت فى صحراء ، وانطلقا يخترقان الوديان الخضر ، والفيافى الصفر ، يدخلان مدينة ويخرجان إلى مراع يرعى فيها رعاة بنى إسرائيل الرحل ، وينسابان فى صحراء قاحلة ليس فيها ديار ولا نافخ نار . كانت قبلتهما كفر ناحوم التى ذاع منها مافعله صانع المعجزات .

ولاح لهما جبل يكسوه الجمال ، فيمما صوبه ، فعلى سفحه تقع مدينة نايين الجميلة ، كانت الشمس فى كبد السماء ، وكانت أشعتها حامية ، فعزما أن يدخلا تلك المدينة يقضيان فيها الظهيرة ، ثم يغادرانها ليلحقا بمن أرسلهما يحيى إليه .

دلفا إلى المدينة ، وجلسا يستريحان تحت ظل شجرة ، ثم قاما يستأنفان رحلتهما ، وما خرجا من باب المدينة الشمالى حتى لحا جبل طابور وجبل أندرو ، ينساب بينهما طريق يصل إلى بحيرة جيسارت ، فأغذا السير وإذا بموكب قادم ، فصوبا إليه البصر .

كان عيسى وحوله الحواريون والمؤمنون ، غادروا كفر ناحوم فى الفجر ، ليبلغوا نايين قبل العصر ، جاء يبشر باقتراب ملكوت السموات ، فهو فى رحلة دائمة ، يبصر الناس بما أرسله به الله .

دنا تلميذا يحى منه ، وبلغاه رسالة السجين ، فلم يقل لهما إنه هو الآتى ، بل قال لهما : تعاليا وانظرا .

وسار موكب المؤمنين ، وراح يرتقى الطريق الصخرى المؤدى إلى نايين . وقبل أن يجتازوا باب المدينة ، إذا بجنازة خارجة ، وإذا بامرأة تولول وتصرخ فى حزن عميق . فالمحمول على الأعناق ابنها الوحيـد ، كان الأمل وكان الرجاء بعد موت أبيه ، فإذا به يلحق بأبيه تاركها للأسى والأحزان .

نظر عيسى إلى المرأة ، فهزه حزنها ، أحس كأن دموعها تحرق قلبه . فاقترب منها ، وقال لها فى حنان :

— لا تبكى .

رنت المرأة إليه من خلال دموعها ، ولاح فى وجهها عتاب . فكيف يطلب منها أن تكف عن البكاء والنار تسرى فى أحشائها ، إنه لا يدرى عظم فجيعتها ، صارت ثكلى بعد أن كانت أرملة تمزق قلبها وتجددت الأشجان .

وذهب إلى النعش ووضع يده عليه ، وقال فى صوت عميق :

— أيها الشاب قم .

وساد وجوم ، واتسعت العيون ، وتحرك الشاب فى نعشه ، فلاح فى الوجوه هلع ، ووضع النعش على الأرض ، وقام الشاب تدب فيه الحياة ، فهرعت إليه أمه تضمه وهى لا تكاد تصدق ما جرى ، وتغسل وجهه بدموعها .

وفى ذلك الذهول تذكروا إيليا ، فقد أعاد الحياة إلى ابن المرأة صاحبة البيت الذى ينزل فيه . وتذكروا ما ورد عن اليشع وإعادة الحياة إلى ابن المرأة الشونمية . فصاحوا :

— إنه نبى ، إنه نبى كريم .

وانطلق عيسى وصحبه ورسولا يحى ، فراح يعظ الناس ، ويبرىء الأكمه والأبرص ، ثم التفت إلى تلميذى يحى ، وقال لهما ، مقتبسا البشارة من التوراة :

— عودا إلى سيدكما وقولا له : العمى يبصرون ، والعرج يمشون والبرص يتطهرون ، والصم يسمعون ، والأموات يقومون ، والمساكين يبشرون ، وطوبى لمن لا يعثر فى .

انصرف رسولا يحي ، وقد ملئا عجبا ، وأقبل عيسى على حوارييه والمؤمنين ، يحدثهم عن يحي العظيم ، فقال لهم :

— ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا ؟ أقصبة تحركها الريح ؟

بل ماذا خرجتم لتنظروا ؟ أإنسانا فى ثياب ناعمة ؟

هاهم ذوو لباس المجد والنعيم فى بيوت الملوك

بل لماذا خرجتم ؟ ألتنظروا نبيا ؟

نعم أقول لكم إنه أفضل من نبى ، لأن هذا هو المكتوب عنه ، هأنذا أرسل ملاكى قدامك ، فيعد طريقك أمامك .

وصمت عيسى قليلا ثم قال :

— إن يحي لم تلد النساء مثله .

٢١

« وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم ، جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير » .

(قرآن كريم)

صعرت الشمس خدها للكون ، وشمخت فى كبرياء ، كانت كالغانية المزهوة بجمالها تحسب أن لن يغيض ، ورنت إلى تلال الناصرة من عليائها ، فقد كانت فى ذروة مجدها فى كبد السماء ، وسار عيسى وحواريوه حوله فى الطريق المتعرج المنساب بين التلال ، ذلك الطريق الذى قطعه وهو غلام ، ونظر إلى البيوت البيض ، وثبت بصره على بيت بعينه ، بيت الصبا والشباب ، فذهب إليه وفى قلبه يهيج الإحساسات .

كان عيسى فى رحلته الدائمة ينتقل من مدينة إلى قرية ، كفراشة تنتقل بين الأفنان ، فما يتم موعظته فى مكان حتى ينطلق إلى مكان آخر ، فذاع اسمه فى مدن الجليل وقراه ، وإن كانت صورته لم تنطبع فى نفوس الناس ، كان إذا ذكر اسمه تخيلوه مواعظ وأمثالا ، فمواعظه وأمثاله سرت مسرى الهواء .

إنه يعظ اليوم فى مجمع كفر ناحوم ، وغدا فى سوق تايين ، وفى الليل على شاطىء البحر ، وفى النهار على سفح الجبل ، وترادفت المجامع والأسواق ، وطويت السهول والصحراء ، فأحس تعبا ، بعد الرحلات الطويلة التى قطعها على الأقدام ، وحن إلى ليلة يقضيها تحت سقف بيته بعد تلك الليالى التى قضاها فى بيت سمعان أو تحت قبة السماء ، فانطلق إلى الناصرة يمضى فيها أياما .

جلس حواريوه فى حديقة الدار ، وذهب إلى أمه ، ففرحت مريم بمقدمه ، وأقبلت عليه تحادثه وقد فاض حديثها بالحنان ، ثم دخل عيسى إلى غرفته ومريم ترنو إليه فى عطف وإشفاق فقد نحل مذ غادرها يدعو الناس إلى ملكوت السموات .

وهبطت مريم إلى الحديقة لترى أصفياء ابنها وحوارييه . فوجدت صيادى أسماك بسطاء ، ولكن كان فيهم شىء يميزهم عن الناس ، صفاء نفس وإيمان .

طفقوا يحدثونها عن ابنها ، وعن معجزاته ، فقالوا لها فى زهو إن ما كانوا يقرءونه فى التوراة رأوه رأى العين ، رأوا ابنها يحيى ميتا ، ويبرىء الأكمه والأبرص ، فعل ما فعله إيليا واليشع ، فدعم رسالته بالآيات ، كما دعمها الرسل الذين أرسلوا قبله .

وذاع فى الناصرة خبر مجىء عيسى إلى مدينته . وكانت شهرته قد سبقته ، فتحدث الناس عما فعله فى كفر ناحوم ونايين ، وقالوا إنه النبى المنتظر . كانت أحاديثهم مفعمة بالزهو ، ولكن قلوبهم من الإيمان خواء .

وفى يوم السبت ارتدى الرجال ثيابا نظيفة ، وتزينت النساء ، ولبس الأولاد ثياب الصلاة ، وذهبوا إلى المجمع ، فيوم السبت يوم عبادة وراحة . كان المجمع بناء متواضعا مستطيلا ، رفع سقفه على عمد من الطراز اليونانى ، وفى صدره مكان القدس ، وقد اتجه إلى أورشليم ، فأورشليم قبلة اليهود من زمان سليمان الحكيم . كان الرجال يجلسون فى المجمع بحسب مهنهم ، فالنجارون فى ناحية ، والزراع فى ناحية ، والتجار فى ناحية ، والنساء فى شرفة عالية ضرب عليهن الحجاب .

وجلس فى الصف الأول رئيس المجمع ، وعلى يمينه كاهن المجمع ، وعلى يساره «الشيلاك» وجلس خلفهم أسن سبعة فى الناصرة ، وأمام رئيس المجمع التابوت ، وفيه الأسفار المقدسة ، وجوار التابوت شرف يقف عليه القارىء أو الواعظ « البيمة » .

وأقبل عيسى وأمه والحواريون ، وانضم عيسى إلى النجارين وجلس حواريوه حوله ، وصعدت مريم إلى الشرفة وعيناها على ابنها ، والذكريات تتوافد إلى رأسها ، فما أكثر ما رأته فى السبوت فى ذلك المكان .

قام قارىء واعتلى الشرف . ورتل فى صوت عذب الشمة : « اسمع يا إسرائيل إلهنا إله واحد . . . » وقال الأولاد : « آمين » وقضيت الصلاة ، وبدأت خدمة المجمع ، وفيها يقرأ فصلان ؛ « البراشاه » وهو فصل من الناموس ، و « الهافتراه » وهو فصل من الأنبياء ، دنا رئيس المجمع من التابوت وأخرج

السفر المقدس ، فنهض الناس ، وسبحوا الله ثم جلسوا ، وتقدم رجل مسن ، وتناول التوراة وراح يقرأ « البراشاه » ، ولما انتهى منها عاد إلى مقعده ، فأصلح عيسى شال الصلاة على كتفيه ، ثم قام وتقدم إلى الشرف ، والعيون متعلقة به ، وقلب مريم فى جوفها يخفق كجناح حمامة .

فتح الخازن التابوت ، وقدم إلى عيسى « الهافتراه » . كان درس اليوم سفر النبى أشعيا ، فأشار الخازن بأصبعه إلى بداية قراءته ، ولـكن عيسى لم يقرأ من حيث أشار إليه ، بل راح يقرأ من أشعيا :

« روح السيد الرب على ، لأن الرب مسحنى لأبشر المساكين ، أرسلنى لأعصب منكسرى القلب ، لأنادى للمسبيين بالعتق ، وللمأسورين بالانطلاق ، لأنادى بسنة مقبولة للرب ، بيوم انتقام لإلهنا ، لأعز كل النائحين » .

كان على علم بالتوراة ، يقتبس منها ما يلائم كل حالة ، اقتبس منها « العمى يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يتطهرون . . . » ، لما سأله رسولا يحي من يكون ، والآن يقتبس منها ما يعلن به للملأ أنه رسول رب العالمين .

وطوى السفر ، ودفعه للخازن ، وجلس متأهبا ليلقى عظته ، وساد القاعة صمت ، فقال لهم فى صوت واضح :

— اليوم قد تم هذا المكتوب .

فهتك الصياح السكوت ، قالوا له :

— آتنا بمعجزة لنشهد لك .

— معجزة من معجزاتك فى كفر ناحوم .

— لن نؤمن بك حتى نرى آية من ربك .

وقال الفريسيون فى زراية :

— أليس هذا عيسى النجار ؟

— من أين يأتيه العلم وما كان من الربيين المتعلمين ؟

— لن نؤمن بك حتى تأتينا من السماء ببرهان .

صارت مريم عيونا ، راحت تنظر ماذا يفعل ابنها لهؤلاء الذين يتطاير الشرر من عيونهم ، إنهم يصيحون به أن يأتيهم بمعجزة . وهل كان فى مقدوره أن يفعل معجزة من عنده . إنها تؤمن أن ما يفعله بإذن الله ، وما تصنع المعجزات إلا إذا صفت النفوس ، وأفعمت بالإيمان . وهؤلاء الجليليون غلظت قلوبهم . وما جاءوا ليؤمنوا ، بل جاءوا به يشاهدون عملا خارقا من الأعمال .

وارتفع الصياح .

— شفيت مرضى كفر ناحوم ، فاشف مرضانا .

فأشار عيسى إليهم أن اصمتوا ، فلما خفتت الأصوات ، قال :

— تقولون : أيها الطبيب ، اشف نفسك . كم سمعنا بما جرى فى كفر ناحوم ، فافعل ذلك هنا أيضا . الحق أقول لكم : ليس لنبى كرامة فى وطنه . إن أرامل كثيرات كن فى إسرائيل فى زمان إيليا فى ذلك الزمن الذى لم ترسل فيه السماء أمطارا لثلاث سنين ، فحل الجدب بالأرض ، واحتاجت الأرامل إلى العون ، ولم يتقدم إيليا إلا لإنقاذ أرملة واحدة . وكان فى إسرائيل كثيرون مصابون بالبرص فى زمان اليشع النبى ، فلم يطهر منهم إلا نعمان السريانى .

فظهر الغضب فى الوجوه ، وصاح صائح :

— أيقصد أن يقول إننا لا نستحق المعجزات التى صنعها فى كفر ناحوم ؟

— لم يفعل شيئا لأنه يعلم أنه لن يستطيع أن يخدعنا بمعجزاته الزائفة .

— ارجموه ، فالشريعة تقضى برجم النبى الكذاب .

— ارجموه . . . ارجموه .

وهاج الناس كالليوث الكواسر ، وانقضوا عليه يقتلعونه من مكانه ، وأخذوه وخرجوا به من المجمع ، فمشت الرهبة فى قلب مريم ، وهرعت تهبط الدرج واجفة ، وهب الحواريون ليخلصوه من أيدى أعدائه . وراح يوحنا يتدفق بين الجموع كثور هائج ، ولكن هيهات أن يصل إليه ، فقد أطبق الناس عليه كالأمواج .

انطلقوا فى طرقات الناصرة ، والحواريون يجاهدون وماهم ببالغيه ، ومريم فى إثرهم مبهورة الأنفاس ، وبلغوا قمة الجبل المنحدر إلى سهل يزرعيل ، وأمسكوا

به ليدحرجوه حتى يتمزق على الصخور الناتئة ، فقد كان ذلك نوعا من الرجم الشرعى .

جاءوا ليدفعوا به ، فأحسوا كأنما يغشى عليهم ، وكأن أيديهم عاجزة عن أن تصل إليه ، وإذا به يجتاز بينهم وهم واجمون ، لاح على وجوهم دهش ، وعيسى يسير هادئا سالما ، وقد مالت الشمس للمغيب ، تلفظ آخر أنفاسها ، وقد وضعت على الأرض خدها فى ذلة المحتضر .

٢٢

« وسلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيا »
(قرآن كريم)

دب النشاط فى قلعة ما كيروس ، فالخدم فى غدو ورواح ، يستعدون للوليمة الكبيرة ، التى دعا إليها هيرودس أنتيباس أصدقاءه الرومان ورجال البلاط وعظماء ولايته ورجال الدين الرسميين ، الذين كانوا ضالعين معه فى خداع الشعب والظهور أمامه بالتقى والصلاح .

كان هيرودس يتأهب للاحتفال بعيد ميلاده ، محاكيا الأباطرة الرومان ، ولما كان يتملق شعبه ، ويتظاهر أمامه بأنه فريسى متمسك بالدين والتوراة ، فلم يستطع أن يقيم ذلك الحفل فى قصره ، فأقامه هنا فى قلعة ما كيروس ، الشامخة على جبل عال فى جوف الصحراء .

كانت تلك القلعة مسارح للهو والعبث والانطلاق ، يختلس فيها هيرودس اللذة بعيدا عن رقابة شعبه الذى لا حديث له إلا الحرام والحلال ، وكانت سجنا رهيبا للثوار الخارجين على السلطان ، والأنبياء ، كانت كامرأة ذات وجه بسام وقلب مظلم رهيب ، لا يشرق فيه بصيص من نور الرحمة ، ولا تعرف الشفقة إليه سبيلا .

ذهب هيرودس وهيروديا وبطانتهما إلى القلعة ، يستقبلون الزوار ، ووفدت إلى رأس هيرودس أفكار ، صرخ فيه يحيى فى هذا المكان أن هيروديا لا تحل له ، إنه يخشى أن تنزل به لعنة موسى فلا يعقب منها ، وهو يشتهى أن ينجب من يرث بعده ولايته . كان هيرودس كثير التطير ، طلبت منه هيروديا أن يقتل يحيى ، الذى يقلب عليه بنى إسرائيل ، وطلب منه السنهدرين أن يقتله ، حتى لا يثير بين الناس فتنة ، وأشار عليه أصدقاؤه الرومان بقتله قبل أن يؤلب

الشعب على رومية ، ولـكنه كان يرتعد فرقا إذا فـكر فى قتله ، كان يصدق ما قيل من أن يحيى هو إيليا ، بعث بعد موته يدعو الناس إلى الصلاح ، فخاف أن يمد إليه يده ، فينزل عليه خسفا من السماء .

لم يكن يذكر خوفه إذا هب يدافع عن وجهة نظره ، بل كان يتسربل بالدهاء ويقول إن من الحـكمة أن يترك يحيى فى سجنه حتى ينساه أتباعه — وما أكثرهم — فبساطة تعاليمه ومطابقتها لناموس اليهود ، جعلت تصديقه أمرا سهلا ، حتى إن كثيرا من الفريسيين المتزمتين المتعصبين صدقوه وأصبحوا له أتباعا . فالأمل فى أن يخرج من سجنه يوما منع أتباعه من إعلان ثورتهم ، أما إذا قتل فستندلع لهيب الثورات ، فموته أخطر من حياته . ودمه أفصح من مواعظه التى يخرج بها حواريوه إلى الناس . قد تكدر تعاليمه الصفاء ، أما دمه فيزلزل العروش والتيجان .

وأتى المساء وأضيئت المشاعل فى القاعة العليا المقامة على أعمدة من رخام ، وبدت من الشرفة الصحراء المترامية فى سكونها ، والسماء المزينة بمصابيحها ، والبحر الميت يعكس أضواء النجوم المتلألئة ، ومدت الموائد وتكدست فوقها صحاف الفضة وأوانى الذهب ، ملئت بالفواكه والمآكل والشراب .

ووفد المدعوون ؛ الرومان والأمراء وأعيان الجليل ورجال الدين السائرون فى ركاب السلطان ، وتحلقوا حول الموائد ، وامتلأت البطون ، ولعبت الخمر بالرءوس وجاءت الراقصات يرقصن وهن شبه عاريات رقصات خليعة ماجنة ، فاتسعت عينا هيرودس ، ولاح فى وجهه انشراح ، كان ينفعل لـكل مايحرك جذوة الشباب الذى ولى .

كانت هيروديا إلى جواره تعابث ابنتها سالومى ، التى كانت رائعة الحسن ، كزنبقة نابتة فى الصحراء ، والتفت هيرودس إليهـا فوقعت عيناه على عينيها السوداوين كليل الربيع الساحر ، وقفزت إلى ذهنه المخمور فـكرة ؛ لماذا لا ترقص سالومى فى عيد ميلاده ، وقد ذاعت شهرتها كراقصة ماهرة ، حتى قرعت أبواب القياصرة فى رومية ؟

مال نحوها وقال لها :

— ارقصي لى يا سالومى .

— لا أشعر برغبة فى الرقص .

— ارقصي لى .

— لا أستطيع .

— إذا رقصت لى أعطيتك ما تشائين .

فقالت فى مرح :

— حقا ؟

— أقسم لك يا سالومى .

— بماذا تقسم ؟

— أقسم لك بآلهتى ، ما سألتنى شيئا إلا أعطيتك .

— لقد أقسمت .

— أقسمت يا سالومى . وما حنثت فى قسمى قط .

رقصت سالومى فى خفة الطيف ، وتثنت كأفعى ، وهيروديا ترمقها وفى رأسها أفكار خبيثة ، وهيرودس ينظر فى ابتهاج ، وحبست الأنفاس ، فسالومى ترقص فى حرارة كأنما تتدفق فى عروقها نار ، تميل فتميل معها القلوب ، وما انتهت من رقصتها حتى هرعت إلى هيرودس وحنت رأسها أمامه ، فقال لها فى انشراح :

— انهضى لأمنحك ما تطلبين .

احتارت سالومى ، فما تدرى ماذا تطلب ، فذهبت إلى أمها تسألها ، وما كانت هيروديا فى حاجة إلى تفكير ، فقد فكرت ودبرت ، فقالت لسالومى همسا : « اطلبى رأس يحيى » .

عادت سالومى إلى هيرودس ، فقال لها وهى تبتسم :

— هيه ، ماذا تطلبين ؟

— هدية فى طشت من فضة .

فغمغم الملك فى دهش :

— هدية فى طشت من فضة ؟ وما هذه ؟

— رأس يحيي .

فاربد وجه هيرودس ، وطارت الخمر من رأسه ، وقال فى فزع :

— لا . . لا . . غير هذا يا سالومى .

— أريد رأس يحيي فى طشت من فضة .

فقال هيرودس وهو يهتز رعبا :

— لا . . لا . إنه رجل صالح ، إنه قديس ، غير هذا يا سالومى . اسألى نصف مملكتى ، اسألى أى شىء غير هذا .

فقالت هيروديا فى إصرار :

— لقد أقسمت .

وأيدها أصدقاؤها الرومان والرهبان ، الوالغين فى الإثم والعدوان .

— أقسمت قسما عظيما ، فبر قسمك .

ثارت فيه بربريته ، فلم يشأ أن يحنث أمام مدعويه فى قسمه ، ولو كان الحنث أشرف من سفك دم برىء ، فقال فى صوت خافت خائف :

— أعطوها ما طلبت .

وهبط الجنود إلى القلعة ، وساد القاعة صمت ووجوم . وانقشعت النشوة ، وحل قلق ورهبة ، وانقضى الوقت وئيدا بغيضا ، وإذا بالجنود يعودون يحملون طشتا من فضة ، فوقه رأس يحيي ، وتناولت سالومى الطشت ، وعيون الفزع ترمقها ، وذهبت إلى أمها تقدم لها رأس من سبها ، ومرغها فى العار .

ذبح يحيي ، ذبح من قال عيسى عنه : لم تلد النساء مثله ، ذبح وما اقترف إثما ولا خطيئة ، ذبح طاهر الذيل عفيفا ، ولو كانت دعوى الفداء حقا ، وأن الله يريد فداء عن خطيئة آدم ، ولو كان الأبناء يكفرون عن خطايا الآباء ، لكان ذلك الدم الطاهر ، الذى أهدر بلا جريرة ، أزكى دم يقدم للفداء ، وخير كفارة عن خطيئة آدم ، ولكن ما كان الله ليأخذ الأبناء بجريرة الآباء ، فقد قرر فى التوراة أن النفس التى تخطىء تموت ، الابن لا يحمل من إثم الأب . والأب لا يحمل من إثم الابن ، بر البار عليه يكون ، وشر الشرير عليه يكون ، وقرر أن الآباء

لا يقتلون عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء ، كل إنسان بخطيئته يقتل .

إن الله عادل ، من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . وهو رحيم ، فإذا كان آدم قد أخطأ ، فقد نال جزاء خطيئته ، طرد من جنة عدن ، وهبط إلى دنيا الشقاء ، وراح يستغفر الله ، ويذرف دموع الندم ، ولما كان الله يغفر الذنوب جميعا، فقد عفا عن زلة عبده ، « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم » .

٢٣

« كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون »
(حديث شريف)

شباب بنى إسرائيل الرافل فى العز يحاول أن يتحرر من ربقة الدين ، فهم يكونون طبقة تتطلع إلى محاكاة الرومان الحاكمين ، فوطأة التقاليد ثقيلة بغيضة ، تكبت العواطف المذخورة المشبوبة بين الضلوع ، إنهم يريدون أن ينفسوا عن غرائزهم ، وأن يقضوا أيامهم فى متعة وسرور . فأجسادهم متعطشة إلى البهجة ، وأرواحهم ظمآى إلى النشوة ، والناموس حائل بينهم وبين الانطلاق المنشود ، فليهجروا الناموس ، وليفعلوا ما يبغون .

كونوا حلقات منهم ، وراحوا يمضون الأمسية فى بيت من بيوت الفاتنات ، اللائى يفتحن دورهن لأصحاب المال والنفوذ ، وكان بيت مريم المجدلية من تلك البيوت ، كانت مريم شابة جذابة ، كأنما صيغت من لبن ودم ، وكانت تمتاز بعينين سوداوين واسعتين ، يتوج رأسها شعر فاحم مسترسل ، يخفى صدرها الناهد البديع .

إذا نسج الليل خيوطه السود على الكون ، انسل الشباب الغنى إليها ، وراحوا يمضون ليلتهم فى سمر وحديث ومجون ، بين قرع الكئوس ، وتثنى الراقصات ، وأنغام الموسيقى التى تحرك الغرائز ، وتبعث الدفء فى الصدور .

كان لمريم أكثر من عشيق ، وكانوا يتنافسون فى إرضائها ، فيحملون إليها الهدايا من الذهب واليواقيت ، فكانت تفكر أحيانا فى أن تبعث ببعض المال إلى المعبد ، فكان الكاهن يرد إليها مالها ، فالكل يعرفونها غارقة فى الدنس ، والشريعة تحرم لمس أموال الخطائين .

وتحت شجرة ضخمة وارفة الظل ، وقف عيسى فى السهل المنبسط ، الذى

اصفرت فيه سنابل القمح ، فبدا كأنما ارتدى حلة من الذهب ، واجتمع حوله الجموع يصغون إليه ، ومرت مريم المجدلية ، فألفت جمهرة ، فانطلقت فى خفة الغزال تنظر ، فرأت شابا ، لم يكن مثل الشباب الفارغ المتهافت عليها كالذباب ، بل كان وجهه ينطق بالطهارة والرزانة ، ولفت نظرها عيناه ، كانتا صافيتين صفاء غريبا ، حتى ليكاد يبدو منهما فؤاده ، وأدامت النظر إليــه فشعرت بمهابة ، ووقفت ترنو إليه لحظة ، ثم همت بالانصراف وإذا بصوت عميق يقرع أذنيها ، فتحس كأنما أريقت فى جوفها كلماته . كانت مواعظ قوية أخاذة ، تستحوذ على النفوس ، وتنزل بالقلوب رهبة .

تسمرت مريم فى مكانها ، وأطرقت برأسها ، وأرهفت سمعها ، فأحست كأنما ينتشلها من دنياها ، أصغت إلى هاليل وإلى شماى وإلى الوعاظ من الـكتبة والفريسيين ، فلم يطرق أحدهم باب قلبها ، كانت مواعظهم كالطبل الأجوف ، تدوى لحظة وسرعان ما تمحى ، أما ما تسمعه الساعة فينفذ إلى أعماقها ، وتنفعل له كل خالجة وجارحة ، ويبدد الظلام المتراكم فى جوف صدرها ، إنها تشعر أن مواعظه تغسل روحها ، وتخلقها خلقا آخر

وانتهى عيسى من دعوته ، وانصرف وحواريوه حوله ، وانتشر الناس فى الأرض ومريم ذاهلة ، فصوته العميق الطاهر لايزال يرن فى أعماقها ، وانتبهت فوجدت نفسها وحيدة ، فسارت وهى مشغولة بأفـكارها :

وجاء المساء ، فتواتر العشاق على دارها ، والتفوا بها ، لينعموا بمرحها ، فإذا بها مطرقة ساهمة ، يحادثونها وهى شاردة ، فجعلوا يتظرفون ليبددوا كآبتها ، ولـكن هيهات ، كانت غائبة بروحها ، وإن كانوا يحلقون حول جسدها .

وولد النهار ، فخرجت مريم إلى الجليل تبحث عمن فجر فى نفسها نبعا من الخير ، فقد باتت تستشعر مشاعر فاضلة ما كانت تعرفها ، وانطلقت تنقب عمن أحيا موات نفسها ، حتى وجدته يعظ الناس ، فهرعت خافقة القلب تصغى إليه .

أحست نحوه إحساسا غريبا ، شعرت بحب يملأ جوانحها ، ولـكنه ما كان كذلك الحب الخسيس الهابط بها إلى حمأة الرذيلة ، بل حبا رافعا ينتشلها من وهدتها إلى عالم صاف من الطهر ، إن نورا يسكب فى روحها ، فيفر أمامه ذلك

الظلام الذى ران على حياتها ، وغشاوة الدعارة تنهتك عن عينيها ، فترى جمال العفة ، وحرارة كلماته تبخر مستنقع الدنس الراكد فى أغوارها ، فتحس كأنما صارت فى خفة الطيف أو الملائكة .

وعادت إلى بيتها ، وأغلقت عليها بابها ، ولم تفتحه لطارق ، وصمت آذانها عن توسلات أخدان الليل . وفى السكون الهاجع طفقت تناجى الله مستغفرة ، تبكى فى حرارة ، فقد عرفت عيونها مذ عرفته الدموع .

وخرجت وقد عزمت أن تنطلق إليه ترفع إليه شكرها على تخليصها من أدرانها ، ولكن لما وجدته يعظ الجموع أحجمت . كانت تعرف قسوة الناس ، فإذا ماتقدمت إليه ارتفعت أصوات الهزء والسخرية ، فهم يعرفونها امرأة خاطئة ، ويالقسوة الحكم على الخطاء فى مجتمع مراء يتظاهر بالطهر والعفاف .

وانتشرت الجموع فى الطرقات ، وسار وحواريوه وبعض الرجال ، ومريم فى إثره ، ترجو أن تنفرد به ، لتخر ساجدة تقبل قدميه ، فقد أخرجها إلى النور من دياجير الظلمات .

ودعاه فريسى إلى داره ، فدخل وحواريوه حوله ، ولم يقدم لهم الفريسى ماء ليغسلوا أرجلهم ، فما من ضيف يدخل بيت عارف بالناموس إلا يقدم إليه الماء ، ولم يقبلهم ، فالضيوف يستقبلون بالقبلات ؟ .

وقفت مريم تنظر ، وأفكارها تراودها ، إن هى عادت إلى بيتها فربما لاتتاح لها فرصة مثل هذه ، وإن هى أقبلت فماذا يقول الرجال عنها ؟ وبقيت فى حيرة ، تترجح بين الإقدام والإحجام ، وتغلب إيمانها ، فتقدمت نحو الدار .

سارت وقلبها يدق فى صدرها ، مريم المجدلية الجميلة التى عنت لها الرقاب ، تتقدم واجفة ، فى يدها صندوق من المرمر فيه طيب ، وفى جوفها قشعريرة ورهبة ، ودلفت إلى المكان ، فألفت عيسى ، النبى الذى بذر فيها الإيمان ، متكئا على أريكة ، فركعت خاشعة ، وصبت الطيب على رجليه ، وانهمرت دموعها ، فانتثرت كاللؤلؤ على قدميه ، فتلفتت تبحث عن شىء تجفف به دموعها التى تساقطت ، فلم تجد شيئا ، فحلت شعرها وجعلت تجفف به رجليه .

رمقها سمعان الفريسى فى شزر وزراية ، ولكنها لم تلحظه . كانت ذاهلة عنه

بالفرح المنبثق فى صدرها ، فتلك الدموع الطافرة من مآقيها غسلت روحها ، حتى صيرتها أنقى من البلور . وخطر للفريسى خاطر : لو كان عيسى نبيا لعرف أى امرأة هى تلك التى تغسل قدميه بالدموع .

رفع عيسى بصره إلى الفريسى وقال له :

— يا سمعان ، عندى شىء أقوله لك .

— قل .

— كان لدائن مدينان ، على أحدهما خمسمائة دينار ، وعلى الآخر خمسون ، ولم يكن لهما ما يوفيانه ، فسامحهما ، فأيهما يحبه أكثر ؟

— الذى ترك له أكثر .

— نطقت صوابا .

فطن الفريسى إلى مايرمى إليه ، فهذه المرأة المثقلة بالآثام ، إذا غفر الله لها ، فسيكون حبها له بمقدار عظم خطاياها التى غفرت .

وقال له عيسى :

— أترى هذه المرأة ؟

فلم ينظر إليها الفريسى ، كأنما النظر إليها نجاسة تحتم التطهير ، فاستمر عيسى فى حديثه :

— إنى دخلت بيتك ولم تقدم لى ماء لأغسل رجلى ، أما هى فقد غسلتهما بالدموع ، وجففتهما بشعرها ، لم تقبلنى قبلة وهى لم تكف عن تقبيل رجلى ؟ لم تدهن رأسى بزيت ، أما هى فقد دهنت بالطيب قدمى .

كان عيسى يعرف أن الله غفور ، يحب توبة الخطائين ، تاب على آدم ، وتاب على موسى لما قتل المصرى ، وتاب على داود ، وإنه ليتوب على مريم المجدلية ، التى خشعت باكية مستغفرة ، فقال لها :

— مغفورة لك خطاياك .

وخرجت مريم فرحة مستبشرة ، تحس أنها خلقت خلقا آخر .

٢٤

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سـبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » . (قرآن كريم)

كان الوقت صبحا ، النسيم يهب رخاء ينعش الأفئدة ، وصفاء ماء بحيرة جيسارت يقرض النفوس صفاء ، وروعة المشاهد تهز المشاعر ، وتغريد الأخيل الأزرق تنسكب فى الآذان ، فتنشرح له الصدور ، كأنما كان ابتهالا وتسبيحا .

وعلى شاطىء البحيرة ، وقف عيسى فى ثوبه الأبيض ، تتدلى منه الأهداب ، وعلى رأسه غطاء ، وبالقرب منه يوحنا وسمعان ، وحوله باقى حوارييه ، وعلى بعد خطوات وقفت نسوة محجبات ، يتبعنه أينما يذهب ، إنهن مريم المجدلية ، وسالومى زوجة زبدى ، ويونا زوجة جوزى ياور هيرودس ، كن صاحبات أموال ، فأخذن يصرفنها فى سبيل الدعوة .

وجاء الناس إليه من كل قرية ومن كل مدينة ، يصغون إليه ، ويشاهدون آياته ، فراح يعظهم ، ويضرب لهم الأمثال ، فقال لهم :

خرج الزارع يزرع زرعه ، وفيما هو يزرع سـقط بعض البذور ، فأكلته طيور السماء ، وسقط بعضها على الصخر ، فلما نبتت جفت ، لأنها لم تسق بالماء ، وسقطت بذور وسط الشوك ، فنبت معها الشوك وخنقها ، وسقطت بذور فى الأرض الصالحة فلما نبتت أخرجت مائة ضعف .

وصمت قليلا ثم قال :

ــ من له أذنان للسمع فليسمع .

واستمر عيسى يضرب الأمثال للناس ، وحواريوه ينظرون إليـه فاغرى الأفواه ، لا يفهمون كل ما يقول ، كانوا صيادى أسماك أغفالا ، لم يتلقوا علما إلا فى مدرسته ، لذلك كانوا إذا خلوا به سألوه عن تأويل أمثاله .

وتفرقت الجموع ، وبقى عيسى وتلاميذه وحدهم ، فقالوا له :

— ماذا تقصد بمثل الزرع والزارع ؟

فرنا إليهم فى ود وقال :

— لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت الله(١) .

فأصاخوا بسمعهم ، وبان فى وجوههم الاهتمام ، إنه يبشرهم باقتراب الملكوت ، وعلمهم أن يبتهلوا إلى الله فى صلاتهم ضارعين « فليأت ملكوتك » وقد آن أن يكشف لهم عن سر الملكوت ، ذلك السر الذى لا يعرفه إلا إياه ، أشار إليه فى مثله ، ومر المثل دون أن يفطنوا إليه ، كسائر الناس الذين حسبوه وسيلة للتعليم وتقريب الأشياء إلى الأذهان ، قال :

— يعرف الباقون الملكوت بأمثال ، حتى إنهم مبصرين لا يبصرون ، وسامعين لا يفهمون .

وصمت قليلا ، ثم أفضى إليهم بالأسرار :

— الزرع : هو كلام الله . والذين على الطريق : هم الذين يسمعون ، ثم يأتى إبليس وينزع الكلمة من قلوبهم . والذين على الصخر : هم الذين متى سمعوا يقبلون الكلمة بفرح ، وهؤلاء ليس لهم أصل ، فيؤمنون إلى حين ، وفى وقت التجربة يرتدون . والساقطون بين الشوك : هم الذين يسمعون ثم يذهبون فيختنقون من هموم الحياة وغناها ولا يثمرون . أما البذور التى سقطت فى الأرض الطيبة : فهم الذين يسمعون الكلمة فيحفظونها فى قلب مؤمن صالح ، حتى تثمر بالصبر .

هذا هو سر ملكوت الله الذى يبشر به ، ويدعو الله فى صلاته أن يرسله للناس ، ذلك الملكوت الذى شريعته البيضاء « كلام الله » ، الزرع سينبت فى الأرض الصالحة ، ويثمر أطيب الثمار بالصبر والإيمان .

كانوا يتلهفون على إعلان ملكوت الله فى حياتهم ، على تأسيس شريعة جديدة ، تحكم فى الأرض ، تستمد سلطانها من السماء ، وينظم المعاملات فيها كلام الله ، كانوا يأملون أن يروا بأعينهم السراج الوهاج الذى قال عنه : « ليس لأحد

---

(١) لوقا (٨ : ١٠ — ٦٥) .

يوقد سراجا ويغطيه ، أو يضعه تحت السرير ، بل يضعه على منارة ، ليهتد الداخلون بالنور » .

عرفوا أسرار الملكوت ، فلن يأتى ملكوت الله ، إلا إذا نزل إلى الأرض كلام الله ، وسادت شريعته ، ونبتت تعاليمه فى الأرض الطيبة ، ولن ينال ذلك إلا بالصبر ، والصبر الطويل .

وانطلق عيسى وحواريوه إلى منزل متى ، فقد أعد لهم وليمة ، وكان بين المدعوين بعض حوارى يحي وبعض الفريسيين ، وكان أغلب المدعوين من الفقراء والخطائين ، فما كان متى يعرف إلا أبناء طبقته .

اتكأ عيسى إلى الوليمة ، منشرح الصدر ، وأقبل على هؤلاء الفقراء والخطائين يبادلهم الحديث فى عطف ، فقلبه الكبير ينفتح لهم ، ويغمرهم بحنان دافق ، وراح يشاركهم الطعام والشراب ، بينا وقف الفريسيون بعيدا فى كبريائهم وعجرفتهم ، فالاختلاط بأمثال هؤلاء الخطائين يخدش كرامتهم ، وينال من صلاحهم وتقاهم ، أما حواريو يحي فقد نظروا فى إنكار إلى ما يجرى أمامهم ، فأمثال هذه الولائم لا تتفق مع دعوى النسك والتقشف التى نادى بها يحي .

واقترب الفريسيون من بعض حوارى المسيح ، وقالوا لهم فى استخفاف :

— لماذا يأكل مرشدكم مع الخطائين ؟

لاحظ عيسى تقارب الرءوس ، والهمس والمناجاة ، ففطن إلى ما يدور بين الفريسيين وتلاميذه من عتاب ، فقال :

— لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى ، فاذهبوا وتعلموا ، إنى أريد رحمة لا ذبيحة ، لم آت لأدعو الأبرار ، بل جئت أدعو الخطائين إلى التوبة .

فقال له تلاميذ يوحنا :

— لماذا نصوم كثيرا نحن والفريسيون ، بينا تلاميذك لا يصومون ؟

فقال لهم فى رقة :

— هل يستطيع بنو العرس أن يصوموا ما دام العروس فيهم ، ولكن ستأتى أيام حين يرفع العروس عنهم ، فحينئذ يصومون .

وصمت قليلا ، ثم قال :

— بمن أشبه أناس هذا الجيل ، وماذا يشبهون ؟ يشبهون أولادا جالسين فى السوق ، ينادى بعضهم بعضا ويقولون : زمرنا لكم فلم ترقصوا ، نحنا لكم فلم تبكوا ، لأنه جاء يحيى لا يأكل خبزا ولا يشرب خمرا ، فقالوا عنه : إن به شيطانا ، وجاء ابن الإنسان يأكل ويشرب ، فقالوا : هذا إنسان أكول وشريب خمر .

ودخل يايروس ، رئيس المجمع ، مضطربا وفى وجهه هلع ، فلما رأى عيسى هرع إليه ، وارتمى على أقدامه وقال له فى توسل :

— ابنتى تجود بأنفاسها ، أضرع إليك أن تنقذها .

أثر حزن الوالد الحزين فى قلب عيسى ، فقام معه ، وسار يتبعه حواريوه وحواريو يحيى وبعض الفريسيين ، وفيما هو فى انطلاقه أحس يدا تلمسه ، كانت لمسة إيمان عميق ، فالتفت إلى من حوله وقال :

— من الذى لمسنى ؟

فقال بطرس :

— الناس يحشرون حولك ، ثم تسأل عمن لمس طرف ثوبك ؟

وتقدمت امرأة أنفقت كل ماجمعت لتبرأ من مرضها ، كانت تنزف دما طوال السنين ، فرأت أن تلمس ذلك النبي الكريم لعلها تبرأ مما بها ، فنظر إليها عيسى فألفى فى وجهها إيمانا عميقا ، فقال لها :

— اذهبى ، بارئة بإذن الله .

وفى الطريق جاء رسول إلى يايروس ، يحمل إليه الخبر الفاجع ، قال له :

— ماتت ابنتك .

وقال ليايروس وهو يلتفت إلى عيسى :

— لماذا تتعب السيد ؟

فقال عيسى لرئيس المجمع :

— لا تخف . آمن .

فقال الرجل فى حرارة :

— آمنت :

وبلغ الحشد بيت يايروس ، فإذا ضجيج العويل يتجاوب فى الفضاء ، فتقدم عيسى ولم يتبعه إلا بطرس ويعقوب ويوحنا ، وقابلته النائحات الباكيات ، فقال لهن :

— لماذا تبكين ؟ إنها نائمة .

فظهر فى العيون من خلل الدموع استخفاف ، ولم تكدره تلك النظرات ، بل طلب من الجميع أن يخرجوا ، وذهب إلى الصبية وخلفه أمها وأبوها وصحابته ، فإذا هى مسجاة فى فراشها ، فأمسك بيدها وقال :

— قومى بإذن الله .

وخفقت القلوب وحبست الأنفاس ، واتسعت العيون ، وإذا بالفتاة تتحرك ، ثم تقوم ناهضة ، وفى الوجوه دهش واستغراب .

٢٥

« لأورشليم جعلت مبشرا »
(أشعيا)

أشرقت شمس دعوته فى بنى إسرائيل ، فالجموع تحشر تصغى إليه وتصدقه ، وصفت سماؤه لم يكدرها بعد عداوة أعدائه وحساده ، فإذا كان أهله لم يصدقوه ولم يؤمنوا به ، فقد كان ذلك سحابة عابرة ، وشرحت صدره تلك البداية الموفقة لرسالته ، فدعا حوارييه ، ليبعثهم إلى بنى إسرائيل داعين إلى الله ، مبشرين باقتراب ملكوت السموات .

كان تلاميذه لا يفهمون أمثاله ، بل كانوا يستفسرون منه عما يرمى إليه بتلك الأمثال إذا ما خلوا به . فكيف يبلغ هؤلاء عنه رسالته ؟ إن الأفكار تنبثق من القلب ، وتصقل فى الرأس ، وتخضع للطبع ، فكيف يبلغ يعقوب المندفع ، وبرثلماوس الإسرائيلى الذى لا غش فيه ، وبطرس المتحمس ، واندراوس المفكر ، وفيليبس المؤمن ، ويهوذا القلق المضطرب ، أفكارا واحدة ، أفكار عيسى النابعة من رقراق نفسه ، المغلفة ، برقة طبعه ، المصقولة بصفاء ذهنه ؟

حرم المسيح عطف الأهل ونعمة الأبوة ، فاتخذ هؤلاء التلاميذ أهلا ، ووجد فيهم منفسا لعواطفه ، فكان يرعاهم رعاية الأب لأبنائه ، يحس نحوهم إحساسات الحب الأبوى ، فكانوا جميعا فى عينيه كاملين .

حتى يهوذا الأسخريوطى ، ذلك الذى جعله أمينا لصندوق جماعته ، كان لم يحرم حبه ، بل كان يقربه ويدنيه .

جاء الجليليون الأغمار ، الذين أوحى الله إليهم أن آمنوا به وبرسوله ، يصغون إلى نبيهم ، الذى راح يرسم لهم الطريق ، قال :

— إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامرين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة ، وفيما أنتم ذاهبون « عظوا » قائلين : إنه قد اقترب ملكوت السموات .

بصرهم بهدف رسالته ، أن يبشروا بنى إسرائيل ، وبنى إسرائيل فقط ، باقتراب ملكوت السموات ، فقد أرسله الله رسولا إلى بنى إسرائيل ، أما الأمم ؛ الشعوب الأخرى ، فسيرسل الله إليها « مشتهى الأمم » الذى بشر به النبى حجى .

كان المسيح يعرف أغراض رسالته ، فما بعث إلا لشعب الله المختار ، وسيرسل الله إلى الأمم الآخر ، الذى قال عنه لبنى إسرائيل على لسان موسى : « سوف أقيم لهم نبيا مثلك ، من بنى إخوتهم ، وأجعل كلامى فى فمه[1] ، ذلك الآتى من البرية من الديار التى سكنها قيدار[2] « من جزيرة العرب » . ذلك الذى بشرت به البشارات ، بأن الله جعله عهدا للشعب ، ونورا للأمم .

حذر تلاميذه أن يذهبوا إلى طريق الأمم ، فالذاهب إلى طريق الأمم هو عبد الله ومختاره الذى بشر به أشعيا : « هوذا عبدى الذى أعضده ، مختارى الذى سرت به نفسى وضعت روحى عليه ، فيخرج الحق للأمم . . . لا يكل ولا ينكسر ، حتى يضع الحق فى الأرض ، وتنتظر الجزائر شريعته[3] »

واستمر فى وصيته :

— لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا فى مناطقكم ، ولا مزودا للطريق ، ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا .

وأية مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا عمن فيها ، وأقيموا هناك حتى تخرجوا ، ولا تدخلوا بيوتا حتى تستأنسوا وتسلموا ، فإن كان البيت مستحقا فليأت سلامكم عليه ، وإن لم يكن مستحقا فليرجع سلامكم إليكم ، فإذا قيل لكم اخرجوا فاخرجوا وانفضوا غبار أرجلكم .

هأنذا أرسلكم كغنم فى وسط ذئاب ، فكونوا حكماء كالحيات ، وبسطاء كالحمام .

فقال بطرس باندفاعه المعهود :

---

(١) تثنية (١٨ : ١٨)   (٢) تكوين (٢٥ : ١٣)

(٣) أشعيا (اصحاح ٤٢)

— وإذا مزقت الذئاب الخراف ؟

— لن ينالوا إلا أجسادكم ، أما أرواحكم الطاهرة فتحيا عند الله .

واستأنف وصيته :

— احذروا الناس ، سيسلمونكم إلى مجالسهم ، وتجلدون فى مجامعهم ، وتساقون أمام الولاة والملوك من أجلى ، لتشهدوا لهم وللأمم ، فمتى أسلموكم فلا تهتموا بما تقولون ، فسيوحى إليكم ما تنطقون ، لأنكم لستم المتكلمين بل روح أبيكم الذى يتكلم فيكم .

سيسلم الأخ أخاه إلى الموت ، والأب ولده ، ويقوم الأولاد على والديهم ويقتلونهم ، وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمى ، ولن يخلص إلا من يصبر إلى المنتهى .

ومتى طردوكم من هذه المدينة ، فاهربوا إلى الأخرى ، فإنى الحق أقول لكم لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتى ابن الإنسان .

ليس التلميذ أفضل من المعلم ، ولا العبد أفضل من سيده .. لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الأرض ، ما جئت لألقى سلاما بل سيفا ، فإنى جئت لأفرق بين المرء وأبيه ، والابنة وأمها ، والكنة وحماتها ، وأعداء الإنسان أهل بيته .

من أحب أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى ، ومن أحب ابنا أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى ، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى .

كان يدعوهم أن يحملوا أرواحهم على أكفهم ، فالخارج فى سبيل الله واهب روحه لله ، فمن يتعرض لوعظ الناس ، فليأخذ صليبه الذى سيصلب عليه إذا ثار الناس ضده ، وليتأهب للموت ، ويأخذ معه أكفانه .

من يقبلكم يقبلنى ، ومن يقبلنى يقبل الذى أرسلنى ، من يقبل نبيا باسم نبى فأجر نبى يأخذ ، ومن يقبل بارا باسم بار ، فأجر بار يأخذ .

وانتهت وصيته ، فخرج تلاميذه إلى بنى إسرائيل ، اثنين اثنين ، حتى إذا أخطأ أحدهما هداه الآخر إلى المحجة ، انطلقوا يبشرون بملكوت الله ، يدعون إلى إله واحد ، لا يدعون معه إلها آخر ، فما حدثهم المسيح فى وصية إلا عن الله الواحد ، وعن رسوله الذى أرسله .

---

(١) يلاحظ أن عيسى عليه السلام يستعمل دائما لفظة أب بمعنى رب .

٢٦

« ظهر الفساد فى البر والبحر ، بما كسبت أيدى الناس ، ليذيقهم بعض الذين عملوا لعلهم يرجعون »

(قرآن كريم)

كانت نفسه صافية ، جموع الناس تهرع إليه تصغى إلى مواعظه ، ونظرات الحب والإعجاب ترمقه من هنا وهناك ، فتسقى الأمل ، فينمو ويزدهر . لم يمض على رسالته غير سنة واحدة ، وإذا بدعوته صارت حديث بنى اسرائيل ، حديث القرى والمدن ، حديث الأكواخ والقصور .

إن تلاميذه ينتشرون فى الأقاليم يعظون ويبشرون ، ويعلنون للناس اقتراب ملكوت السموات ، فلو رحبت الجماهير بهم ، وألقوا إليهم السمع والأفئدة ، لرفرفت دعوته على الشعب المختار — انفرجت شفتا المستقبل عن أسنانه ، فحسب كل من يحسن به الظن أن سيشهد مولد بسمة راضية .

واستمر فى رحلته الدائمة ، يعظ ويبشر باقتراب ملكوت السموات حتى لاحت له قباب الهيكل ، فانطلق خافق القلب ، تداعبه آمال ، كان يرجو أن يؤمن به أهل أورشليم ، فتصبح المدينة المقدسة قلب دعوته النابض ، تتدفق منه إلى الولايات بشاراته ومواعظه .

كانت أورشليم معقل الصدوقيين والفريسيين ، وحصن أعضاء السنهدرين الذين يستمدون سلطانهم من السلطة الحاكمة ، فلو أن مواعظه وتعاليمه دكت هذه المعاقل ، لفتحت له القلوب أبوابها .

سار فى طرقات المدينة الخالدة ، فإذا اليهود فى مرح وحبور ، كانوا يحتفلون بعيد البوريم ، وهو عيد ليس من الأعياد الدينية ، بل هو عيد لهو وسخرية ، كانوا فى ذلك العيد يتحررون من القيود ، انطلاق وخلاعه ، ضحكات ومغازلات ، مداعبات وقبلات ، حفلات صاخبة ماجنة ، دعارة سافرة أغلقت دونها الأبواب .

والفريسيون والصدوقيون فى الطرقات يتجسسون على الشعب ، ليطمئنوا إلى أن كل شىء قد غسل جيدا بالماء ، وأن كل شىء طاهر ، وأن شريعة موسى نافذة !

كانت عيونهم المفتوحة ترى خلاعة الإسرائيليات فى ذلك العيد ، وعربدة الشباب الماجن الفارغ ، وكانت آذانهم المرهفة تستقبل ضحكات الإغراء والنداء ، ولكنهم ما كانوا يحركون ساكنا ، كانوا يعتقدون بقدسية ماجاء فى التلمود من أن « خطيئة الزنا مباحة مادامت تقترف فى الخفاء » كان كل ما هو مكتوب مقدسا عندهم ، ولو كان ذلك المكتوب يسخر بالعقول ، ويسفه الأحلام .

قلب وجهه فيما حوله ، فأحس أسى ، فقد ظهر فى الأرض الفساد ، شريعة موسى اندثرت ولم يبق منها إلا حروف وألفاظ ، أزهق روحها الصدوقيون والفريسيون ، وأعضاء السنهدرين الذين يتمسكون بالناموس إذا كان فى التمسك به جلب مغنم ، أما إذا تعارض مع مصلحتهم فما أيسر إيجاد المحللات .

وجاء يوم السبت فارتدت المدينة المقدسة ثوب الوقار ، انطلق الكتبة إلى الهيكل فى طيالسهم الفضفاضة ، والكهنة فى جببهم السود ، والرجال وقد وضعوا على أكتافهم مشامل الصلاة ، وشدوا إلى أذرعهم التفلين ، وهى صناديق صغيرة تضم الشريعة ، وتدلت من أطراف الأثواب الهدب ، والشارات الزرق التى يحتمها الناموس ، انطلقوا مطرقى الرءوس متظاهرين بالخشوع كأنهم ملائكة ، متناسين عيد البوريم الذى كانوا فيه شياطين ، فترك فى عيسى أثرا عميقا ذلك الرياء البغيض .

وقضيت الصلاة ، فذهب عيسى إلى بعض معارفه فى بيت صيدا ، يمضى عندهم يوم السبت فى حديث ، فالسبت عند اليهود يوم مقدس ، يوم راحة ، فمن عمل فيه عملا أو حمل حملا خرق الناموس ، ومن يخرق الناموس يرجم . انطلق وفى الطريق قابل مفلوجا ممددا على سريره ، كان بائسا يائسا ، فحرك بؤسه قلب عيسى ، فدنا منه وقال له فى صوت رحيم .

— قم ، واحمل سريرك .

أحس المفلوج كأن حياة جديدة دبت فيه ، فأطرافه تتحرك : فراح يرفعها ويخفضها وقد انتشر فيه فرح عظيم ، وقعد فى سريره ، ثم قام والدموع تنهمر

من مآقيه ، وحمل سريره وسار منشرحا يكاد يطير من السرور .

لمحه اليهود وهو يحمل سريره فى السبت ، فثار الغضب فى الصدور ، إنه يخرق بذلك العمل والناموس ، فاليهود المتمسكون بحرفية الشريعة لا يلبسون يوم السبت حذاء به مسمار . لأن ذلك المسمار حمل ، فكيف يسير الرجل وعلى كتفه سرير ؟

هرعوا إلى الرجل وأمسكوا به ، وقالوا له فى تعنيف :

— إنه سبت ، لا يحل لك أن تحمل سريرك .

— قال لى الذى أبرأنى : احمل سريرك وامش .

— من هو ؟

— لا أعرفه .

كان عيسى فى رحلة دائمة ، لا يستقر فى مكان ، حتى إن صورته لم تثبت فى الأذهان ، وإن كان اسمه يتردد على كل لسان ، وانصرف الرجل وذهب إلى الهيكل يقدم شكره لله ، ولمح الرجل الذى شفاه ، فدنا منه حتى عرفه ، فلم يكتم أمره ، بل ذهب إلى رؤساء اليهود ، ودلهم عليه ، فالغدر فى الإنسان .

وجاء رسل اليهود وأمسكوه ، وذهبوا به ليحاكموه لكسره السبت المقدس ، واقتيد إلى الكهنة العظام ، فسألوه عن خرقه الناموس فى السبت ، فقال لهم إن الله يعمل كل يوم ، وإن الله رب الأيام ، هو رب السبت أيضا ، وراح ينقض لهم اعتقادهم الخاطىء بأن الله خلق العالم فى ستة أيام واستراح فى يوم السبت ، وقال لهم إن الله خلق العالم فى ستة أيام ولم يمسه تعب ولا لغوب .

وألفى الكهنة يصغون إليه ، فرأى أن يدعوهم إلى الله ، فقال :

— الحق الحق أقول لكم ، إن الذى يسمع كلامى ، ويؤمن بالذى أرسلنى ، فله حياة أبدية .

إن كنت أشهد لنفسى ، فشهادتى ليست حقا ، ولكن يشهد لى آخر ، وأنا أعلم أن شهادته هى الحق ، أرسلتم إلى يحيى فشهد للحق ، وأنا لا أقبل شهادة من إنسان . لى شهادة أعظم من شهادة يحيى ، جئت من الله بالآيات التى تشهد لى ، فالله أرسلنى ، والله نفسه الذى أرسلنى يشهد لى ، لم تسمعوا صوته ولم تروه

ولم تثبت كلمته فيكم ، لأنكم لا تؤمنون بمن أرسله ، فتشوا الكتب ، فهى تشهد لى .

لا تظنوا أنى أشكوكم إلى الآب (١) ، يوجد من يشكوكم وهو موسى ، الذى عليه رجاؤكم ، لو كنتم تصدقون موسى لصدقتمونى ، لأنه بشر بى ، فإن كنتم لا تصدقون كتبه ، فكيف تصدقون كلامى .

وانصرف عيسى والكهنة ينظرون ، يصرفون أسنانهم ، ولا شىء غير الحنق الشديد ، حتى إذا اختفى عن عيونهم هبوا ليمسكوه ويقتلوه ، ولكن كان قد مضى .

وما كانت الدعوة تنتشر بالتسامح والموعظة الحسنة ، فهؤلاء الأقوياء سادرون فى عداوتهم وطغيانهم ، يريدون أن يقتلوه ليطفئوا نور الله بأفواههم ، فلو كانت تظاهره قوة لتحدى طغيانهم وثبت فى أورشليم يدك حصونهم ، فلا يفل القوة إلا القوة ، وما كانت تعاليمه تنهاه عن أن يقاتل الذين يريدون أن يقتلوه ، فقد قال : « لا تظنوا أنى جئت ألقى سلاما على الأرض بل سيفا » ؛ ولكن ما كان يمتلك ذلك السيف الذى يلقيه ، فلم يكن أمامه إلا أن يغادر أورشليم .

وكان هيرودس فى قصره ، يرى رأس يحى فى طشت من فضة أينما توجه بصره فى رقعة السماء ، أو فى صفحة الماء ، أو فى سكون الليل ، أو فى جلبة النهار ؛ كان منظره يطارده فى اليقظة وفى المنام ، فلما رفع إليه أن نبيا جديدا بعثه الله بالآيات ، هبت مخاوفه ، فقال لمن حوله :

— هذا هو يحى الذى ضربت عنقه قد قام من الأموات !

وعاونه تطيره على نمو تلك الوساوس فى نفسه ، فكان يرى يحى قادما ينتقم لدمه الذى أهدر من غير ذنب ، وضاق بمخاوفه ، وأراد أن يضع لها حدا ، فأوحى إلى من حوله رغبته فى أن يرى ذلك الذى اختلف فيه الناس ، وقالوا عنه إنه إيليا ، بل إرميا ، بل نبى من الأنبياء .

وعاد عيسى إلى الجليل ، ووافاه تلاميذه ، بعد أن خرجوا ليحملوا إلى بنى إسرائيل البشارة ، وأقبلوا عليه يسردون أخبارهم ، لم تتدفق الكلمات من

---

(١) آب (غير أب) بمعنى الله .

أفواههم حارة نابضة ، بل كانت هادئة مغلفة بالأسى ، ما كانت أنباؤهم مفرحة ، بل كانت إقرارا بالإخفاق .

كانوا أتقياء أصفياء ، كل مميزاتهم عمق الإيمان ، وما كانوا صالحين لقيادة الناس بالوعظ والإرشاد ، كانت أعباء الرسالة فوق طاقتهم ، فالله يصطفى رسله من أولى العزم من الناس .

أحس مرارة العداوة بعد المحبة ، ومرارة إخفاق تلاميذه بعد النجاح ، هبت العواصف ، وثارت الأنواء ، وتلبدت سماؤه بغيوم ، حجبت شمس الأمل ، وأسدلت أستار الظلام ، فتيقن أن الطريق طويل ، محفوف بالمخاطر والأهوال ، فتدرع بالصبر ، لعله ينجح فى أن يبلغ رسالات الله .

٣٧

« إذ قال الحواريون : يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ، قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » .
(قرآن كريم)

تجاوب صياح الديكة فى كفرناحوم ، ولاح فى الأفق الشرقى ضياء فضى باهت يزاحم عتمة الليل ، وكان فى السماء نجم واحد يتلألأ ، لم يفضحه النور ، وعوت الكلاب فهتكت حجاب السكون ، وترددت أنفاس الفجر ندية عاطرة .

وخرج عيسى إلى البحيرة الهادئة ، كان سطحها مصقولا ، لم يقو النسيم الواهن على تجعيده ، أو مداعبة سعف النخيل ، ولم تكن البحيرة صافية الزرقة ، فقد انتثرت فيها دوائر داكنة ، ودوائر باهتة ، وتجمعت المراكب عند شاطئها ، إرصادا لطلوع النهار .

ووافاه تلاميذه ، فدعاهم إلى الخروج إلى مكان هادىء منعزل ، ليفقههم فى أمر دينهم ، بعيدا عن جلبة الجموع ، فى أحضان الطبيعة الساكنة ، فصعدوا إلى المركب ، وانسلوا فى عماية الصبح ، يشقون بحيرة جنيسارت . وأخذ النور يراق على الأرض والماء ، والطيور ترفرف فى الفضاء ، والصقور السود تنقض كالشهب ، وسرعان ما تعرج إلى السماء ، ودبت فى الميناء الحياة ، وعيسى وحواريوه فى طريقهم إلى سهل البطيحة العارى الموحش ، البادى كناسك خلع زينته فى هذه البقعة الغنية بالجمال .

وتهادى المركب حتى إذا بلغت الشاطىء ، هبط عيسى وتلاميذه ، وذهبوا إلى مرتقى من تل ، وجلسوا يصغون إلى رسول الله ، كان يعلمهم أوامر الدين ونواهيه ، وفيما هم آخذون بأطراف الحديث ، قال أحد التلاميذ :

ــ كتب فى كتاب موسى ، إن العهد صنع بإسحاق [١] .

---

(١) هذا الحوار من إنجيل برنابا .

فقال عيسى فى أسى :

— هذا هو المكتوب ، ولكن موسى لم يكتبه ، بل أحبارنا الذين لا يخافون الله .

الحق أقول لكم : إنكم لو أمعنتم النظر فى كلام جبريل تتحققون من خبث كتبتنا وفقهائنا ، لأن جبريل : قال « يا إبراهيم ، سيعلم كل العالم أن الله يحبك ، ولكن كيف يعلم مقدار محبتك لله ؟ فعليك أن تفعل شيئا تظهر به محبة الله » فقال إبراهيم : « إنى سامع مطيع لأوامر الله » . فقال الله لإبراهيم : « خذ ابنك بكرك إسماعيل[١] واصعد الجبل ، وقدمه ذبيحة لله » . فكيف يكون إسحاق البكر وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين ؟ !

فقال له تلاميذه :

— إن خداع الفقهاء لجلى ، قل لنا أنت الحق ، لأننا نؤمن أنك رسول الله .

فقال عيسى :

— الحق أقول لكم : إن الشيطان يحاول على الدوام تعطيل شريعة الله ، لذلك نجس ، هو وحزبه والمراءون الأشرار ، كل شىء ، المراءون بتعاليمهم الكاذبة والأشرار بحياة الخلاعة والمجون ، حتى ضاع الحق . ويل للمرائين . » .

واكتشف الناس مكان خلوتهم ، فجاءوا يترا كضون ، وغص السهل بالجموع ، فقام عيسى يعظهم :

— السلام عليكم يا بنى إسرائيل ، أنا الذى أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله ، ولا عجب ولا فخر ، أتدرون أين بيتى ؟

— أين بيتك يا روح الله ؟

— بيتى المساجد ، وطيبى الماء ، وإدامى الجوع ، وسراجى القمر بالليل ، وصلاتى فى الشتاء مشارق الشمس . وريحانى بقول الأرض ، ولباسى الصوف ، وشعارى خوف رب العزة ، وجلسائى الزمنى والمساكين ، أصبح وليس لى شىء ، وأمسى وليس لى شىء ، وأنا طيب النفس غير مكترث ، فمن أغنى منى وأربح ؟

لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة فى قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار

---

(١) فى التوراة : خذ ابنك بكرك اسحاق .

يفى إناء ، طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شربا ازداد عطشا ، حتى يقتله . إن الشيطان مع الدنيا ، وفكره مع المال ، وتزينه مع الهوى ، واستمكانه عند الشهوات .

طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته ، وحفظه لسانه ، ووسعه بيته .

طوبى لعين نامت ، ولم تحدث نفسها بالمعصية ، وانتهت إلى غير إثم .

وسرت النشوة فى صدور الناس ، فصاحت امرأة :

— طوبى لحجر حملك ، ولثدى أرضعك .

— طوبى لمن يسمع كلام الله ويعمل به .

واستمر فى موعظته :

— الحق أقول لكم : من طلب الفردوس ، فخبز الشعير ، والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير .

لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله ، فتقشعر قلوبكم ، فإن القلب القاسى بعيد من الله ، ولكن لا تعلمون . ولا تنظروا فى ذنوب العباد كأنكم أرباب ، وانظروا فيها كأنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان : معافى ومبتلى ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية .

اعملوا لله ، ولا تعملوا لبطونكم ، انظروا إلى هذه الطير ، تغدو وتروح ، لا تحرث ولا تحصد ، والله يرزقها ، فإن قلتم : نحن أعظم بطونا من الطير ، فانظروا إلى هذه الجماعات من الوحوش والحمر ، فإنها تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد ، والله يرزقها .

عجبت من ثلاث أناس : طالب الدنيا والموت يطلبه ، وبانى القصور والقبر منزله ، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه ، ابن آدم لا بالكثير تشبع ، ولا بالقليل تقنع ، تجمع مالك لمن لا يحمدك .

إنما أنت عبد بطنك وشهوتك ، اجعلوا كنوزكم فى السماء ، فإن قلب الرجل حيث كنزه .

لا تحدثوا بالحكم غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، والأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اختلف عليكم فيه ، فردوا علمه إلى الله عز وجل .

لاتطرحوا اللؤلؤ إلى الخنازير ، فالخنازير لا تصنع باللؤلؤ شيئا ، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها ، فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ، ومن لا يريدها شر من الخنزير .

أنتم ملح الأرض ، فإذا فسدتم فلا دواء لكم .

ونظر فإذا بعض الكتبة والفريسيين بين الجموع ، فقال :

— يا علماء السوء ، جعلتم الدنيا على رءوسكم ، والآخرة تحت أقدامكم ، قولكم شفاء ، وعملكم داء ، مثلكم مثل شجرة الدفلى ، تعجب من رآها ، وتقتل من أكلها .

يا علماء السوء ، جلستم على أبواب الجنة فلا تدخلونها ، ولا تدعون المساكين يدخلونها ، إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه .

واستمر فى وعظه ، والناس يلقون إليه السمع ويقولون : « هذا هو النبى الآتى إلى الناس » ومالت الشمس للمغيب ، واختفت خلف التلال الغربية ، والجماهير فى مكانها لا تريم ، ونظر الحواريون ، فأعجبتهم كثرة بنى اسرائيل الذين جاءوا يسمعون المسيح ، إنهم يذكرونهم بآبائهم الذين خرجوا مع موسى ، ها هى ذى الصحراء ، وها هى ذى جموعهم ، وهاهو ذا رسول الله ، ولكن أين المن والسلوى ؟ أطعم الله آباءهم من السماء ، فلماذا لا يطعمهم كما أطعم الآباء ، فذهبوا إلى عيسى وقالوا له :

— يا عيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟

فنظر إليهم فى عتاب ، وقال :

— اتقوا الله ، إن كنتم مؤمنين .

قالوا :

— نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين .

فاعتزل وأطرق رأسه ، وأسبل عينيه ، وتضرع إلى الله فى الدعاء والسؤال ، قال عيسى بن مريم :

— اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا ، لأولنا وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين .

قال الله :

— إنى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين .

رأى عيسى فى نزولها نقمة لا رحمة ، فذهب إلى حوارييه ، وأخبرهم بما أوحى الله إليه ، فخافوا وأبوا نزولها ، وقالوا :

— جاع الناس ، فاصرفهم يبتاعوا لهم خبزا ، فليس عندهم ما يأكلون .

وقال أحد تلاميذه :

— أنمضى نبتاع لهم بمئتى دينار خبزا ؟

فقال عيسى :

— كم رغيفا عندكم ؟ اذهبوا وانظروا .

وعاد إليه أندراوس ، وقال له فى قنوط :

— إن صبيا معه خمسة أقراص من شعير ، وسمكتان .

فقال المسيح :

— ليتكىء الناس .

فبان الدهش فى وجوه الحواريين ، ولكنهم لم ينبسوا بكلمة ، وذهبوا إلى الجموع يقسمونهم فرقا فرقا .

واتكئوا بثيابهم الزاهية ، فبدوا كأحواض الزهور المتناثرة فى حديقة ساعة الأصيل ، وتناول أقراص الشعير ورفع عينيه إلى السماء وشكر الله ، وراح يكسر الخبز ، فباركه الله حتى أشبع الجميع .

وأمر تلاميذه أن يركبوا السفينة ويتركوه ، وانسل من الناس واعتزلهم ، كان يشعر براحة كلما أمضى الليل قائما يناجى ربه . وخشع الكون ، ونامت العيون ، إلا عيناه ، كانتا شاخصتين إلى السماء ، وسكت كل لسان إلا لسانه ، كان يقول :

— اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ، ولا أملك نفع ما أرجو ، وأصبح الأمر بيد غيرى ، وأصبحت مرتهنا بعملى ، فلا فقير أفقر منى . اللهم لا تشمت بى عدوى ، ولا تسؤ بى صديقى ، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ، ولا تسلط على من لا يرحمنى .

٢٨

« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه ، بل لله ما فى السموات
والأرض كل له قانتون ، بديع السموات والأرض ، وإذا قضى أمرا
فإنما يقول له كن فيكون »

(قرآن كريم)

وجاء الهزيع الأخير من الليل ، فهبت الرياح وصفرت فى الفضاء ، وعيسى فى خشوعه يدعو الله ، حتى إذا انتهى من مناجاته وصلاته قام ذاهبا إلى البحيرة ، فرأى المراكب فى الغبش تعابثها الرياح ، والأمواج ثائرة مزمجرة ، ترفعها فى غضب وتحطها فى استياء ، ولمح حوارييه يغالبون الموج ، والموج يغلبهم ، فانطلق إليهم يمشى على الماء .

نظر الحواريون فألفوا شبحا يسير على الماء ، عليه كساء ، نصفه إزار ، ونصفه رداء ، فانقبضت قلوبهم خوفا ، وصرخوا فى رعب فقد حسبوه خيالا ، فإذا بصوته العذب يمس آذانهم :

— لا تخافوا .

فنزلت بهم طمأنينة وأمن ، وهدأت مخاوفهم ، وصاح بطرس باندفاعه المعهود .

— يامعلم ، إن كنت أنت هو ، فمرنى أن آتى إليك .

فقال له عيسى :

— تعال .

فنهض بطرس ، ووضع إحدى رجليه على الماء ، ثم ذهب ليضع الأخرى فخفق قلبه واضطرب ، فصاح وهو يهوى :

— غرقت يا نبى الله ، نجنى .

— أرنى يدك يا قصير الإيمان .

ومد يده وانتشله ، وصعدا إلى السفينة ، فالتفت كل من فيها حوله يرمقونه في دهش ، فالتفت إليهم وقال :

— لوكان لابن آدم من اليقين قدر شعيرة لمشى على الماء .

وسكنت الرياح ، واستوت السفينة على الماء ، وانسابت فى طريقها ، والمسيح يحدث تلاميذه وهم يصغون ، لم يكتبوا أقواله ، لأن ملكوت السموات صار قريبا .

وبلغت السفينة الشاطىء وقد ولد فجر يوم جديد ، وهبط عيسى وتلاميذه ، فلما رآه الناس دهشوا ، فتلاميذه أقلعوا وهو على الشاطىء ، وقد تفرقوا وهو فى الفضاء وحده يناجى ربه ، فكيف لحق بحوارييه ؟

وتجمعت الجموع حوله وانطلقوا إلى مجمع كفر ناحوم ، وانتشر خبر إطعامه الناس ، فأقبلت الوفود ، يداعب نفوسهم الجشعة أمل إطعامهم ، وكأنما قرأ عيسى ما تخفى صدورهم ، فقال لهم :

— الحق الحق أقول لكم ، أنتم تطلبوننى لا لأنكم رأيتم آيات ، بل لأنكم أكلتم من الخبز وشبعتم .

وقلب ناظريه فيهم ، ثم رأى أن يرفعهم إلى عالمه الروحى المتحرر من الماديات ، فقال لهم :

— اعملوا لا للطعام البائد ، بل للطعام الباقى ، للحياة الأبدية ، الذى يعطيكم ابن الإنسان . ذلك الطعام الذى باركه الله .

— ماذا نفعل حتى نعمل أعمالا ترضى الله ؟

فقال لهم :

— أن تؤمنوا بمن أرسله .

— أرنا آية حتى نؤمن بك . آباؤنا أكلوا المن فى البرية .

كان عيسى يحاول أن يحلق بهم فى عالم الروح ، وهم لا يريدون إلا أن يهبطوا إلى عالم الماديات ، إلى إشباع البطن ، إلى الطعام البائد .

— لم يعطكم موسى الخبز من السماء ، ولكن الله يعطيكم الخبز الحقيقى من السماء ، لأن خبز الله النازل من السماء يهب حياة خالدة .

لم يفهموا ما يرمى إليه ، حسبوه يعدهم خبزا يشبع بطونهم ، لا خبزا يشبع أرواحهم ، فقالوا له :

ـــ أعطنا هذا الخبز فى كل حين .

فقال لهم فى صوت عميق :

ـــ أنا هو خبز الحياة ، من يقبل إلى فلن يجوع ، ومن يؤمن بى فلن يعطش إلى الأبد . إنى جئت من السماء لا لأعمل مشيئتى ، بل مشيئة الذى أرسلنى .

وتذمر اليهود ، فهو ينال من مقدساتهم دون أن يمنحهم خبزا ، قال لهم إن موسى لم يعطهم خبزا من السماء ، فسكتوا حاسبين أنه سينزل عليهم من السماء الخيرات ، فلما قال إنه هو خبز الحياة ، لم يبق من الغضب مفر ، غضبوا لتسفيهه معتقداتهم ، وتذمروا ، وزاد فى تذمرهم قوله إنه جاء من السماء ، وكأنما أراد أن يوضح لهم كلامه ، فقال لهم :

ـــ الحق الحق أقول لكم ، من يؤمن بى فله حياة أبدية ، أنا هو خبز الحياة .

وزادت ثورتهم ، فما كانوا يريدون ذلك الخبز الواهب الحياة الأبدية ، بل يريدون خبز البطون ، فقال لهم يشرح الخلود :

ـــ آباؤكم أكلوا المن فى البرية وماتوا . أما الخبز النازل من السماء فمن يأكل منه لا يموت .

كانوا فقراء أغفالا ، لا يفهمون الأمثال ، وما من حديث ألقى إلى من لا يفهمه إلا كان له فتنـــة ، لذلك تخاصم الناس ، وارتفعت فى المجمع المشادات والمناظرات ، جلجلت أصوات الكتبة والفريسيين بالاعتراض ، صدقوا أن يحى رسول الله ، فقد كانت تعاليمه سهلة لا تنافى الشريعة ، ولـكنهم لن يصدقوا رسالة من جاء ينقض الناموس ، ويقول إن موسى لم يعطهم المن من السماء ، وإنه خبز الحياة .

وانفض الناس من المجمع ، غاضبين ثائرين ، حتى بعض تلاميذه تركوه ، لم يفهموا قوله إنه جاء من السماء ، ولم يقبلوه ، وخرج عيسى وحوله حواريوه ، وانطلقوا صامتين ، وفطن إلى أنهم يكتمون تذمرهم ، فقال لهم :

— الروح هو الذى يحيا ، أما الجسد فلا يفيد شيئا ، الكلام الذى أكلمكم به هو روح وحياة . ولكن منكم قوم لا يؤمنون .

وساروا لا ينبسون بكلمة ، وضاق عيسى بصمتهم ، فقال لهم :

— لعلكم تريدون أن تمضوا ؟

فقال له بطرس فى فزع :

— يا روح الله إلى من نذهب ؟ عندك كلام الحياة الأبدية ، وقد آمنا وعرفنا أنك رسول الله .

وتبخر القلق المنتشر فى صدورهم ، وشاعت فيهم طمأنينة عجيبة ، وحل بهم إيمان عميق ، فرفعوا وجوههم إلى السماء ، وقالوا :

— ربنا آمنا بما أنزلت ، واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين .

« واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت
إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ،
كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » . (قرآن كريم)

أورشليم غارقة فى المشاحنات الدينية ، مناظرات بين أتباع هلليل وأتباع شماى ، وعداوات بين الصدوقيين الشعبيين وبين الفريسيين الطائفيين ، وبنو إسرائيل يرسفون فى أغلال هؤلاء الكهنة راضين ، فقد ثبتوا فى أذهانهم أن الله اختارهم لحفظ الدين والناموس .

راحوا يشغلون الناس بالمحظورات والمحرمات ، ويقسمونها إلى أقسام ودرجات ، فشماى فى تزمته يمنع فى يوم السبت عيادة المريض ، بل يحرم فيه الدفاع عن النفس ، وقتال الأعداء وإن جاءوا للبلاد محتلين ، والشيوخ يحرمون حمل شىء فيه ، وإن كان إبرة ، أو كان قطعة من قماش زينت ثوب امرأة ولم تثبت فيه ، حتى الأسنان الصناعية كانت حملا لا ينبغى حمله فى السبت المقدس .

أظهروا التقشف رياء للناس ، وتظاهروا بالتقوى وحماية الشريعة ، حتى إن فريق « الجباه الدامية » من الفريسيين ينطلقون فى الطرقات مغمضى العيون ، لكيلا تقع عيونهم على النساء ، فيتخبطون فى سيرهم ، وبالجدران يرتطمون ، فتسيل الدماء على الجباه إرضاء للناموس .

وإمعانا فى النفاق تمسكوا بحرفية الناموس ، مضحين بالروح على مذبح الرياء ، فإذا جاع يهودى يوم السبت ولم يكن عنده ما يأكله ، فخير له أن يموت جوعا من أن يطهى طعامه ويكسر السبت ، لأن كاسر السبت يستحق الرجم ، وأما من مات فى سبيل حفظه فهو شهيد .

وكان بنو إسرائيل يعتقدون أن عداوة الصدوقيين والفريسيين فى سبيل

الشريعة والتلمود ، ولكن ماقامت تلك العداوة إلا للتنافس على الغنائم ، والإثراء من غفلة الناس . كان الصدوقيون يحتكرون بيع الحمام فى الهيكل ، فضاعفوا الناسبات التى يقدم فيها إلى الله تقربا وزلفى ، فهب أعداؤهم الفريسيون يعملون على نقص تلك المناسبات ، ليلحقوا بتجارة أعدائهم البوار ، فكانت المناسبات المقدسة فى أيدى حماة الشريعة منافسة ، يرفعها فريق ويحطها فريق .

يا ويل من يكسر يوم السبت من رجال الدين ! لن يطمئن إيمانهم حتى يرجموه ، ففى كسر السبت إثم كبير ، ولكن ماحرموه على الناس أحلوه لأنفسهم ، وما أيسره من عمل أن يضعوا قاعدة جديدة « لاسبت فى الهيكل » فيوقدوا النار ، ويذبحوا الذبائح ، ويختنوا الأطفال ، ويتناولوا النذور .

وذاع بين أروقة الهيكل أن نبيا قام فى الجليل ، يبشر كيحيى باقتراب ملكوت السماء ، ويشجع الناس على ترك الذبائح ؛ يعلمهم أن الله لاينال من لحوم الأضحيات ولا من دمائها ، وإنه لا يريد من عباده إلا التقوى ، فثار أعضاء السنهدرين ، أولئك الذين ورثوا شيوخ بنى إسرائيل ، ولكن لم يعملوا عملهم ، بل كانوا فى الفساد غارقين .

ساءهم أن يقوم ذلك النبى الجديد يفتح عيون بنى إسرائيل فيزعزع سلطانهم ، ويقوض صرحهم الذى أقاموه على الخداع ، ويفضح تعاليمهم ، ويسد منافذ الخير فى وجوههم ، فلو قر فى أذهان الناس أن الله يقبل التوبة دون ذبيحة ، ودون وساطة الكهان ، لبارت تجارتهم ، وذابت قدسيتهم ، وجف نهر الأموال المتدفق عليهم ، لذلك بعثوا إليه فريسيين متعصبين ، يتجسسون عليه ، حتى إذا كسر الناموس حاكموه وقتلوه ، واستراحوا من خطره الذى أرقهم ، وأطار النوم من العيون .

أرسل أعضاء السنهدرين جواسيس يتربصون به ، وأرسل إليه هيرودس أنتيباس يدعوه أن يأتى إلى قصره ، لا ليستمع إلى تعاليمه ، فما كان مهتما بتلك التعاليم ، ولكن لأن شبح يحيى الذى يطارده فى اليقظة وفى المنام أفزعه ، وجعله يعتقد أنه قام من الأموات يثأر لدمه ، فأراد أن يرى ذلك النبى ، ليستريح من هواجسه التى تضنيه ولكن عيسى لم يستجب لدعوته .

وفى الجليل حشد الناس يصغون ، وأقبل جواسيس أورشليم يسمعون ، فراح يعظ الناس :

— إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ، ويمسح شفتيه ، لئلا يرى الناس أنه صائم ، وإذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله ، وإذا صلى فليرخ ستر بابه ، فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق .

واستمر فى موعظته ، ثم خرج هو وتلاميذه إلى الحقول ، كان اليوم سبتا ، فراح يفقه حوارييه فى الدين ، إنهم لا يفهمون أمثاله ، فيشرح لهم فى خلوته ما استغلق عليهم ، وما دق على أفهامهم ، واستمروا فى درسهم ، وجواسيس أورشليم على البعد يرصدونهم ، يترقبون أن يقيموا عليه الحجة ليجا كوه .

كان عيسى يدعو بنى إسرائيل إلى الله الواحد ، إلى ما دعا إليه إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى والنبيون ، فلو أنه دعا مع الله إلها آخر ، لوجد الفريسيون فى ذلك الشرك ما يبرر قتله ، ولكنه يؤكد فى كل مواعظه أنه جاء بشيرا ، وأنه ماجاء لينقض شريعة موسى ، بل ليكملها ويثبتها ، فكان من العسير أن يتهموه بالمروق والخروج على الدين .

عض الجوع الحواريين ، فهبطوا إلى حقل ، وقطفوا بعض سنابل القمح ، ثم فركوها وذروها وأكلوها ، ورأى الفريسيون المتجسسون أن التلاميذ قد جاءوا أمرا إدا ، فالحصاد والدراس فى السبت من المحرمات ، وما قام به التلاميذ من قطف وفرك إن هو إلا حصاد ودرس ، كسر الناموس فى يوم السبت ، وهى جناية تنطبق لها السماء على الأرض .

هرع الفريسيون إلى عيسى غاضبين ساخطين ، وقالوا :

— فعل تلاميذك ، ما لا يحل فعله فى السبت .

كان عيسى يفهم عقليتهم ، إنهم يخاصمون بالتوراة ، ولا يقبلون إلا حكم التوراة ، فلو أنه حاول أن يبرىء تلاميذه بالمنطق والعقل ، لوضعوا أصابعهم فى آذانهم ، ولأعرضوا عنه ، ولجوا فى اتهاماتهم ، لذلك رأى أن يبرئهم ، بتذكير هؤلاء الغاضبين بحوادث مماثلة وقعت لأنبيائهم ، فقال لهم فى هدوء :

— أما قرأتم مافعله داود حين جاع هو والذين معه ، كيف دخل بيت الله

وأكل خبز التقدمة ، الذى لا يحل له أكله ، ولا للذين معه ، لأنه للكهنة فحسب ؟ أو ما قرأتم فى التوراة أن الكهنة فى السبت يدنسون السبت فى الهيكل ؟ إنى أقول لكم إن ههنا أعظم من الهيكل . لقد جعل السبت للانسان . ولم يجعل الإنسان للسبت ، والله رب الأيام هو رب السبت أيضا .

وصمتوا كأنما ألقمهم حجرا ، وانسلوا يطوون صدورهم على حقدهم ، فإن كان قد هزمهم هذه المرة ، فلن يهزمهم مرة أخرى ، سيتربصو به الدوائر ، وسيسقط فى أيديهم يوما ، ويومذاك لن ينقذه حرصه أو معرفته الناموس ، وابتعدوا يرقبونه ، يحصون حركاته وسكناته .

خفقت شمس الأصيل ، ونفضت على الأفق الغربى نبتا أصفر ، وراحت تلم أشعتها لتودع الدنيا ، فانطلق عيسى وحواريوه إلى المجمع ، ودلفوا إليه ، فإذا الكتبة والفريسيون فى الصفوف الأولى ، وما تقدم عيسى خطوات حتى أسرع إليه بناء به حادث ، وتوسل إليه أن يشفيه ، فقال له :

— اذهب وقم فى وسط المجمع .

فذهب الرجل والفريسيون والكهنة يرمقون عيسى فى اهتمام ، يترقبون أن يشفى الرجل ، فيكون ذلك حجة على تدنيس السبت ، فالتفت عيسى إلى الفريسيين الشامخين غرورا وقال لهم :

— أيحل فى السبت فعل الخير أم فعل الشر ؟ تخليص نفس أم قتلها ؟ لم ينبسوا بكلمة ، بل ظلوا ينظرون ، فما جاءوا ليناقشوه ويناظروه ، بل جاءوا يترقبون خطأه ، ليقبضوا عليه ويحملوه إلى السنهدرين .

فرماهم بنظرة حادة وقال لهم :

— إذا كان لأحدكم خروف وسقط فى حفرة فى يوم السبت ، ألا ينتشله ؟

أغرقوا فى الصمت ، بقيت عيونهم مثبتة به ، فنبت فى صدره غيظ ، ولكنه كظم ما به وقال :

— انقاذ إنسان أفضل من إنقاذ خروف ؟ إذا يحل فعل الخير فى السبوت .

وقال للبناء فى رفق :

— مد يدك .

فراح الرجل يمد يده ، فإذا اليد اليابسة تتحرك ، وعادت سيرتها الأولى ، وتحرك الغيظ فى صدر أعدائه ، فمالت رءوسهم ، وطفقوا يتشاورون ، حتى إذا اتفقوا على قتله وهموا به ، ألفوه قد غادر المجمع ، واختفى عن العيون .

٣٠

« من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه »
(قرآن كريم)

مواعظ تتدفق من قلب مشتعل بحب الإنسانية ، ملتهب بالعشق الإلهى ، وأفئدة مؤمنة ، تفتحت لغيث الرحمة والعفو والصدق والإحسان ، وقلوب قاسية ملئت كبرياء وحقدا . كان عيسى يدعو بنى إسرائيل إلى الصلاح ، ويشرح الشريعة الموسوية ، ويعيد الكلم إلى موضعه ، ويبث فيها روحا جديدا ، والمؤمنون ينهلون من عذب تعاليمه ، والأعداء من الكتبة والفريسيين فى جبهم السود ، قلوبهم غلف ، يترصدون له أن يخرق الناموس ، ليقودوه إلى حتفه .

كان يسلط نور تعاليمه على التقاليد البالية ، فيفضح رياء من نصبوا أنفسهم حراسا على الدين ، أخذ يمجد الروح ، ويعلم الملأ أن الروح يحيا ، أما الجسد فيبلى ، ولا يفيد شيئا ، والكهنة يقدسون القبور ، ويبالغون فى تزيينها ، ويعظمون الموتى . كان لا يخشى فى الله لومة لائم ، وهم يتملقون العامة جلبا للثناء والمديح ، يخزهم وخزا قاسيا ، ولكنهم ما كانوا قادرين على إقامة الحجة عليه .

الفريسيون يهتمون بالنظافة ، فقبل الأكل يغسلون أيديهم ، وإذا عادوا من السوق غسلوا أيديهم ، وإذا تنجست الأوانى المعدنية غسلوها بحسب ما تقضى به القواعد الموضوعة ، وإذا كانت الآنية النجسة من الفخار حطموها . ومبالغة فى الطهارة غسلوا «شمعدانات» الذهب ، حتى إن أعداءهم الصدوقيين قالوا عنهم ساخرين : سيغسلون الشمس عما قليل .

ودعا الفريسيون عيسى وتلاميذه إلى وليمة ، ليتناظروا فى أمر الدين ، فراح الفريسيون يغسلون أيديهم قبل الدخول ، أما تلاميذه فقد دخلوا وجلسوا إلى الطعام دون أن يغسلوا أيديهم ، فأسرع الفريسيون إلى عيسى ، وقالوا له فى عجرفة وكبرياء :

— لماذا يتعدى تلاميذك سنن الشيوخ ؟ لم يغسلوا أيديهم قبل الأكل .

فرمق المتمسكين بالتفاهات فى زراية وقال :

— وأنتم لماذا تتعدون وصية الله ، وتتمسكون بسننكم ؟

فاتسعت عيونهم ، كأنهم يسألونه أن يفسر دعواه ، فقال لهم :

— تقولون لأبناء الفقراء : انذروا للهيكل نذورا ، فينذرون القليل الذى يجب أن ينفقوه فى عول آبائهم ، فإذا احتاج الآباء إلى هذه النقود ، صرخ الأبناء منذرين : هذه النقود نذر لله ، فيصيب الآباء ضيق . إن الله يقول : أكرم أباك وأمك ، ولكنكم بسننكم حرمتم الآباء بر الأبناء .

أيها الكذابون ، أيستعمل الله هذه النقود ؟ إن الله هو الغنى الوهاب ، إنه يقول على لسان داود : « لا ينال الله لحوم الثيران ولا دماؤها .

أيها المراءون ، عطلتم كلام الله وأحييتم سننكم ، لقد تنبأ أشعيا عنكم . قال : « هذا الشعب يسبح لى بشفتيه ، وقلوبهم غلف ، يعبدوننى بالباطل ، فتعاليمهم وصايا الناس » .

التزموا الصمت ، فما ناقشهم إلا أفحمهم ، إنه يقوض سننهم فوق رءوسهم ، وما يملكون إلا الصمت ، والصمت البليغ ، وتضاءلوا كتلاميذ أمام عالم كبير ، وراح يعلمهم :

— اسمعوا وافهموا : ما يدخل فم الإنسان لا ينجسه ، بل ينجسه ما يخرج من الفم .

فهم الفريسيون ما يرمى إليه ، كانوا أهل ثقافة ، وما قتلهم إلا غرورهم ، فرحوا بما عندهم من علم ، فأعرضوا عن الآيات ، أما حواريوه فلم يفهموا شيئا ، كانت عقولهم الضعيفة لا تتفتح للحكمة ، فانتظروا حتى إذا خلوا به سألوه ماذا يريد بهذا مثلا .

أحس الفريسيون مرارة الهزيمة ، فتفرقوا . والحواريون يرمقون عيسى فى غبطة ، كان نصره عليهم مبينا ، وتقدم إليه تلاميذه وقالوا فى مرح :

— لما سمع الفريسيون قولك نفروا .

فقال عيسى فى هدوء :

— كل غرس لم يغرسه الله يقلع . دعوهم . هم عميان يقودون عميانا ، وكل أعمى يقود أعمى ففى الهاوية يتردى .

وانطلقوا ، فسأله بطرس :

— فسر لنا ذلك المثل .

فرمقهم فى عطف ، كان يحبهم ، يحب إخلاصهم ، يحب إيمانهم ، وإن كانوا لا يفقهون أمثاله . قال :

— ألا تفهمون بعد أن كل ما يدخل الفم يمضى إلى الجوف ، ثم إلى الخارج ، وأما ما يخرج من الفم فيصــدر من القلب ، وذاك ينجس النفس ، فمن القلب تخرج أفــكار خبيثة : قتل ، زنا ، فسق ، سرقة ، شهادة زور ، كفر . هذه هى التى تنجس الإنسان ، وأما الأكل بأيد لم تغسل فلا تنجس الإنسان .

وسار عيسى فى رحلته الدائمة ، انطلق إلى نواحى صور وصيدا ، وهو يحادث حوارييه ، وإذا بامرأة كنعانية تركض وراءه قائلة :

— ارحمنى يا سيدى ، يابن داود ، ابنتى تتعذب كثيرا .

فلم يلتفت إليهــا ، ما كان ذلك عن قسوة ، بل أراد أن يثبت فى أذهان تلاميذه الذين لا يمتازون بالفطنة ، حقيقة طالما رددها عليهم ، واستمرت المرأة الـكنعانية فى توسلاتها :

— ارحمنى يا سيدى .

وصم أذنيه عن توسلاتها ، لأنها لم تـكن إسرائيلية ، حتى إن تلاميذه عجبوا من أمره ، فما كان فظا غليظ القلب ، وظلت المرأة فى صياحها :

— ارحمنى يا سيدى ، ارحمنى يابن داود ، ابنتى تتعذب .

وضاق تلاميذه بها ، فقالوا له :

— اصرفها لأنها تصيح وراءنا .

فقال لهم :

— لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة .

هذه هى الحقيقة التى يريد أن تقر فى أذهان حوارييه ، قال لهم قبل أن يرسلهم مبشرين : إلى طريق أمم لا تمضوا ، إلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل بالحرى اذهبوا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة[١] ، وها هو ذا يعيد عليهم قوله مؤكدا أن الله بعثه رسولا إلى بنى إسرائيل .

فسجدت المرأة عند أقدامه وقالت :

— سيدى أغثنى .

ولم تنهض المرأة إلا بعد أن اطمأنت إلى أنه قد شفى ابنتها بإذن الله[٢] .

(١) إن كل الآيات المضادة لهذه الآيات إما محرفة أو زائدة ، ويؤيد ذلك ماجاء فى « قاموس الكتاب المقدس » للدكتور جورج بوست الأمريكى ، فقد ذكر أن خاتمة الإصحاح السادس عشر (مرقص ١٦ : ٩ — ٢٠) لم تكن فى نسخ إنجيل مرقص القديمة ، بل أضيفت إليه فيما بعد .

(٢) جاء فى إنجيل متى : فأتت وسجدت له قائلة : ياسيدى أعنى : فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب ، فقالت : نعم ياسيدى ، والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها . حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة عظيم إيمانك . ليكن لك كما تريدين ؟ فشفيت ابنتها من تلك اللحظة .

وأربأ أن يكون هذا قد صدر عن الرسول الكريم ، فما يصدر هذا القول من إنسان ذى قلب كبير ، وإذا كان المسيح قد قال ذلك كان وصمة لكل من اتبعوه من غير بنى إسرائيل .

« وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ، فإذا جاء أمر الله
قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون » . (قرآن كريم)

الليل والشجر ساجدان ، والكون خاشع تدثره قدسية وجلال ، وعيسى شاخص إلى السماء يناجى الله ، فالغيوم تتكاثف حول رسالته ، والعداوات المريرة أطلت بوجهها البغيض ، فخلا بربه يستمد منه عونه وتأييده . .

كان يدعو الناس بالحسنى والموعظة الحسنة ، كان رقيقا شاعرا ، يبغى أن يجلب للبشر سعادة ، رءوفا رحيما ، يتحاشى إيلام الناس ، ولكن أعداءه أعلنوا الحرب عليه ، وأشعلوا نار العداوة والبغضاء ، فلم يعد للسلم مكان ، سيقابل العداوة بالعداوة ، وإذا أمده الله بسلطان ، فسيقابل القوة بالقوة حتى يضع الحق ، فما كانت الشرائع الصالحة تغرس فى الأرض بأغصان الزيتون ، ومعسول الكلام .

للباطل جنوده وأعوانه ، وهم قساة غلاظ القلوب ، فجرة لا يرعون حرمة ، ولا يقفون فى عداوتهم عند حد ، فإذا لم يحشد الحق أعوانه ، ويشهرها على الباطل حربا لا هوادة فيها ، فسيزهق الحق ، ويمكن للباطل فى الأرض ، ويسود العالم الفساد .

وانبثق الفجر ، وعيسى فى خشوعه فأحس كأن قوة أريقت فى جوفه ، فتيقن أن الله رب الحب ، هو رب القوة أيضا ، أمده بسلطان ليصرخ فى وجوه أعدائه بالحق دون أن يخشاهم ، ذلك السلطان المهيب الذى أمد به من أرسلهم من قبله . وقام عيسى فأسرع حواريوه إليه ، وراحوا يصلون ، ولما قضيت الصلاة ، انطلقوا يستقبلون عهدا جديدا من الجلاد والكفاح والاضطهاد ، فى سبيل التبشير باقتراب ملكوت السموات .

وجاءت الجموع زمرا تعيره السمع ، وجاء جواسيس أورشليم مثقلين بالرياء ، يترقبون من الناس الاحترام والتوقير ، وقد ملأت قلوبهم الإحن ، يصغون إليه ، ليقيموا عليه الحجة ، وما كانوا مصدقيه ، ولو جاءهم بملائكة من السماء يشهدون له .

وقام الرسول يعلن الملأ بالحقيقة الجديدة :

— من ليس معى فهو على .

رمقه الناس فى دهش ، كانت فى عينيه الصافيتين قوة ، وبدا الحمل فى إهاب أسد ، عودهم ناعم القول ، والمواساة والعطف ، والتسامح وحب العدو ، وإذا به اليوم يعلنها مدوية : أنه لم يعد ذلك المتشبث بأهداب السلام لينهأ بالسلامة ، بل رجل الحرب الذى يبرز للنزال ، فإما انتصر فى سبيل مبدئه أو هلك دونه .

وران على الجميع هدوء ، كانوا يقبلون إليه يرشفون من نبع حكمته ما يملؤهم نشوة ، ثم يدعونه ويعودون إلى دورهم آمنين ، وما كان فى ذلك نصب لهم ، بل كان فيه لذة ، أما أن يدعوهم إلى الانضمام إليه على السلطة ورجال الدين ، فدون ذلك مخاطر وأهوال ، وما كانوا يركبون الصعاب طائعين ، فقال لهم :

— اجعلوا الشجرة طيبة وثمرها طيبا ، أو اجعلوا الشجرة خبيثة ، وثمرها خبيثا ، لأن من الثمرة تعرف الشجرة ، يا أولاد الأفاعى ، كيف تتكلمون بالصالحات وأنتم فجرة ، فمن فضلة القلب يتكلم الفم ، الصالح يخرج الصالحات من الكنز الصالح فى القلب ، والطالح يخرج الشر من الكنز الخبيث .

أقول لكم : إن كل كلمة خبيثة ينطق بها المرء يحاسب عليها يوم الدين .

انفعلت الجموع ، كأنما لا تنفعل إلا بالقوارع . إن هذا الصوت يذكرهم بصوت حبيب ، بصوت يحيى الشهيد ، « يا أولاد الأفاعى » كانت لها فى نفوسهم أثر السحر ، إنها الوصف الذى ألبسه يحيى للفريسيين الوافدين إليه من السنهدرين ، وهو نفس الزجر الذى يوجهه عيسى إلى جواسيس أورشليم . وكادت الجماهير تتجاوب لدعوته ، وكادوا جميعا يعلنون فى ثورة حماستهم ، أنهم معه على أعدائه وأعداء الدين ، وفطن الفريسيون إلى ما يعتمل فى نفوس الجموع ، فأرادوا أن يريقوا على الجذوة المتأججة فى الصدور ماء باردا ، فقالوا :

— نريد أن نرى منك آية .

خبت النار المندلعة فى الأجواف ، فما يطلبه الفريسيون حق ، جاء أنبياء بنى إسرائيل بالآيات ، وقد سمعوا أنه شفى المرضى ، وأبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى ، ولكنهم لم يروا بعيونهم شيئا ، فلو شاء أن يتبعوه ، وأن يكونوا معه لا عليه ، فليأتهم بآية من ربهم ليصدقوه وتطمئن قلوبهم .

واتسعت العيون واشرأبت الأعناق ، وكتمت الأنفاس ، وساد المكان ترقب وانتظار ، كأنما الآيات شعوذة مشعوذين ، أو سحر ساحرين ، وما دار بخلدهم أنه ما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله .

ورنا عيسى إلى الجموع الغارقة فى الجهالة رنوة غضب ، ثم قال :

— جيل شرير فاسق ، يطلب آية ولا تعطى له .

وارتفعت أصوات الحنق والغضب ، وراح الفريسيون يزكون ثورة الجماهير ، ويفضون الناس من حوله ، فانجابت الجموع كما ينجاب السحاب ، وبقى عيسى وحيدا وحوله حواريوه وفى القلب أسى ، وفى الوجوه أمارات الحزن العميق ؛ واقترب فريسى من عيسى كالأفعى ، وأظهر له الود ، ودعاه إلى الغداء ، ولو كان مخلصا لدعى حوارييه معه ، ولكنه دعاه وحده .

ودلف الرسول إلى بيت الفريسى ، فألفى نفسه بين أناس يتطلعون إليه فى تحد ، فى عيونهم شر ، وفى جلوسهم كبر ، ووجوههم تنضح بخبث مافى القلوب ، فلم يضطرب ، ولم يراء مثلهم ، فلم يذهب ليغسل يديه ، بل انطلق إلى المائدة وجلس .

ارتسمت بسمات الزراية على الشفاه ، وقام إليه أحدهم وقال :

— لم تغسل يديك قبل الأكل .

فأدار عيسى عينيه فى المتكئين إلى المائدة وقال :

— إنكم أيها الفريسيون تطهرون القصعة وخارج الكأس ، أما بواطنكم فمملوءة شرورا وخبثا ، يا أغبياء من صنع الظاهر صنع الباطن ، تصدقوا بما عندكم يتطهر كل شىء ، ولكن ويل لكم أيها الفريسيون ، يامن تعشرون النعنع والسذاب وكل البقول ، وتتجاوزون عن محبة الله والحق ، كان عليكم أن تعملوا هذه ولا تتركوا محبة الله والحق .

ويل لكم أيها الفريسيون ، يامن تحبون الصدارة فى المجامع ، والتحيات فى الأسواق .

ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لأنكم مثل قبور مختفية . من يمشون عليها لا يعلمون .

فظهر الغضب فى وجه واحد من الناموسيين ، وقال قاطعا نهر توبيخاته المتدفق :

— إنك تشتمنا نحن أيضا بهذا القول .

لم يقف هذا الاعتراض فى وجه النهر ، بل حوله بكل قوته وكل اندفاعه ، فراح عيسى يكيل للناموسيين المتزمتين التهم :

— وويل لكم أيها الناموسيون ، تضعون على عوائق الناس أحمالا لا يطاق حملها ، وأنتم لا تمسونها بإصبعكم . ويل لكم لأنكم تبنون قبور الأنبياء وآباؤكم قتلوهم ، كأنما تشهدون وترضون بأعمال آبائكم ، كذلك قالت حكمة الله : إنى أرسل إليهم أنبياء ورسلا ، ففريق يقتلون وفريق يكذبون . ليقع على هذا الجيل دم جميع الأنبياء المهرق منذ الخليقة ، من دم هابيل إلى دم زكريا[١] .

ويل لكم أيها الناموسيون ، أخذتم مفتاح المعرفة ، فما دخلتم ، وما تركتم غيركم يدخلون .

وفاض مرجل غضب الفريسيين والكتبة ، فقاموا ليبطشوا به ، وإذا بأصوات تلاميذه وأنصاره تصك آذانهم ، فخافوا أن يمسوه بسوء خشية ثورة المؤمنين ، وغادرهم وخرج ، وهم يصرفون أنيابهم فى حنق شديد .

خشى الحواريون أن يكون الفريسى قد دعا الرسول وحده ، لينفرد به أعداؤه ، وينالوه بمكروه ، فجمعوا أنصاره وعند باب البيت وقفوا ينتظرون ، فلما انقضى بعض الوقت ولم يعد ، تناجوا وارتفعت أصواتهم حتى وصلت إلى مسامع المتآمرين ، فملأت قلوبهم رعبا ، فخرج الرسول مرفوع الجبين .

نظر عيسى إلى الجموع ، ولا تزال جذوة الغضب مندلعة فى صدره ، فقال :

— تحرزوا من الرياء ، خمير الفريسيين . ما تبطن يظهر ، وما تخف يعلن ،

(١) يلاحظ أن زكريا لم يقتل ، وقيل إنه يقصد زكريا آخر غير النبى ولو كان ما قيل صحيحا لوجب أن يقول « إلى دم يحيى » فيحيى آخر من قتل والظاهر أن هذه عبارة زائدة .

لذلك كل ما قلتموه فى الظلمة يسمع فى النور ، وما كلتم به الأذن فى المخادع ، ينادى به على السطوح .

واستمر فى موعظته حتى قاطعه أحد السامعين :

— قل لأخى يقاسمنى الميراث .

لم يكن عيسى مأمورا بتأسيس شريعة جديدة ، ولم يأت بدين ناسخ لدين موسى ، ما جاء إلا ليبشر بقرب ملكوت الله ، ذلك الملكوت الذى يوحد الدين والدولة معا ، ذلك الملكوت الذى سينظم الميراث ، لذلك قال للرجل :

— يا إنسان ، من أقامنى عليكما قاضيا أو مقسما .

ما جاء عيسى لينظم ويشرع ، بل جاء بالإنجيل ، بالبشارة بالأمل ؛ بالسعادة الحقيقة ؛ بالأمر العظيم .

٣٢

« إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ، وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل »
(قرآن كريم)

تغشت السماء بسحب دكناء ، وخيم على الكون ظلام ، وانسابت السفينة فى بحر لجى ، ظلمات فوقها ظلمات ، وجلس عيسى وحواريوه مطرقين ، إنهم قليل مستضعفون فى الأرض ، يخافون أن يتخطفهم الناس ، لقد اضطهدهم الفريسيون فى كفر ناحوم ، ولاحقوهم بالعداوة والبغضاء حتى اضطروهم إلى الفرار إلى الوثنيين ، إلى نواحى صور وصيدون .

عاشوا بين عبدة الأوثان آمنين ، كانوا أرأف بهم من شيوخهم وأحبارهم ورهبانهم ، ومن أقاموا أنفسهم حراسا على تراث موسى التليد ، وما دار بخلدهم أن ذلك الذى يحاربونه أحق بموسى منهم ، فهو رسول وموسى رسول .

لم يركن عيسى إلى الراحة والدعة ، فقد اصطفاه الله ليبلغ رسالته ، ولم يختره ليفر من الاضطهاد إلى الأمن والهدوء ، فلو أن الله أرسله إلى الأمم لبقى بين هؤلاء الوثنيين يهديهم إلى نور التوحيد ، ولكن الله أرسله إلى بنى إسرائيل ، فعاد إلى السفينة بعد أن التقط أنفاسه ، وانطلق إلى الجليل ، إلى أعدائه الفريسيين لينازلهم ، فإما قهرهم وإما قهروه .

لم يذهب إلى كفر ناحوم ، فأعداؤه هناك يترقبون ، فاتجه إلى مجدلة ، إلى بلدة مريم ، ليعظ الناس ويجد فى بيتها بعض الراحة التى فقدها بعد أن هجر بيت أمه فى الناصرة ، يجوب البلاد اليهودية يبشر باقتراب الملكوت .

واقتربت السفينة من الشاطىء ، وما مست أرجلهم الأرض حتى وجدوا أعداءهم ينتظرونهم ، كانوا يتجسسون عليهم ، ويعدون حركاتهم ، فعرفوا وجهتهم ، وسبقوهم ليقابلوهم فى تحديهم المقيت .

ولم يكن الفريسيون وحدهم ، بل كان معهم أعداؤهم الصدوقيون ، تناسوا ما بينهم من إحن ، وطووا فى أكبادهم مرارة النفوس ، واتحدوا لمكافحة العدو المشترك حتى إذا فرغوا منه ، عادوا سيرتهم الأولى من التنافر والتشاحن ، وما كانت تلك العداوة التقليدية تزعزع سلطانهم ، أو تزلزل الأرض تحت أقدامهم .

لم يعادوه لأنه جاءهم بدين ينقض دينهم ، أو لأنه أنكر أنبياءهم ، أو دعاهم إلى عبادة إله آخر غير إلههم ، فما فعل شيئا من ذلك ، فهو يحفظ الشريعة ، ويتمثل بأقوالها ، ويدعو إلى مادعا إليه الرسل من قبله ، ويحاول إصلاح بنى إسرائيل ، وتقرير أن الشريعة ليست حروفا بل روح . ولكنهم عادوه واتفقت كلمتهم عليه ، لأنه جاء يعلم الناس أن يتقربوا إلى الله دون وساطة ، ولو اتبع الناس تعاليمه لاندثرت مكانتهم ، ودرست سطوتهم ، وخلعوا المسوح التى تمكنهم من أكل أموال الأرامل واليتامى ، كانوا فى حربهم له يذودون عن كيانهم وعما هم فيه من رغد ونعيم .

واجتمع الناس إليه ، وهم بأن يعظهم ، فقال له الفريسيون :

— لن نصدقك حتى تأتينا بآية من السماء .

فطلبت الجموع منه أن يأتيهم بآية ، فران الحزن عليه ، ولاح الأسى فى وجهه وقال فى مرارة وهو يتنهد :

— لماذا يطلب هذا الجيل آية ، الحق أقول لكم لن يعطى هذا الجيل آية .

كانوا يريدون أن يروا برق البروق وقصف الرعود ، أو نزول مائدة من السماء ، أو يرزقهم المن والسلوى ، فالتفت إلى الغرب ، فرأى آية الله ؛ الشمس غارقة فى بحر الدماء ، فأشار إلى تلك الآية ، ولكنهم أعرضوا عنه ، ومنحوه ظهورهم ، فعاد إلى السفينة مطرق الرأس ، يحز فى نفسه أعراض الناس عن دعوته .

وأقلعت السفينة والشمس تنحدر ، وتصبغ الماء بلون الأرجوان ، وراحت تغوص فى الماء حتى أطبق عليها اليم ، وساد الظلام والسكون ولم يعد يسمع إلا أصوات المجاديف ، وزفيف النسيم .

وفى غبش الليل لاح لعينيه كفر ناحوم ، مدينة الذكريات الحبيبة ، ذكريات شروق دعوته ، ذلك الشروق الرائع الذى كان يغرى بالتفاؤل ، والإغراق فى التفاؤل . ولكن ما أقصر ذلك الشروق ، تجمعت سحب المقاومة ،

لتحجب بينه وبين أنصاره ومريديه . إن قلبه يخفق لكفر ناحوم ، وروحه تهفو إلى شاطئها ، وكل خالجة فيه تحن إلى سفح جبالها ، تلك البقعة المباركة التى طالما وعظ فيها الملأ من بنى إسرائيل .

إنه يحس فى تلك اللحظة إحساسات الواقف على أطلال مدينة كانت عليه عزيزة ، فالأسى ينداح فى جوفه ، حتى لتكاد دموع الحزن تطفر من مآقيه ، لو خلى أعداؤه بينه وبين ما يريد لذهب إلى مجمع كفر ناحوم يعظ الجموع ، ولكن الفريسيين والصدوقيين هناك ، بعداواتهم يتربصون .

وبلغ الظلام الشاطىء الجميل ، واستمرت السفينة فى شرود حتى إذا بلغت بيت صيدا ألقت مراسيها ، وهبط عيسى وحواريوه ، وانطلقوا فى المدينة التى بدت كأنما استعارت من رومية مبانيها ، ولبثوا فيها يوما أو بعض يوم ، ثم انطلقوا حتى بلغوا أرباض قيصرية . وفى الطريق التفت إلى أصحابه وقال :

— أيعرف الناس من أنا ؟

أحس حواريوه مرارة ، أيقولون له إن الذين يعظهم فى غدوه ورواحه لا يعرفونه ، وصمتوا قليلا ، وكان الصمت أمر من الكلام ، فقالوا :

— يقولون إنك يحيى ، وآخرون يقولون إنك إيليا ، وآخرون يقولون إنك نبى من الأنبياء .

يا للمرارة ، يذوب من أجل الناس وهم لا يعرفونه ، وقال لحوارييه .

— وأنتم ماتقولون ؟

فقال بطرس فى اندفاعه :

— أنت المسيح .

اتحد الفريسيون والكتبة والصدوقيون لمحاربته ، ولجوا فى العداوة والبغضاء ، وراحوا يطاردونه فى كل مدينة وهم يحسبونه نبيا من أنبياء بنى إسرائيل ، أو دعيا من أدعيائهم ، فإذا بلغهم أن أنصاره يقولون إنه المسيح أجج ذلك نار عداوتهم ، ونفخ فى جمرة بغضائهم ، وزاد فى مقاومتهم ، وما كان باحثا عن إضرام العداوات ، بل كان يرجو أن يبلغ رسالته ، ويحالفه التوفيق ، فقال لتلاميذه محذرا :

— لا تذكروا ذلك لأحد .

وطوى الحواريون صدورهم على سره .

٣٣

« واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة ،
قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ، أتهلكنا بما فعل
السفهاء منا ، إن هى إلا فتنتك ، تضل بها من تشاء ، وتهدى من
تشاء ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت خير الغافرين »
(قرآن كريم)

غسق الليل بعد ذهاب النهار ، ونفضت الرمال عنها حرارة الشمس ، وأراق القمر أشعته ، فانداحت حتى وسعت الأرض والماء والجبال ، وألبست الكون ثوبا رائعا من الحسن .

وشمخ جبل حرمون فى كبرياء ، فما كانت يتطاول إليه ما حوله من تلال وجبال ، وقد أكرمه الله ، فتوجه بتاج متألق ناصع من جليد ، كان يعتز به ، لا يخلعه فى صيف أو شتاء .

كانت سفوحه مرتعا من مراتع الحسن ، تنمو فيها الأزهار والنوار ، وتترنم فيها الطيور بعذب الألحان ، وتجرى فيها جداول رقراقة صافية هاطلة من القمة الخيرة الجوادة بماء الحياة ، كان حرمون وحى الخيال ، فألهم الشعراء الغناء والتسبيح بالجمال .

وانطلق عيسى وبطرس ويعقوب ويوحنا فى سكون الليل ، فبدا لهم جبل حرمون فى فوف من ضوء القمر رائعا يهز الشاعر ، وراحوا يصعدون فيه ، يخترقون السفوح الخضر ، وزرعا مختلفاً ألوانه ، ويملئون صدورهم بأنفاس عطرها أريج الزهر ، ورطبها برد الثلج ، فانتشت أرواحهم ، وأثرت تلك الروعة فيهم ، فتفتحت نفوسهم ، واستعارت القلوب من الرقة السائدةُ عذوبة وسلاما .

انطلقوا وكأنما هدأ كل شىء ، وأصاخ السمع لوقع أقدامهم ، فهم خارجون إلى حرمون لميقات ربهم ، كما خرج موسى وقومه إلى طور سيناء ليروا الله وتطمئن قلوبهم .

انطلقوا حتى إذا بلغوا مرتقى عاليا ، وقف بطرس ويعقوب ويوحنا ، واستمر عيسى فى رقيه ، يبدو لعيونهم كشبح أسود انطبع على صفحة الجليد الناصعة ، ووقف وراح يدعو الله قانتا آناء الليل ساجدا وقائما ، يرجو رحمة ربه ، ودثر السكون قدسية ، وبدا كأنما الأرض تتأهب لاستقبال وحى السماء ، صفاء وخشوع وطمأنينة وسلام .

ونامت عيون بطرس ويعقوب ويوحنا ، كان ذلك الجمال يغرى بالنوم ، ولذيذ الأحلام ، نهكتهم الرحلة الدائمة . فما انتهوا من صلاتهم ، ومست جنوبهم العشب الأخضر الحنون ، حتى راحوا فى سبات .

نامت كل العيون إلا عين عيسى ، كانتا معلقتين بالسماء ، يستشف الحكمة ، ويستمد القوة ، ويستلهم وحى الله ، وصفت روحه حتى كانت أصفى من الجليد ، وهدأت نفســه حتى كانت أهدأ من السكون الهاجع ، وانسكبت فيه طمأنينة عجيبة ، فقد كان فى تلك اللحظة أقرب ما يكون إلى الله .

وسقط من السماء ضوء باهر ، وغرق الجبل فى غمرته ، وكان سناه قويا حتى إن النوم هبوا من نومهم ، وفتحوا عيونهم ، فألفوا عيسى يتألق فى الضوء ، فرمقوه فى دهش ، وإذا بالضوء يزداد فيغشى عيونهم ، وإذا بأرواحهم لا تطيق ذلك السنا ، فأخذتهم رجفة ، وخروا على وجوههم صعقين ، فقد أرسل الله على عبده سكينة مضيئة بهرتهم ، وكأنما سلبت منهم الروح .

غشى عليهم ، وظلوا غائبين عن الدنيا حتى هبط إليهم عيسى ، وراح يطمئنهم ، ويسكن خوفهم ، فلما أفرخ روعهم ، قاموا يرنون إليه فى إجلال ، رأوا ما كانوا يقرءون عنه فى التوراة ، رأوا السكينة التى أرسلت إلى موسى ، وخروا ، كما خر قوم موسى ، صعقين .

وهبطوا من الجبل صامتين ، كانت حادثة الليلة عجيبة ، استبدت بجوارحهم وأفكارهم ، وفيما هم منطلقون ، قال لهم عيسى :

— لا تذكروا لأحد شيئا مما رأيتم .

كان يخشى أن يقع الحسد فى قلوب حوارييه ، فتدب بينهم العداوة والشقاق ، وتنزل صدورهم الإحن ، فتزداد متاعبه . يريد أن يأتيه حواريوه بصدر سليم ، وكفاه عداوة الفريسيين والصدوقيين والناموسيين .

تحقق الليلة لهم أنه المسيح ، النبي الذى سيرسله الله خاتما لأنبياء بنى اسرائيل لقد قالت البشارات إنه نبى عظيم ، وثبتت الليلة عظمته ، أكرمه الله بما أكرم به موسى الكليم .

وقفزت إلى أذهانهم اعتراضات الكتبة والكهنة والفريسيين ، وخطر لهم أن يسألوه ، ولكنهم كانوا يحسون منه رهبة ، وإن كان يعطف عليهم ويواسيهم ويفتح لهم قلبه الكبير ، وطووا تلك الاعتراضات التى راحت تحتل تفكيرهم ، ولجوا فى صمتهم .

الطريق طويل ، والهدوء شامل ، ولا شىء غير التأمل والتفكير ، ودوت فى نفوسهم اعتراضات المكذبين برسالته ، ولم يقووا على خنق ذلك الدوى التردد فى رءوسهم ، فقالوا له :

— لماذا يقول الكهنة إن إيليا ينبغى أن يأتى أولا ؟

كان الاعتقاد السائد أن ايليا ينهض من الأموات ويرد إلى بنى إسرائيل التابوت فيه سكينة وبعض ما ترك موسى وهارون ، فالنبي ملاخى يقول على لسان ربه : «هأنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجىء يوم الرب ، اليوم العظيم » ، فإذا كان هو المسيح المنتظر ، فكيف لم يأت إيليا قبله ؟

فقال لهم عيسى فى هدوء :

— إن إيليا يأتى أولا ويرد كل شىء . ولكنى أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه ، بل عملوا به كل ما أرادوا .

وصمت قليلا ، ثم قال :

— كذلك ابن الإنسان سيتألم منهم .

ترى أيحدثهم عن الاضطهادات التى يقاسيها ، أم يتنبأ عن الاضطهادات المطوية فى الغيب القريب ؟

وأراد تلاميذه أن يسألوه عن إيليا الذى سبقه ، ولكن هيبته عقلت ألسنتهم فصمتوا ، واقنعوا أنفسهم أنه يقصد يحى ، يحى الذى جاء قبله يبشر باقتراب ملكوت السموات ، يحى الشهيد .

٣٤

« إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ، وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

(قرآن كريم)

نودى فى القرى اليهودية وفى المدن وفى أورشليم : « اخرجوا إلى الجبل ، وأتوا بأغصان زيتون ، وأغصان زيتون برى ، وأغصان آس ، وسعف النخل وأغصان أشجار لعمل مظال » فقد كتب الله على بنى إسرائيل ثلاثة أعياد لشكره على إخراجهم من مصر ، وإنقاذهم من العذاب المهين : عيد الفصح ، وعيد الأسابيع ، وعيد المظال .

فى اليوم الخامس عشر من شهر تشرين ، عقب أن يجمع بنو إسرائيل بيادرهم، وينتهوا من معاصرهم ، يخرجون رجالا ونساء ، وشبانا وأطفالا وشيبا إلى الخلاء ، يعيشون فى مظال ، يقدمون قرابينهم ، ويمضون الأيام فى سرور ومرح ، حتى إذا ما انتهت أيام عيد الحصاد عادوا إلى ما كانوا فيه .

وكان القادرون يشدون الرحال إلى أورشليم ، يصلون فى الهيكل ، ويمضون الأيام فى مظلات أقيمت فى الخلاء ، فراح الناس يتأهبون للخروج ، واجتمعت الجموع فى أورشليم ، ووافى يوم العيد ، فانطلق الناس إلى الهيكل ، وقرعت الطبول ، فدبت الحماسة فى الصدور ، كانت طبول الهيكل تدق نشيد النصر ، وبدأت الصلاة ، فراح الجميع يرددون فى خشوع : « اسمع يا إسرائيل ، إلهنا إله واحـد . . . » والأطفال يرددون « آمين » ، وقضيت الصلاة ، فقام القراء يقرءون الناموس ، وذبح فى المذبح ثلاثة عشر ثورا ، فالشريعة تقضى بذبح سبعين ثورا فى أيام العيد قربانا لله ، على أن تنقص القرابين قربانا كلما انقضى يوم من أيام العيد .

وغادروا الهيكل إلى مظالهم ، وراحوا يتسامرون ، ويتناجون ويتساءلون فى همس ، عن عيسى الذى أقلق الكهنة ، ويقولون : «أين ذاك ؟» ، كانوا يحسبون أنه قادم فى العيد ، يدعو الناس إلى الذى أرسله ، ولكن انقضى اليوم الأول ولم يظهر ، وانقسموا فيه : فريق يقول : إنه صالح ، وفريق يثور ، ويتهمه بأنه أضل الجميع .

وكان حديثهم نجوى ، لايقدرون أن يرفعوا أصواتهم بذلك الحديث ، لخوفهم من رؤسائهم ، فما كانوا يجرءون على إعـــلان رأى إلا إذا وافق عليه أعضاء السنهدرين ، المجلس الموقر !

كان العيد للعبادة والشكر ، ولكنه انقلب إلى عيد لتحصيل اللذة ، الفتيات والفتيان فى ضوء القمر يتناجون ، وأنغام الموسيقى الناعمة التى تلهب الحواس ، تهتك سكون الليل وقدسية المكان ، والنشوة تعبث بالرءوس ، فيتبخر التحفظ والوقار ، أصبح العيد رمزا للحرية والتحرر والانطلاق .

انقضى من العيد أيام ، واطمأن أعداؤه الفريسيون والصدوقيون والكتبة ، إلى أنه لن يقدم يكدر صفو العيد ، وإذا به قد جاء إلى أورشليم ، وراح يمر بين الجموع التى تموج بها المدينة ، لايلحظه أحد ، كانوا يعرفون اسمه ، ولكن ماأقل من يعرفون هيئته ، فما كان يميزه عن آلاف الرجال شىء ، فالعين لا ترى عظمة النفس ، وانطلق حتى أتى الهيكل ، ودوت الطبول ، وقرئت الشمة والناموس ، وقام عيسى فى رواق من أروقة الهيكل يعلم الجماهير ، فحشر الناس زمرا يصغون .

انقلب سرور أعدائه غما ، كانوا يحسبون أن العيد سينقضى دون أن يقدم ليفسد عليهم الملأ من بنى إسرائيل ، وإذا الجموع تتهافت عليه ، وتظهر إعجابها بما يقول ، وراحوا يقولون :

— ما أعجب تعاليمه ، إنه ليجمع بين مدرسة هلليل ومدرسة شماى .

— كيف يعرف الكتب ولم يتعلم ؟

— أليس هذا عيسى الناصري ؟

— وهل يخرج من الناصرة شىء صالح ؟

وفطن عيسى إلى همسهم ، وحزر ما يدور بينهم ، فقال :

— تعليمى ليس لى ، بل للذى أرسلنى ، من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه ، وأما من يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق .

وتحرك الفريسيون ، والشرر يتطاير من عيونهم ، ووقعت عيناه عليهم ، فقال :

— لماذا تطلبون قتلى ؟

لم يكن يخشى الموت ، ولكنه يريد أن يمكن لدينه فى الأرض ، لم يكن أمامه فسحة من الوقت ليبلغ رسالته ، ويعلنها ساطعة ناصعة ، واتباعه من الأغفال ، الذين لا يفهمون تعاليمه كل الفهم ، كلما ضرب لهم مثلا سألوه عن تأويله ، إنه لا يطمئن أن يترك هذا الدين وديعة فى أيديهم ، وخاف الفريسيون ثورة الجماهير المفتونة به ، وما أيسر أن تثور ، فقال الفريسيون مظهرين العجب :

— بك مس ، من يطلب قتلك ؟ !

كان يعرف ، أن الحجة التى يقيمونها عليه ، هى العمل فى السبت ، ولا حجة غيرها ؛ فقال لهم مبررا كسره ذلك اليوم المقدس :

— أعطاكم موسى الختان ، والختان ليس من موسى ، بل من الآباء ، ففى السبت تختنون الأولاد ، فإذا كان الإنسان يقبل الختان فى السبت ، لئلا ينقض ناموس موسى ، أفتسخطون على لأنى شفيت إنسانا فى السبت ، لا تحكموا بالظواهر ، بل احكموا حكما عادلا .

فقال قوم من أهل أورشليم :

— أهذا الذى يطلبون أن يقتلوه ؟

وراح عيسى يقول :

— لم آت من نفسى ، بل أرسلنى الحق ، الذى لا تعرفونه .

ثار اليهود ، فهم يعتقدون أنهم أكثر الشعوب معرفة بالله ، وها هو ذاك القادم من الناصرة يتهمهم بأنهم لا يعرفونه ، يتهمهم بالكفر به ونكرانه ، وهجموا عليه ليمسكوه ، ولكنه اختفى دون أن يروه ، فقد كان قادرا على الإفلات من أيدى الأعداء ، فظهر على وجوههم ذهول ، وغمغموا .

— هذا سحر مبين .

---

(١) المقصود أن الختان من الآباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، لا من الكهان الآباء ، كما فهم بعضهم ، فحرموا الختان .

وذهب عيسى إلى المظال ، فإذا صخب ماجن ، وضوضاء فاجرة ، وضحكات خليعة فاسقة ، وأغانى ماجنة ، كان المكان المقدس أشبه بملهى من ملاهى الوثنيين، تعرض فيه ألوان الفسق والفساد ، والفريسيون والكتبة والصدوقيون يجوسون خلال المظال صامتين خاشعين ، كأنما كانوا فى محراب مقدس .

لم يرتفع لأحدهم صوت اعتراض ، كأن ما يقع تحت أبصارهم لا يخدش الناموس ، ولا ينقض شريعة موسى ، أما إذا قام هو فى الهيكل يعظ الناس ، ويدعوهم إلى الله الواحد ، فقد تصدعت الشريعة ، وتلمسوا الأسباب ليقتلوه ، ويستريحوا من دعوته ، التى ماجاءت إلا لتفض الناس من حولهم ، وتنزع منهم السلطان .

وفى الصباح ، بعد أن دقت الطبول ، وقدمت القرابين ، وقضيت الصلاة ، جلس يعظ الناس ، غير هياب ولا وجل ، أرسله الله لايخشى فى الحق لومة لائم ، فليصرخ بها فى وجوه الجميع مدوية .

ورفع بصره ، فإذا جموع قادمة تدفع امرأة ، والمرأة تخفى وجهها بيديها وشعرها ، ووقفت المرأة ذليلة ، خافضة الرأس ، فتحركت شفقته ، وأقبل نحوه الفريسيون ، وقالوا فى قسوة :

— هذه المرأة وجدناها فى زنا ، وناموس موسى يأمر برجمها ، فماذا تقول أنت ؟

كان ذلك الناموس معطلا ، عطله رئيس كهنتهم ، بعد أن حاكى بنو إسرائيل الرومان حتى فى المفاسد ، فتفشى الزنا فيهم ، وكان الفريسيون يعلمون ذلك ، لكنهم أرادوا أن يحرجوه بخبثهم : إذا أمر بتركها ثاروا للناموس ، وأرغوا وأزبدوا ، وطالبوا بدم المارق ، الناقض للشريعة ؛ وإذا أمر برجمها تحدى السلطة التى عطلت هذا الحد من الحدود .

ولم يرفع عيسى رأسه ، وإن كان بسريرته يلحظ الرياء الذى يقطر من وجوههم ، وساءه أن يقيم الخطاءون من أنفسهم حكاما للخطيئة ، ولم يحترم المرأة التى اقترفت الزنا ، ولكنه يرى أن متهميها لا حق لهم فى رجمها ، كلهم غارقون فى الدنس ، وما ثاروا ثورتهم إلا رياء ، فخفى ظهره ، وراح يكتب بإصبعه على الأرض :

— من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر .

وكأنما غشاوة الرياء تمزقت عن أعينهم ، فتمثلت لهم خطاياهم ، رأى كل منهم نفسه فى حمأة الفسق ، فنديت جباههم خجلا ، وأطرقوا رءوسهم خزيا ، وطفقوا ينسلون واحد إثر آخر .

وبقى عيسى مطرقا ، والمرأة واقفة ترتجف عارا ، وقام عيسى ونظر ، فإذا المرأة وحدها فى وسط الهيكل ، فقال لها :

— أين الذين جاءوا بك ؟ أما دانك أحد منهم ؟

— لا يا سيدى .

— وأنا لا أدينك ، اذهبى ولا تخطئى ثانية .

ومشت المرأة تجر ذيولها ، وخرج عيسى إلى الوفود يدعوهم إلى تصديق رسالته ، وجاء اليوم الثامن ، فهب الناس فى البكرة ، فى ثيابهم الجدد ، فى أيديهم «اللبلاب» مجدول من لباب النخيل ، وراحوا يتدفقون على الهيكل ، وبدأت المراسيم ، ووضعت تقدمة الصباح على الهيكل ، وحمل كاهن كبير إبريقا من الذهب ، وسار فى موكب عظيم حتى غادر الهيكل ، وذهب إلى جبل صهيون ، وفى بركة سلوام اغترف ثلاث غرفات فى خشوع ، وعاد الموكب العظيم ، وانسابت الأنغام المتدفقة من الأبواق المقدسة ، والكاهن يتقدم ، وقد غمر الجموع فرح ، فراحوا يلوحون بما فى أيديهم من «لبلاب» ، وصب الكاهن الماء فى وعاء فضى ، وصب خمرا فى وعاء آخر ، وارتفعت أصواتهم بالتهليل ، ذلك التهليل الذى رجعه داود ، صاحب المزامير .

هللو يا ، سبحوا يا عبيد الرب .
سبحوا اسم الرب .
ليكن اسم الرب مباركا ، من الآن وإلى الأبد .
من مشرق الشمس إلى مغربها ، اسم الرب مسبح .
الرب عال فوق كل الأمم ،
فوق السموات مجده .

واستمروا فى التهليل ، حتى إذا انتهت المراسيم ، قام عيسى يقول :

— إن عطش أحد ، فليقبل إلى ويشرب ، من آمن بى ، كما قال الكتاب ، تجرى من بطنه أنهار ماء حى .

لم يكن هذا القول جديدا عليهم ، كان يفرحهم أن يقتبس من كتبهم ، ففى ذلك توكيد منه بأنه ماجاء لينقضها ، وفى هزة الفرح قالوا :

— هذا نبى حقا .

— هذا هو المسيح .

— أيأتى المسيح من الجليل ؟

— قال الكتاب إنه من نسل داود ، يأتى من بيت لحم ، مدينة داود .

واندس الفريسيون بين الجماهير ، يوغرون صدورهم عليه ، وتغيرت القلوب وما أيسر أن تتغير ، فرددت جوانب الهيكل زمجرات ، واندفعوا ليمسكوه ، ولكنهم لم يجدوه ، مضى من بينهم دون أن يروه ، وتركهم حيارى يعجبون .

وجاء المساء ، وأضيئت المصابيح ، ففاض النور من الهيكل حتى غمر المدينة ، ووقف اللاويون على الدرجات المؤدية إلى الرواق ، يرددون ترانيم الصاعد :

أرفع عينى إلى الجبال من حيث يأتى عونى .

معونتى من عند الرب خالق السموات والأرض .

لا ينعس حافظك .

إنه لا ينعس ولا ينام حافظ إسرائيل .

وراح الفريسيون والناس يرقصون نشوة حول المصابيح ، فقام عيسى يدعوهم إلى الحق :

— أنا هو نور العالم ، من يتبعنى فلا يمشى فى الظلمة ، بل يكون له نور الحياة .

فهب الفريسيون يعترضونه . قالوا :

— أنت تشهد لنفسك ، شهادتك ليست حقا .

فقال لهم :

— إن كنت أشهد لنفسى فشهادتى حق ، لأنى أعلم من أين أتيت ، وإلى أين أذهب ، وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتى ولا إلى أين أذهب .

أنتم تدينون حسب الجسد ، أما أنا فلا أدين أحدا ، وإن كنت أنا أدين فدينونتى حق ، لأنى لست وحدى ، بل أنا والآب[1] الذى أرسلنى .

(١) الآب غير الأب : بمعنى الله .

مكتوب فى ناموسكم : إن شهادة رجلين حق ، أنا هو الشاهد لنفسى ، ويشهد لى الذى أرسلنى .

لو كنتم أبناء إبراهيم لعملتم أعمال إبراهيم ، ولـكنـكم تطلبون أن تقتلونى وأنا إنسان كلـكم بالحق الذى سمعه من الله ، هـذا لم يعمله إبراهيم ، أنتم تعملون أعمال أبيكم .

فزاد غضبهم ، فهو يتهمهم أنهم ليسوا أبناء إبراهيم ، وكل فخرهم أنهم من نسله . فقالوا فى حنق :

— إننا لم نولد من زنا ، لنا أب[١] واحد هو الله .

— لو كان الله أباكم لـكنتم تحبوننى ، لأنى خرجت من قبل الله وأتيت . لم آت من نفسى ، بل ذاك أرسلنى . لماذا لا تفهمون كلامى ؟ لأنـكم لا تقدرون أن تسمعوا قولى . أنتم من أب هو إبليس ، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا .

إن كنت أقول الحق فلماذا لا تؤمنون بى ، الذى من الله يسمع كلام الله ، وأنتم لا تسمعون كلامه ، لأنـكم لستم من الله .

فقالوا :

— ألسنا نقول حقا ؟ إنك سامرى بك مس .

— ليس بى شيطان ، ولـكنى أكرم الله وأنتم تهينوننى . الحق الحق أقول لـكم : إن كان أحد يحفظ كلامى ، فلن يرى الموت أبدا .

— الآن علمنا أن بك شيطانا . مات إبراهيم والأنبياء ، وأنت تقول إن كان أحد يحفظ كلامى ، فلن يذوق الموت أبدا . لعلك أعظم من أبينا إبراهيم الذى مات ، وقد مات الأنبياء ، من تحسب نفسك ؟

— إن كنت أمجد نفسى فليس مجدى شيئا . ربى الذى يمجدنى ، الذى تزعمون أنتم أنه إلهكم ولا تعرفونه ، وأما أنا فأعرفه . إن قلت إنى لا أعرفه أكن مثلكم كاذبا ، لـكنى أعرفه وأحفظ قوله ، أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومى ، فرأى وفرح .

ماجوا لما سمعوا قوله ، عاد يرميهم بالجهل بالله ، وزاد على ذلك أنه ادعى أن إبراهيم رأى يومه وفرح ، فقالوا ساخرين :

---

(١) يلاحظ أن لفظة « أب » تستعمل بمعنى رب .

— ليس لك بعد خمسون سنة ، أرأيت إبراهيم ؟

ورفعوا الحجارة ليرموا من قال لهم إنهم أبناء إبليس ، ومن أنكر عليهم معرفة الله ، ونظروا فلم يجدوه ، اجتاز فى وسطهم ، ومضى دون أن يروه ، فارتفعت الأصوات .

— إنه ساحر .

— هذا سحر مبين .

٣٥

« وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا ، تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا » .

(قرآن كريم)

حشر الناس إلى الهيكل وفدا ، فاليوم سبت . وقعد أمام باب الهيكل رجل أعمى يتكفف ، ترمقه العيون ، فتتردد فى الرءوس أسئلة : أأخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى ؟ ورآه عيسى فأشفق عليه ، ورد فى نفسه على أسئلة الناس : لا هو أخطأ ولا أبواه ، ولكن لتظهر معجزة الرب فيه .

وتقدم إلى الأعمى ، وقال :

— ينبغى أن أعمل أعمال الذى أرسلنى ما دام نهار ، يأتى ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل .

وتفل على الأرض ، وجعل من التفل طينا ، وطلى به عينى الأعمى ، وقال له :

— اذهب اغتسل فى بركة سلوام .

وذهب الأعمى إلى جبل صهيون ، واغتسل فى البركة ، فإذا به يرى دنيا لم يرها قبل الآن : سماء وماء ، وأشجار وتلال وضياء ، وحسن وبهاء ، فخفق قلبه فى قوة ، وغامت عيناه بدموع الفرح ، ورفع يده يجفف دموعه ، فما عاد يطيق غشاوة عبراته ، التى حالت بينه وبين النور لحظات .

ورجع الرجل إلى باب الهيكل وقعد ، وخرج الناس بعد انقضاء الصلاة ، ونظروا إلى الأعمى ليقوم فى أنفسهم نفس السؤال : أأخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى ؟ فإذا به يستقبلهم بعينين مفتوحتين ، فقالوا :

— أهذا الذى كان يجلس يسأل الناس ؟

— لا . ليس هو .

— بل هو .

— إنه يشبهه .

— سلوه .

واقتربوا منه يسألونه ، فقال لهم :

— رد عيسى إلى بصرى .

— متى ؟

— اليوم .

— فى السبت ؟ !

وانقسم الناس بين مكذب ومصدق ، وأخذوا الرجل ، وقادوه إلى الهيكل ، ودخلوا على الفريسيين ، وقالوا لهم :

— يزعم هذا أن عيسى رد إليه بصره اليوم .

فقال له رجال السنهدرين :

— كيف أبصرت ؟

— طلى عينى بالطين ، وأمرنى أن أغتسل فى سلوام ، فلما اغتسلت أحسست كأن غشاوة عن عينى تنجاب ، وإذا بدنيا زاهية جميلة ، دنيا ما كنت أتخيلها ، تبدو لى ناصعة رائعة ، ما أجمل أن يرى الناس !

بان فى وجوه الفريسيين قهر ، وقال بعضهم فى حنق :

— إنه ليس من الله ، فهو يكسر السبت .

وقال آخرون :

— كيف يقدر إنسان خاطىء أن يقوم بمثل هذه الآيات .

ودارت مناظرات ، ودب بين الفريقين خصام ، وكأنما أرادوا أن يضعوا حدا لتلك الفرقة ، فقالوا للرجل :

— ماذا تقول أنت عنه ؟

فقال الرجل فى حماسة :

— إنه نبى .

فصاح صائح منهم :

— لا تصدقوا دعواه ، إنه أحد تلاميذه ، جاء يلقى بينكم العداوة والبغضاء .

— فلندع أهله .

وأرسل أعضاء السنهدرين فى طلب أهله ، فجاء أبواه يضطربان ، فقالوا لهما :

— أهذا ابنكما ؟

— نعم .

— أولد أعمى ؟

— نعم .

— فكيف يبصر الآن ؟

— لا نعلم ، اسألوه فهو كامل السن .

ونادوا الرجل ، فدخل ، فقالوا له :

— نعلم أن هذا الذى تزعم أنه رد إليك بصرك خاطئ .

فقال الرجل فى تهكم :

— لا علم لى بذلك ، ولكنى أعلم أنى كنت أعمى وأنه رد إلى بصرى .

فقالوا فى ضيق :

— ماذا صنع بك ؟ كيف فتح عينيك ؟

— قلت لكم ، وكررت القول : لعلكم تريدون أن تصبحوا له تلاميذ !

فسبوه ، وقالوا له :

— بل أنت تلميذه ، أما نحن فتلاميذ موسى ، نحن نعلم أن موسى كليم الله ، أما هذا فلا ندرى من أين هو ؟

فقال الرجل دون أن يخشاهم :

— هذا أمر عجاب ، لا تعلمون من أين هو ، ولكنه فتح عينى ، والله لا يستجيب للخاطئين ، الله يلبى دعوة من يتق الله ، لم نسمع من الأزل أن أحدا فتح عينى من ولد أعمى . لو لم يكن مرسلا من الله لعجز عن أن يفعل شيئا .

أخذتهم العزة بالإثم ، فصاحوا :

— أخرجوه ، أخرجوا من ولد فى الخطايا وجاء يعلمنا .

كانوا يعتقدون أن الله يفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء ، فما أعماه الله إلا لأن أباه كان خطاء ، ولد ذلك الأعمى فى الخطايا ، وقام فى الهيكل يبصر أعضاء السنهدرين الكرام ، فما جزاؤه إلا الطرد المهين .

وخرج الرجل ، وقابله عيسى ، فدنا منه يدعوه للإيمان ، وقال له :

— أتؤمن برسول الله ؟

— من هو ؟ وأين هو ؟

— قد رأيته ، الذى يكلمك .

وعرف الرجل عيسى ، ذلك الذى رد إليه بصره ، وقال عنه أمام السنهدرين إنه نبي ، آمن به قبل أن يدعوه إلى الإيمان ، فرفع بصره إلى السماء يعلن إيمانه ، ويشكر الله .

ورأى الفريسيون عيسى والرجل يتناجيان ، فهرعوا إليهما يصغيان ، قال عيسى للرجل :

— أتيت ليبصر الذين لا يبصرون ، ويعمى الذين يبصرون .

فقال له الفريسيون :

— لعلنا نحن أيضا عميان !

فقال لهم عيسى : لا تثريب على من ولد أعمى ، ولكن اللوم كل اللوم على من أعمته الخطيئة .

وذهب عيسى ، والريح تصفر ، ولكن صدى كلماته فى آذانهم كان أعلى من زئير الريح ، وراح يبتعد وهم يرمقونه ، حيارى لا يدرون : أهو خاطىء كما يزعمون ، أم رسول رب العالمين ؟

واعتزل عيسى يصلى لله ، ويفكر فى أمر الناس ، أعلن لهم وأسر لهم إسرارا ، ودعاهم جهارا ، ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعاؤه إلا إنكارا واستكبارا ، يدعوهم إلى الله فيرمونه بالضلالة ، فغشاه حزن ، ونزل به هم ثقيل .

وفكر فى أن يغادر أورشليم ، فعداوة الفريسيين والصدوقيين والكتبة مريرة ، ولكنه رأى أن يعود إلى الهيكل يستأنف دعوته وجهاده ، فلو قبلوه قبله الجميع ، لو لان قلب أورشليم القاسى ، لتفتحت له جميع القلوب .

وذهب إلى الهيكل ، ووقف يدعو الناس ، فاجتمعوا حوله ، قال :

— من لا يدخل من باب حظيرة الخراف ، ويأتيها من مكان آخر ، فهو سارق ، أما من يدخل من الباب فهو راعى الخراف . يفتح له البواب الباب ،

وتسمع الخراف صوته ، فإذا دعا خرافه بأسمائها خرجت له ، فيمشى أمامها وهى خلفه ، لأنها تعرف صوته . أما الغريب فلا تتبعه ، بل تهرب منه ، لأنها لا تعرف صوت الغرباء .

رمقوه فى تساؤل ، فما عرفوا ماذا يريد بهذا مثلا ، ولمح الحيرة فى وجوههم ، فقال لهم :

— الحق أقول لكم : إنى أنا باب الخراف[١] ، فمن دخل منى يخلص ، يدخل ويخرج ويجد مرعى . السارق لا يأتى إلا ليسرق ويذبح ويهلك ، أما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة ، أنا هو الراعى الصالح ، والراعى الصالح يكرس نفسه للخراف ، أما الأجير إذا رأى الذئب مقبلا ترك له الخراف وهرب ، الأجير يهرب ، لأنه أجير ، ولا يبالى بالخراف ، أما أنا فإنى الراعى الصالح ، أعرف خاصتى وخاصتى تعرفنى ، كما أن الآب[٢] يعرفنى ، وأنا أعرف الآب .

وضاق الفريسيون به ، فقال فريق منهم :

— إنه يهذى ، به مس . لماذا تعيرونه السمع ؟

وقال فريق :

— ليس هذا كلام من به شيطان . أيقدر شيطان أن يفتح أعين العميان ؟ !

وهاج الناس فى الهيكل وماجوا ، وترقب عيسى ثمرة ذلك الجدال ، ومر الوقت ، واشتدت المناقشات ، ثم راحت تخفت وتخفت وتخبو ، كنار أكلت الحطب ، وأخذت تأكل نفسها ، وهدأ كل شىء ، كأنما أريق على المكان ماء بارد ، وانفض الناس من حوله ، وإذا به قائم فى الهيكل وحده .

وخرج مطرقا ، وسار حزينا ، يعرج فى الطريق ، حتى إذا غادر أسوار المدينة ، وبلغ قمة جبل الزيتون ، نظر خلفه يرمى أورشليم بنظرة وداع ، وفى قلبه لوعة ، وفى نفسه حزن ، وهاجت شجونه ، فقال :

يا أورشليم ، يا أورشليم .

---

(١) جاء فى إنجيل يوحنا . جميع الذين أتوا قبلى هم سراق ولصوص ، ولا يعقل أن المسيح عليه السلام يقول إن إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى ويحيى جميعهم لصوص .

(٢) الآب = الله .

يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين .

أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ولكنهم أبوا وأعرضوا .

ها هو ذا بيتك يترك للخراب .

وانحدر من الجبل ، يدثره حزن . أعرضت أورشليم عنه ، وأصمت آذانها عن دعوته ، وكذبته وناصبته العداء ، فسار مطرقا وقد طفرت من مآقيه دموع غالية غزيرة .

٣٦

« ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك »
(قرآن كريم)

ودع اليهودية ، واخترق السامرة ، وعند بئر يعقوب حط رحاله يستريح ، لم تكن هناك امرأة سامرية تجادله في الدين ، تقول له آباؤهم سجدوا فى هذا الجبل بينا يقول اليهود فى أورشليم الموضع الذى ينبغى أن يسجد فيه ، فيبشرها باقتراب اليوم الذى يسجد فيه الناس فى أى مكان وكل مكان . كان منفردا بأفكاره ، وكانت أفكارا مغلقة بقتام ، أعرضوا عنه فى أورشليم ، لم يزدهم دعاؤه إلا فرارا ، وكفروا به فى الناصرة ، وحتى الجليل الذى استبشر لدعوته ، عبس وقطب بعد أن راح الفريسيون يلحون عليه أن يريهم آية ، أن ينزل عليهم بروقا ورعودا ، كأنما السماء رهن بنانه ، وكأنما هو ليس بشرا مثلهم يوحى إليه ، يؤيده الله — إن شاء بآياته ، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا باذن الله .

وأشرف على الجليل ، رأى بحيرة جنيسارت صافية كعين زرقاء ، والعصافير والطيور ترنم التسابيح الخالدة الأبدية ، والمروج زاهية تياهة بالشباب ، وورود متفتحة كالخدود ، ونرجس كالعيون ، وأغصان مسترسلة كالشعر تنوس لعبث النسيم الهفهاف ، والرجال فى غدو ورواح ، يحملون خيرات السهل إلى السفن الراسية فى الميناء ، ومحصلو الرسوم يزنون ويفحصون ، صور حبيبة إلى نفسه ، فأشرقت وانداحت فيها نشوة ، ولكن سرعان ماتبخرت البهجة ، لم يعد قادرا على أن يذهب إلى هؤلاء الأغفال الأتقياء يعظهم دون أن يكدر صفو التلاقى الفريسيون والصدوقيون والأعداء .

وسار على شاطىء البحيرة ، ولمحه الناس ، ففتنوا به ، وقبل أن يتركوا أعمالهم ويلتفوا حوله ، زجرهم رؤساؤهم ، فاستأنفوا ما كانوا فيه من أعمال ، وهرع إليه

حواريوه وأنصاره ، وألقوا إليه سمعهم ، ينهلون من المورد العذب ، وفيما هم فى حديث ودرس ، إذ أقبل قوم فى وجوههم عبوس وقلق ، فنظر إليهم متطلعا ، فقالوا له :

— ذبح بيلاطس الجليليين فى المعبد ، خلط دمهم بدماء ذبائحهم .

كانوا يعتقدون أنه ما من مصيبة تنزل بالمرء إلا لخطيئة اقترفها ، فإذا كان بيلاطس قتل هؤلاء الجليليين ، فما مكن الله له فيهم إلا لأنهم قارفوا فى حق الله ذنبا ، وصمتوا يسمعون رأيه ، قال :

— أتظنون أن هؤلاء الجليليين كانوا أعظم خطيئة من كل الجليليين ، لمكابدتهم هذا القتل ؟ أقول لكم : كلا . وإن لم تتوبوا تهلكوا جميعا ، أتحسبون أولئك الثمانية عشر الذين سقط عليهم البرج فى سلوام وقتلهم أعظم خطيئة من جميع سكان أورشليم ؟ كلا . فإن لم تتوبوا تهلكوا جميعا .

وراح يضرب لهم الأمثال :

— كان لامرئ شجرة تين ، أتى يلتمس ثمرها فلم يجد لها ثمرا ، فقال للكرام : أتيت ثلاث سنين[١] ألتمس من هذه التينة ثمرا فلم أجد عندها ثمرا ، أقطعها . قال له الكرام : يا سيد ، دعها هذه السنة أيضا حتى أصلح لها الأرض ، وأضع حولها زبلا ، فإن أثمرت أبقيت عليها ، وإلا فاقطعها .

ورمقوه بعيون واسعة ، ولم يسألوه تأويل مثله ، ترى أفهم تلاميذه أنه ضرب لهم هذا المثل ، ليشرح لهم أن الله يمهل عبده ، عله يستغفره ويتوب إليه ، أم لم يفهموا شيئا ، ولاذوا بالصمت حياء وهيبة !

والتفت به الجموع ، وخشى الفريسيون أن يفتن الناس ، وأن يهتك الأستار التى يسدلونها فى مهارة ورياء لإخفاء الحقيقة ، فرأوا أن يرهبوه حتى يغادر الجليل ، ويتركه لهم مرتعا خصيبا ، يبذرون فيه البدع والأوهام ، ويجنون منه المال والنفوذ والسلطان ، فجاءوا إليه فى ثياب النصحاء الأصدقاء ، وقالوا :

— اذهب من هنا ، لأن هيرودس يريد أن يقتلك .

لو كان هيرودس يريد قتله حقا ، لأخفوا عنه تدبيره ، وهل كانت أمنيتهم

---

(١) أول بعضهم هذا المثل بأنه دلالة على أن مدة بعثه ثلاث سنين .

إلا قتله ؟ اختلقوا هذا الخبر ليرهبوه ، ويرغموه على الفرار ، فينقذوا أنفسهم من وخزاته ولذعاته ، كانت سخريته أمضى من السيوف ، وما كان يشتد إلا إذا قرعهم ، وسلط أنواره على ريائهم ، فيبدو عاريا بغيضا ، لم يرهبه تخويفهم إياه « بالثعلب » الرواغ ، هيرودس أنتيباس ، المتطير الرعديد ، الذى يخشى الأوهام ، ويقبل على قتل الرجال والأنبياء . ولم يلق بالا إلى تهديدهم ، بل استمر فى وعظ الملتفين حوله .

ورأى أن يبعث تلاميذه إلى بنى إسرائيل مبشرين باقتراب ملكوت الله ، فعين سبعين ، وراح يعظهم .

— الحصاد كثير ، والفعلة قليلون ، فاطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة إلى حصاده ، اذهبوا ، هأنذا أرسلكم كحملان بين ذئاب ، لا تحملوا كيسا ولا مزودا ولا أحذية ، ولا تسلموا على أحد فى الطريق ، وأى بيت دخلتموه فألقوا عليه السلام ، فإن كان هناك ابن السلام يحل سلامكم عليه ، وإلا فيرجع إليكم ، وأقيموا فى ذلك البيت آكلين وشاربين مما عندهم ، فالفاعل مستحق أجره .

لا تنتقلوا من بيت إلى بيت ، وأية مدينة دخلتموها وقبلوكم ، فكلوا مما يقدم لكم ، وقولوا لهم : قد اقترب منكم ملكوت الله ، وأية مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا إلى شوارعها وقولوا : حتى الغبار الذى لصق بنا من مدينتكم ننفضه لكم ، ولكن اعلموا هذا : إنه قد اقترب منكم ملكوت الله . وأقول لكم إنه يكون لسدوم فى ذلك اليوم حالة أكثر احتمالا مما لتلك المدينة .

وخرجوا اثنين اثنين يبشرون باقتراب ملكوت الله ، ولم يأمرهم أن يذهبوا إلى الأمم أو إلى السامريين ، ولم ينههم فقد اتضحت رسالته لتلاميذه ، عرفوا أن الله لم يبعثه إلا إلى بنى إسرائيل رسولا .

وراح يجول على شاطىء البحيرة ، يعظ الناس ، ولكن ما أقل المؤمنين الذين كانوا يصغون إليه ! انفض عنه الناس لما لم يأتهم بآية ؟ نجح الفريسيون فى بذر بذور الشك فى القلوب التى كانت مهيأة للإيمان ، وفى سكون الليل انطلق وحده والحزن يعصر قلبه ؟ أتى الناس بالهداية فرفضوه ، هداهم الطريق القويم فأبوا إلا أن يتنكبوا الطريق ، دعاهم إلى الله الواحد ، فأبوا إلا أن يشركوا

مع الله أحبارهم ورهبانهم ، واكتأبت نفسه ، كان يرجو أن يتم رسالة ربه ، وأن يثبت أركانها ، ولكن بدا لعينيه أن مستقبل رسالته تلبد بالغيوم ، كفر الناس به بعد أن صدقوه ، وفروا منه بعد أن كانوا يقبلون عليه ، ويقتتلون ليلمسهم بيده أو ليفوزوا بلمس شيء منه ، ولو طرف ثوبه أو جلد نعله .

حتى في الجليل رفضوه ؛ لو أمر بدعوة الأمم لانطلق يهديهم إلى الله ، فقد تكون قلوبهم أرحم من قلوب هؤلاء القساة الجاحدين ، ولكنه لم يرسل إلى الأمم ، فليس أمامه إلا أن يجوب البلاد اليهودية يتلقى الاضطهاد .

واقترب عيد التجديد ، فليترك الجليل ليعود إلى أورشليم ، ولئن كان أمامه فسحة من الوقت ، لم يعد الانتظار في الجليل محتملا ، عزيز عليه أن يعيش بين أناس جحدوه وطووا عنه كشحهم ، سيذهب في البلاد يعظ هنا وهنا ، حتى يوافي العيد ، فيقوم في الوفود داعيا ، فقد يجني ثمرة الكفاح .

وتأهب للرحيل ، ووقف ينظر إلى بحيرة جنيسارت وإلى مدن الجليل القائمة على شاطئها ، فانبثقت في جوفه ينابيع الحزن ، وكانت أغزر ينابيع نفسه ، كان نبي الأحزان ، ولم يجد منفسا لأساه إلا الكلمات ، فقال وهو يرنو إلى الجليل في لوعة :

ويل لك يا كورزين !

ويل لك يا بيت صيدا !

وأنت يا كفر ناحوم ، المرتفعة إلى السماء !

ستهبطين في الهاوية !

وانطلق يغادر الجليل دون أن تلوح له يد واحدة بالوداع ، حتى أغصان الأشجار وسعف النخيل لم تهتز ، خفت النسيم ، فبدا كأنه قد مات .

٣٦

« قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر »

(قرآن كريم)

ليل سرمد لا يتخلله بصيص نور ، أرض تطوى ، وشمس تقبل لتغيب وأناس يحشرون يصغون ثم ينفضون ، وفريسيون قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، ونور الإيمان لا يزحزح ظلمات النفوس ، وبعثت الشمس رسلها ، ولكن دثر الكون ليل سرمد .

ولاحت له أشجار نخيل عين غانم ، مفتاح السامرة ، فراح يرقى التل يداعبه أمل ، أضافه السامريون ثلاثة أيام ، يوم قابل السامرية عند بئر يعقوب ، واكتشفت أنه نبى ، كرموه على الرغم من العداوة القاتلة بينهم وبين اليهود ، فلو أحسنوا استقباله لمسحوا عن صدره آلام الجفوة التى قاساها فى أورشليم ، وفى الجليل ، وفى كل مكان ، فينبثق شعاع من نور فى الظلام الدامس الثقيل .

وقابله تلميذاه يعقوب ويوحنا ، ودخلوا عين غانم ، وقام عيسى بين الناس يعظهم ويدعوهم إلى الله ، فوضعوا أصابعهم فى آذانهم ، وطلبوا منه أن يغادر قريتهم ، وبدت العداوة منهم ، فنكص على عقبيه مقهورا .

علم السامريون أن وجهتم أورشليم لحضور العيد ، وما كان السامريون يعترفون بالهيكل المقدس ، فهم يقولون إن الآباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب سجدوا هنا فى جبل شكيم ، وما الهيكل إلا معبد بناه سليمان الحكيم ، فلو شاء اليهود أن يسجدوا ، فليس هناك إلا مكان واحد للسجود ، حيث سجد الآباء فى جبلهم المقدس .

سبق أن قال عيسى للسامرية عند البئر : تأتى ساعة لا فى هذا الجبل ولا فى أورشليم تسجدون لله ، فلماذا لا يدعو بهذا جهارا ؟ لماذا لا يقول للناس إن

أورشليم إن هى إلا مدينة فتحها داود ، وما قدسها إلا الكهان والتقاليد ، فلو فعل ذلك لأيد دعواهم ، ولأصاخوا له ، ففى ذلك بعض النصر لهم ، ولكنه لم يفعل ، فهو يخرج إلى أورشليم حاجا كآلاف الحجاج من بنى إسرائيل ، فغير ذلك صدورهم عليه ، وما دار بخلدهم أن زمان ملكوت السماء ، الذى يجعل الأرض كلها مسجدا ، لم يظلل الدنيا بعد ، وما جاء عيسى ليضع تعاليمه ، بل أرسل به بشيرا .

أبوا عليه أن يخترق السامرة ، حتى الطعام رفضوا أن يعدوه به ، لم ينظروا إليه نظرة الوداد السابقة ، لا لخشونة فى طباعهم، ولا لقساوة قلوبهم ، بل لأنه جاء إلى بلادهم حاجا إلى أورشليم ، وما كانوا منطقيين مع أنفسهم لو أنهم آووه وأكرموه ودعوه يخترق ديارهم معززا مكرما وهو لا يحترم معتقداتهم .

لو أكرموه وتركوه ينطلق إلى أورشليم لكان ذلك شاهدا على تهاونهم فى أس العداوة المريرة ، المشتعلة بينهم وبين من كانوا لهم إخوانا فى اليهودية ، قبل أن يقع الخلاف بينهم ، على شكيم وأورشليم والتوراة التى جاء بها موسى ، والتوراة التى كتب بعض إصحاحاتها مردخاى تمجيدا لإستر التى أنقذت بجمالها شعبها.

وحنق تلميذاه يعقوب ويوحنا ، وغلى مرجل غضبهما ، نكأت هذه المقابلة الجافة القاسية الجراح ، وجددت الأشجان ، فما بال الله حليما لا ينزل على هؤلاء الجفاة كسفا من السماء ، ما باله لايدمدم عليهم بذنبهم ، فيسوى أرضهم ؟ وتذكرا أن إيليا ، هنا فى السامرة ، دعا الله أن ينزل على أعدائه نارا تحرقهم ، فاستجاب الله دعاءه ، فلماذا لا يدعو عيسى ربه ، لينزل عليهم من السماء نارا ، فيفنيهم كما فعل إيليا .

غضب عيسى من ذلك الروح الثائر الحانق ، فزجرهما ، وقال لهما :

— ما أرسلت نقمة ، بل أرسلت رحمة .

وانطلقوا ، يدخلون القرى والمدن ، يجتازون السهول والقفار ، ويرقون الجبال ، ويهبطون الوديان ، وعيسى يعظ الناس ، ويبشرهم باقتراب الملكوت ، ويكسر السبت ، يبرىء فيه المرضى ، كأنه ما جاء إلا ليكسر السبت المقدس ، فإذا ثار الفريسيون والناموسيون ، والمراءون ، قال لهم فى سخريته اللاذعة :

— من منكم يسقط حماره أو ثوره — فى يوم السبت — فى بئر ولا ينتشله ؟

كانت أجوبته تفحمهم ، فيصمتون على مضض ، يتربصون به الدوائر ، فقد يأتى يوم يخرق فيه الناموس ، ويقصر فيه بيانه عن إقامة الحجة المتألقة ، فيقتلونه ويستريحون من ذلك القلق الذى بذر بذوره فى أعماقهم .

واستمر فى رحلته ، فهو من يوم أن بعث فى رحلة دائمة ، ولاح فى الأفق جبل الزيتون بأشجاره ، إنها أورشليم معقل أعدائه ، ذات القلب القاسى الذى كان أقسى من الصخر الذى بنى به أسوارها ، كان مكدودا من الرحلة الطويلة ، التى قطعها على قدميه ، فشاء أن يستريح قبل أن يدخل متحديا قوات الفريسيين فى عقر دارهم .

كان لعازر من أنصاره ، وكان له بيت فى أرباض المدينة المقدسة ، فانطلق يستجم هناك بعد التعب ، وما دلف إلى الدار حتى هرعت مرثا ومريم المجدلية ، أختا لعازر ، تستقبلان الضيف العظيم فى ابتهاج ، وأسرعت مرثا تحضر الماء تغسل له رجليه ، وذهبت تعد له طعاما ، توقد النار وتبعث فى شراء ما تحتاج إليه ، وتغدو هنا وتروح هناك ، بينا مريم جلست عند أقدامه صامتة ، تصغى إلى عذب حديثه الذى يتدفق من فمه إلى قلبها .

نسيت كل شىء إلا ذلك الضيف العظيم الذى كان بيانه سحرا ، تفتحت نفسها ، وهامت روحها فى سماوات من النقاء ، كان حديثه وحيا من السماء ، يرفعها إلى أجواء عالية ، فتمتلىء نشوة عارمة .

ارتبكت مرثا واحتاجت إلى عون أختها ، فارتفع صوتها بالنداء :

— مريم ، مريم .

ولم تسمع مريم نداءها ، كانت غائبة عن كل ما حولها بكلماته التى تنفذ إلى قلبها قطرة قطرة ، وارتفع النداء وهى فى شرودها ، طغت شخصيته فذابت فيها ، كأنما لم يعد لها كيان .

وضاقت مرثا بإعراض أختها عنها ، فاندفعت إليها كالعاصفة ، وقالت للسيد :

— قل لها أن تعيننى ، تركتنى أخدم وحدى .

ماهذا الذى تفعله مرثا ؟ لقد شغلت نفسها فى إعداد طعام فاخر ، حتى إنها تطلب عون أختها ، فمن قال لها إن السيد يحفل بذلك ، كانت مريم تؤدى له خدمة أجل

مما تؤديه مرثا ، كانت تخدمه خدمة روحية ، تصغى إليه وهو يحدثها حديث الشريعة فى إقبال ، فقد أصبح فى حاجة إلى من يقبل عليه ، بعد الإعراض والجفوة .

كانت مريم متهللة ، فالنبي الكريم يحدثها حديث الدين ، على الرغم من المثل المتداول بين الربيين « خير لك أن تحرق الناموس من أن تعلمه امرأة » .

ونظر عيسى إلى مرثا فى إشفاق ، وقال لها :

— مرثا مرثا ، إنك مهتمة ومشتغلة بأمور كثيرة ، والحاجة إلى واحد[١] ، أما مريم فقد اختارت النصيب الصالح ، ولن ينزع منها .

كانت هذه الزيارة روضة الحنان فى صحراء دعوته الماحلة ، التى لم تنبت فيها مشاعر الود والحنان ، كانت النهلة العذبة الروية للصادى الظمآن ، كانت لروحه المعذبة البرد والسلام ، كانت الخيط الأبيض فى الليل السرمد .

---

(١) قامت حول هذه الجملة مناظرات كثيرة ، قال رؤساء الكنيسة فى روما إنها تفضيل لحياة الفكر على حياة العمل ، وقال آخرون إن القصد منها أن المرء لا يحتاج إلى أكثر من نوع واحد للغذاء ، ومن يدرى فقد يقوم من يقول إنها دعوة إلى التوحيد !

٣٧

« وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخـذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك . ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب » (قرآن كريم).

كان غسق الدجى ينحسر ، وعيسى على جـبل الزيتون خاشع ، لا حسيس ولا نأمة ، والنجوم أفلت ، والسماء صافية ، للشمس تترقب ، وارتفع صياح الديكة فى أورشليم ، فتجاوبت الأصداء فى الجبل ، وزقزقت العصافير ، وتنفس الصبح ، فبعث أشعته خافتة توسوس للأرض بسر ، حتى إذا ذاع انتشر ، واشتعل الأفق الشرقى ، وحامت الطيور فوق الجبل ، وجعلت تحط على أسوار المدينة العتيقة ، ودوى فى الفضاء قرع طبول منبعث من قلعة أنطونيا ، يدعو جنود الرومان إلى مغادرة الفراش .

وقام عيسى ونظر إلى المدينة . كان الهيكل يتلألأ ، الضوء ينبعث من شرفاته ، فقد أضيئت جميع ثرياته احتفالا بالعيد ، وحمل النسيم روائح البخور ، فملأت خياشيمه ، وبدت القباب كمزيج من الجليد والنضار ، بياض ناصع وذهب وهاج .

أنهار الناس من كل فج تصب فى الهيكل ، الرجال فى ثياب زاهية ، قد ثبتوا التفلين فى أذرعهم ، ووضعوا الشامل على أكتافهم ، والنساء محجبات ، والأطفال فى ثياب العيد ، وفى أيدى الجميع غصون أشجار الليمون ، وفروع الأزهار وسعف النخل ، يهزونها فى مرح ، فاليوم عيد التجديد ، ذكرى تطهير يهوذا المكابى الهيكل ، بعد أن دنسه أبيفانوس .

وسار عيسى فى الطريق الجميل المؤدى إلى البيت المقدس ، وبلغت مسامعه صلوات الجموع وابتهالاتهم ، ودقت الطبول معلنة أن أول ضحية من أضحيات

اليوم الأول قدمت إلى المذبح ، وراحت أقداح الدم تنتقل بين أيدى الكهنة حتى يد الكاهن الأكبر ، ليسكبها فى المذبح الكبير ، وقضيت المراسيم ، وانتشر الناس فى الأروقة ، وكانت جدرانها مزدانة بالسيوف ، تخليدا لذكرى الشجعان الذين خلصوا الهيكل مع يهوذا المكابى ، وراح عيسى يغدو ويروح فى رواق سليمان ، والفريسيون يرمقونه ، ولما لم يقف يعظ الناس ، ذهبوا إليه وقالوا له :

— إلى متى تعلق أنفسنا ؟ إن كنت أنت المسيح ، فقل لنا جهرا .

— قلت لكم ولا تؤمنون ، لأنكم لستم من خرافى ، خرافى تسمع صوتى ، وأنا أعرفها فتتبعنى ، وأنا أعطيها حياة أبدية ، ولن تهلك إلى الأبد ، ولا يخطفها أحد من يدى . ربى[١] الذى أعطانى إياها هو أعظم من الكل ، ولا يقدر أحد أن يخطف من يد ربى ، أنا والآب واحد .

ثار الفريسيون ، إنه كفر وادعى أنه إله ، فحق رجمه ، فتناولوا حجارة ليرجموه ، فالشريعة تقضى برجم من يدعى النبوة كذبا ، فما بالك بمن يدعى الألوهية . نظر إليهم فى دهش وقال :

— أريتكم أعمالا كثيرة حسنة من عند ربى ، بسبب أى عمل منها ترجموننى؟

— لا نرجمك لعمل حسن ، بل لأنك كفرت[٢] ، فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلها .

— أليس مكتوبا فى ناموسكم : « أنا قلت إنكم آلهة » . قال آلهة لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله .

كان عيسى يتمثل بالتوراة فى كل أقواله ، فما ادعى أنه إله لما قال لهم أنا والآب واحد ، أراد أن يقول لهم على طريقة داود إنه رسول الله ، فقد قال داود فى مزاميره على لسان الله تعالى :

أنا قلت إنكم آلهة ،
وبنو العلى كلكم ،
لكن تموتون مثل الناس ،
وكأحد الرؤساء تسقطون .

(١) ذكر فى إنجيل يوحنا أبى . وآب بمعنى الله . وآب و vater, father تشبه فاطر .
(٢) الكلمة « تجدف » والتجديف بمعنى الكفر بنعمة الله ، لا الكفر إطلاقا .

إنه ليستشهد بكتابهم ، وما أكثر اقتباساته منه ، صرخ فيهم يوما : « ابعدوا عنى ياجميع فاعلى الإثم » ، وما كان ذلك القول قوله ، بل قول داود فى مزاميره ، وهو الآن يقتبس من داود قوله إن الله يقول لأنبيائه : إنكم كلكم أبناء العلى ، ولكنكم لا تخلدون ، بل يحق عليكم الموت كالناس ، والسقوط كالرؤساء ، إن هى إلا عصمة من الله واصطفاء .

لم يدع عيسى الألوهية ، بل قال كما قال داود : إن الله اصطفاه ، وإذا كان قد قال لهم إنه ابن الله ، فما أراد بذلك بنوة حقيقية[١] ، فيا طالما دعا الناس فى أقواله بأبناء الله : « طوبى لصانعى السلام ، لأنهم أبناء الله يدعون» ، « يأيها الأحباء نحن أبناء الله » ، « وصلوا للذين يطردونكم . . . لتكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات » . إنها أبوة روحية تظلل الجميع .

وما كانت تلك اللفظة جديدة على مسامعهم ، قال داود فى مزاميره إنه ابن الله :

قال لى أنت ابنى .
أنا اليوم ولدتك .
اسألنى أعطيك الأمم ميراثا لك .
تحطمهم بقضيب من حديد .
تكسرهم مثل إناء من خزف .

لم يدع أن المعجزات التى أتاها من عنده ، بل قال إنه لم يأت بآية إلا بإذن الله ؛ « كل شىء قد دفع إلى من ربى » ، ولم يدع أنه إله ، ولم يدع بنوة حقيقية ، بل بنوة روحية شاركه فيها المؤمنون والأنبياء ، فهم أبناء الله وأحباؤه وعبيده .

وأرخى اليهود أيديهم وهم يعجبون ، هذا الذى لم يتعلم فى مدارس الربيين ، ولم يجلس فى أروقة الهيكل يصغى إلى شماى وهلليل ، أتاه من العلم ما يفوق علم العلماء وزجال الدين ، إنه على علم بكتبهم وناموسهم ، وله بيان عظيم .

أحسوا قهرا ، حسبوه كفر ، وأقاموا عليه الحجة ليرجموه ، وإذا به يبرهن لهم من ناموسهم أنه لم يدع الألوهية ، بل استعار حديثه ممن سبقوه ، ليعلن أنه رسول رب العالمين .

---

(١) أوريغين Origenus هو أول من دس فى فكر الكنيسة (الأبوة والبنوة) الإلهية ، وهو راهب مصرى عاش فى القرن الثانى الميلادى ، وكان خصيا متأثرا بالديانة الفرعونية .

واستأنف دعوته ، وأعلن للملأ رسالته ، فأعرضـوا عنه وكذبوه ، لم يصدقوا أن الله أرسله إليهم ، ولما كانت شريعتهم تقضى بقتل الأنبياء الـكذبة ، هجموا عليه ليمسكوه ، ولـكنه كعادته أفلت من أيديهم ومضى ، وتركهم فى حيرة ذاهلين .

سار عيسى يدثره حزن عميق ، لم يبق أمامه إلا مغادرة أورشليم ، فأعداؤه يطلبونه ، ولـكن إلى أين يتوجه ؟ فى الجليل رفضوه ، وفى الناصرة رفضوه ، وفى اليهودية رفضوه ، وفى السامرة رفضوه ، لم يبق أمامه إلا أن يلوذ بالبرية ، أن ينتهى إلى ما انتهى إليه يحي ، أن ينطلق صوب الأردن حيث بشر يحي باقتراب ملـكوت الله .

خرج عيسى يحس غصة ، وفى صدره جمرة ، وفى مقلتيه دموع ، وفى فؤاده حزن عميق ، وابتعد عن أورشليم رويدا رويدا ، حتى ابتلعه الليل السرمد الطويل .

٣٨

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله
فبشرهم بعذاب أليم » (قرآن كريم)

سحاب ثقال فى السماء يتلبد ويزداد قتاما ، فيدثر الأردن ظلام ، وهو هناك فى البرية يعلم تلاميذه ، ويعظ الذين يدفعهم الشوق إلى الحج إليه ، فيصغون إلى حكمته ، وتنفتح قلوبهم لها ، يؤمنون حينا ، حتى إذا عادوا إلى دورهم انقشع سحر بيانه ، وغمرتهم حياتهم الثقيلة ، وجرفتهم فى تيارها .

وهطلت الأمطار غزيرة ، وهبت الرياح عاتية ، كان الوقت شتاء ، وسرعان ما أصبحت السماء صحوا وبزغت شمسها ، أما سحاب دعوته فلم ينقشع ، كان يتكاثف ويتجمع ، ليحجب نور الحق أن يحصحص ويتألق .

وجاءه رسول من مرثا وأختها مريم المجدلية ، يقول له :

— هو ذا الذى تحبه مريض .

علم عيسى أن لعازر سقط مريضا ، فدعا تلاميذه ، وقال لهم :

— لنخرج إلى اليهودية .

فقال له تلاميذه فى فزع :

— اليهود يطلبون أن يرجموك ..

وخشى التلاميذ أن يخرجوا ، فقال لهم :

— لعازر حبيبنا قد نام ، وإنى أذهب لأوقظه .

فقال له تلاميذه فى بساطة :

— إن كان قد نام فهو يشفى .

لم يفهموه ، وما فهموه قبل ذلك ، قال لهم إن لعازر رقد رقدة الموت ، وإنه ذاهب ليحييه ، وهم يحسبون أنه يتحدث عن رقدة النوم ، فقال لهم :

— لعازر مات . لنذهب إليه .

نظر بعضهم إلى بعض ، كانوا يخشون الخروج من البرية ، فاليهود يطلبونهم. وصمتوا قليلا ، فقام توما يقطع ذلك السكوت :

— لنذهب لنموت معه .

وخرجوا إلى اليهودية ، فجاءه الفريسيون يسألونه عن الزواج ليحرجوه ، وينفضوا عنه هؤلاء الذين لا يزالون يؤمنون به ، قالوا :

— هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لأى سبب ؟

— خلقهما الله ذكرا وأنثى ، وقال : يترك الرجل أباه وأمه ، ويلتصق بامرأته ، ويصبح الاثنان جسدا واحدا ، لم يعودا بعد اثنين بل جسد واحد ، فالذى جمعه الله لا يفرقه إنسان .

كان ذلك يخالف شريعة موسى ، فقال الفريسيون :

— فلماذا أوصى موسى أن تطلق بكتاب طلاق ؟

— أذن لكم موسى أن تطلقوا نساءكم لقساوة قلوبكم . وأقول لكم : إن من طلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزنى ، ومن يتزوج من مطلقة يزنى .

ظهر الدهش فى وجوه تلاميذه ، فما يقرره الساعة لا يطاق ، فمن ذا الذى يقدم على زواج وهو لا يدرى أيوفق فيه أم يحالفه الإخفاق ، ثم يقال له : لا تترك زوجتك إلا بسبب الزنا ، قد يحل الشقاق والنفرة بينه بين تلك الزوجة ، أيعيش فى جحيم الحياة ؟ وقد تسقط فريسة لمرض عضال فماذا يفعل ؟ فقالوا له مستنكرين :

— إن كان هذا أمر الرجل مع المرأة ، فخير للمرء ألا يتزوج .

فقال لهم شارحا رأيه :

— لا يقبل الجميع هذا الكلام ، بل الذين أعطى لهم . يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم ، ويوجد خصيان خصاهم الناس ، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السموات ، من استطاع أن يقبل فليقبل .

وفيما هو يتحدث إلى حوارييه ، أقبل عليه أولاد يلتمسون منه البركة ، فانتهرهم التلاميذ ، فقال لهم :

— دعوا الأولاد يأتون إلى ، ولا تمنعوهم ، لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات .

وانطلق فى رحلته الدائمة ، إلى بيت عنيا ، بأرباض أورشليم ، حيث دار حبيبه لعازر ، إلى تلك الدار التى يتفيأ فيها ظلال الراحة والأمن ، وفيما هو فى طريقه ، إذ قابله رجل غنى ، فدنا منه ، وقال له :

— أيها المعلم الصالح ، أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية ؟

فقال له عيسى :

— لماذا تدعونى صالحا ؟ ليس أحد صالحا إلا واحد ، وهو الله ، إن أردت أن تدخل الحياة ، فاحفظ الوصايا .

— أية وصايا ؟

— لا تقتل . لا تزن . لا تسرق . لا تشهد الزور . أكرم أباك وأمك . وأحب قريبك كنفسك .

— هذه كلها حفظتها منذ حداثتى . فماذا يعوزنى بعد ؟

— إن أردت أن تكون كاملا ، فاذهب وبع أملاكك ، وأعط الفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء . وتعال اتبعنى .

أطرق الرجل ، وعلاه وجوم ، فأمواله كثيرة ممدودة ، وإنه لعزيز عليه أن ينفق كل ماله فى سبيل الله ، فانسل مطأطىء الرأس حزينا : فقال عيسى لتلاميذه :

— عسير أن يدخل غنى ملكوت السموات ، إن مرور جمل من سم الخياط ، أيسر من أن يدخل غنى ملكوت السموات .

وانطلقوا حتى لاحت لهم قمة جبل الزيتون ، حيث يرقد خلفها بيت لعاذر ، وذهب الرسول إلى مرثا وأخبرها أن عيسى قادم ، فتركت المعزيات والمعزين الذين جاءوا للعزاء ، فقد مات أخوها منذ أربعة أيام ، وذهبت لاستقبال النبى ، وبقيت مريم المجدلية فى البيت ، فما بلغها نبأ وصوله .

قابلته مرثا ، وقالت له :

— لو كنت ههنا لما مات أخى .

فقال لها فى هدوء :

— سيقوم أخوك .

فقالت فى حزن :

— أعلم أنه سيقوم فى اليوم الآخر .

وذهبت إلى أختها ، وأسرت لها أن عيسى رسول الله قد حضر ، وهو يدعوها ، فما إن مس اسمه أذنيها حتى هبت تهرول إليه . فحسب من كانوا فى الدار أنها منطلقة إلى القبر ، تبكى هناك ، فخرجوا فى أعقابها .

قابلته مريم ، وقالت له :

— لو كنت ههنا ، لما مات أخى .

وانهمرت دموعها على خديها ، فأثرت فيه دموعها ، فاضطرب شفقة وقال :

— أين وضعتموه ؟

— تعال وانظر .

وعند القبر تجمع اليهود الذين خرجوا خلف مريم ، ونظر عيسى ، فجرت دموعه الغالية ، فهمسوا :

— انظروا ، كيف كان يحبه .

رنا إلى القبر مدة ، كان كهفا عليه حجر ، ثم قال :

— ارفعوا الحجر .

فهرعت إليه مرثا منزعجة ، وقالت :

— له أربعه أيام .

كانت تخشى أن تفوح رائحته ، فقال لها :

— ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد الله ؟

فرفعوا الحجر ، ورفع عينيه إلى السماء ، وقال فى حرارة :

— إلهى لك الشكر على ما منحتنى ، أبتهل إليك أن تستجيب دعائى ، ليؤمنوا أنك أرسلتنى .

وصرخ صرخة عظيمه :

— هلم اخرج .

وإذا لعازر يخرج ملفوفا فى أكفانه ، والناس فى دهش وذهول ، فقال :

— فكوه .

فأسرعت مرثا ومريم إلى أخيهما ، تفكان أربطته فى انفعال ، والدموع تغسل الوجوه ؛ وذهب فريق إليه خاضعا يظهر إيمانه ، واستكبر فريق ، وأبى أن يصدق ذلك الذى أيده الله بالمعجزات .

وذهب الذين كفروا إلى الفريسيين ، يخبرونهم بما رأوا ، لعل عندهم له تأويلا ، فقالوا لهم إن هو إلا سحر مبين ، وصدورهم ضيقة من الغيظ ، وذاع أمر إحياء لعاذر ، فانطلق الناس إلى بيت عنيا يعلنون إيمانهم برسول رب العالمين .

وحقد عليه الفريسيون . وأفزعهم انشقاق الناس فى أمره ، فذهبوا إلى قيافا رئيس الكهنة يشكون إليه الفتنة الكبرى ، فأطرق قليلا ، ثم قال :

— خير لنا أن يموت واحد ، من أن تهلك الأمة كلها .

حرضهم على قتله ، لينقذ الأمة من دعواه التى فرقت بين المرء وأخيه ، وأمه وأبيه ؛ فلو أنهم خلوا بينه وبين الناس ، لا نقسموا إلى فريقين يتجالدون ويقتتلون ، ولكانت ثورة أهلية .

وعلم عيسى بما بيته الفريسيون له بليل ، علم أن قيافا أحل لهم دمه ، وأنهم يتربصون به الدوائر ، فخرج من بيت عنيا يترقب ، وذهب إلى إفرايم ينتظر حلول الفصح بعيدا عن الأنظار ، حتى إذا وافى العيد ، خرج إلى أورشليم ، يهاجم الفريسيين وهو آمن من مكرهم ، فلن يستطيعوا أن يقتلوه بين الحجيج ، خشية ثورة الجماهير ، فالناس وإن لم يؤمنوا به ، يعطفون عليه ، ويصغون إليه ، ولا يجدون فى دعواه ما يوجب إهدار دمه ، إنه يشرح لهم الناموس شرحا أخاذا جذابا ، ويضرب لهم أمثالا تستهويهم ، وما أشد إعجاب الناس بالحكمة ، وإن لم يفهموا مغاليقها !

٣٩

« وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل ، فأمكن منهم ، والله عليم حكيم » . (قرآن كريم)

بحثوا عنه فلم يجدوه ، فضاقت الدنيا فى وجوههم ، ونزل بهم هم ثقيل ، لن يعرفوا طعم الراحة ، ما دام يسعى على الأرض ، ينفث فى الناس دعوته التى تقوض سلطانهم ، ولم يقـدروا أن يداروا عداوتهم ، فأعلنوا أنهم يطلبونه ، وأصدروا أمرا بتحريض من يعرف مكمنه أن يرشد إليه .

وبدأت قوافل الحجاج تفد إلى أورشليم من سورية ومصر وبابل وآسيا الصغرى وروميةً واليونان ، ليطهروا أنفسهم تأهبا للفصح ، ومن أفريم شاهد عيسى جموع الحجاج مخترقة البرية إلى البيت المقدس .

واقترب العيد فرأى أن يذهب إلى بيت عنيا ، إلى بيت لعازر حيث الدعة والهدوء ، ليستجم قبل أن يدخل أورشليم للـكفاح المرير .

وخرج ومعه حواريوه ، وانطلقوا فى حذر ، حتى إذا دخلوا بيت لعازر ، راحت مرثا تعد وليمة فاخرة للضيوف ، كانت حريصة على إكرام النازلين عندها ، بتقديم ألوان من الطعام وصنوف ، أما مريم فما عادت تحفل بالطعام وبالشراب ، شغفت روحها ، فاهتمت بغذاء الروح .

رأت عيسى قد اتكأ مع المتـكئين ، فأحضرت قارورة ناردين خالص ، ودخلت وأكبت على رجليه ، وراحت تدهن قدميه بالطيب ، وتمسحهما بشعرها ، فعبق البيت بالروائح الذكية النفاذة ، والتفت الحواريون إلى مريم وفى عيونهم شىء من الإنكار ، فما كان لامرأة أن تلمس رجلا غريبا ، لا أن تمسح بشعرها قدميه ، ورأى يهوذا الأسخريوطى ، وكان خازن الجماعة ، أن فى إهراق ذلك الطيب النادر تبذيرا ، فقال :

— لو بعنا هذا الطيب لحصلنا على ثلاثمائة دينار ، أنفقناها على الفقراء .

نظرت إليه مريم نظرة إنكار ، وبان فى وجهها ضيق ، وساد المكان وجوم ، ولمح عيسى ما فى وجه المجدلية من انفعال ، فقال :

— دعوها ، لماذا تتعبونها ، لقد أحسنت إلى ، الفقراء معكم فى كل حين ، أما أنا فلست معكم فى كل حين .

وسكنت النفوس إلا نفس يهوذا ، رأى فى قول عيسى مجاملة لامرأة على حساب تعاليمه ، فهو يدعو الناس إلى التقشف والزهد والخروج عن أموالهم لله طيبة نفوسهم ، ويدع امرأة تسكب الطيب على قدميه ، دون أن ينهاها عن ذلك التبذير ، ماذا عليه لو أرشدها إلى ما فيه خيرها وخير المساكين ؟

واستولى الغضب على يهوذا واستبد به ، وجىء بالطعام ، وبدءوا يأكلون ، وغضب يهوذا يأكله ، وما انتهى الطعام حتى كان قلب يهوذا قد تغير على عيسى ، وإن حاول أن يوهم نفسه أن ما يحسه إن هو إلا غضب وقتى سرعان ما ينقشع .

وهمس الناس فى أورشليم أن عيسى عاد إلى بيت عنيا ، إلى لعازر الذى أحياه من الموت ، فدفع حب الاستطلاع الناس إلى الذهاب إلى هناك ، ليروا الشاهد الحى على عظمة النبي الجديد ، فانسلوا بين التلال ، وقابلوا عيسى ، وآمنوا به ، وبلغ الفريسيون خروج الجماهير إلى بيت عنيا لرؤية لعازر القائم من الأموات ، فتجددت مخاوفهم ، فذلك الرجل يفتن الناس ، فاجتمعوا إلى قيافا رئيس الكهنة يتشاورون ، ولما كان الاغتيال سلاح المغلوبين ، قرروا أن يقتلوه .

كان قيافا رئيس الكهنة عاجزا عن أن يقف فى وجه مناوئيه ، كان كل همه أن يرضى السلطة الزمنية ، وأن يسير فى ركابها ، يشاركها آثامها وخطاياها ، ويقاسمها مغانمها وأسلابها ، فإذا لاح فى الأفق من يعكر عليه صفو الليالى ، أفتى بقتله ، وما أيسر أن يشير الجبناء باغتيال مناوئيهم .

واجتمع الناس فى الهيكل يصلون : « اسمع يا إسرائيل ، إلهنا إله واحد » .

وما قضيت الصلاة حتى انتشروا فى الأروقة يتهامسون ، لم يرفعوا أصواتهم ، كان حديثهم عن عيسى الذى أقام لعازر من الأموات ، وكثر الهمس ، وسرى بين الحجاج أن عيسى هو المسيح ، وراح الناس يتساءلون :

— أيقدم إلى الهيكل فى العيد ؟

وانتشر الفريسيون والصدوقيون يتجسسون ، وحمل الهواء إلى مسامعهم همس الناس ، فتحركت مخاوفهم ، إذا حضر أصغت إليه الجموع ، وعجزوا عن أن يمسوه بسوء ، فمن يدرى ، قد تهب فى أورشليم الثورة إذا قبضوا عليه وقتلوه .

وانتشر فى صدورهم قلق ، وانتابتهم حيرة ، أسقط فى أيديهم فما عادوا يعرفون ماذا يفعلون ؟ وراحوا يتساءلون :

— أيقدم إلى الهيكل فى العيد ؟

وفى طرقات أورشليم انطلق رجل طويل القامة ، ناحل الجسم ، به انحناءة خفيفة ، أسود العينين ، تغطى وجهه لحية سوداء صغيرة ، من يراه يحسبه عيسى ، ولكنه لم يكن عيسى ، بل كان يهوذا الأسخريوطى ، فى طريقه إلى بيت قيافا .

كان كل شىء ظلاما ، الطريق الذى يضرب فيه ، وقلبه الذى يخفق بالغضب الأعمى البغيض ، وصدره الذى كان مأوى لخفافيش إحساساته المقيتة ، ساءه أن يتنكر عيسى لتعاليمه ، فأصغى لشيطانه ووهب له نفسه ، وهو يحسب أنه ثار لدين الله ، وأنه يصيخ إلى ضميره .

واستأذن فى الدخول ، فأذنوا له ، فإذا به فى قاعة واسعة ، وجاء رؤساء الكهنة ، وتحلقوا حول مائدة طويلة ، وراح يهوذا يتحدث ، وهم يصغون إليه ، فى وجوههم دهش وحيرة ، لايدرون أيصدقون مايسمعون أم يتلقونه فى حذر ؟ جاء يهوذا الأسخريوطى ، الحوارى الصديق ، يعرض عليهم أن يسلمهم سيده الذى آمن به وأحبه .

٤٠

« وإذ كففت بنى إسرائيل عنك ، إذ جئتهم بالبينات ، فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين » .

(قرآن كريم)

تنفست المدينة المقدسة ، ودبت فيها الحياة ، وخرج الحجاج إلى الأسواق يشترون العطور والهدايا ، وانتشر الجنود الرومانيون فى طرقاتها الضيقة ، وراح سكان أورشليم يجولون عند مداخل المدينة ، ويشاهدون وفود حجاج الأقاليم ، كانوا يقبلون فرحين مستبشرين ، يرقصون ويرفعون أصواتهم بالغناء والتهليل ، وإذا مالاحت لهم قباب الهيكل ، راحوا يسبحون :

احمدوا الرب لأنه صالح   لأن إلى الأبد رحمته

احمـــدوا إله الآلهة   لأن إلى الأبد رحمتــه

احمدوا رب الأرباب   لأن إلى الأبد رحمتــه

وتدفقت المواكب تصب فى أورشليم ، مبتهجة بذكرى تخليص بنى إسرائيل من عذاب فرعون المهين ، وأقبل ركب الجليل ، الرجال بشعورهم الطويلة يهزون أعطافهم فرحا وهم سائرون ، كانوا فى تقدمهم يرقصون ، والنساء محجبات على الخيل والبغال والحمير ، والأولاد يهرولون ، وكانت مريم بينهم ، فهى تحج إلى الهيكل فى كل عيد ، أقبلت يداعبها أمل ملاقاة ابنها فى أورشليم .

وعبقت المدينة بالبخور ، ولـكن ما كانت رائحته خالصة ، بل كانت مشوبة بروائح العرق وروث الخيل والبغال والحمير والأغنام التى ماج بها الهيكل ، فـكانت رائحة تضيق الأنفاس ، وتقبض الصدور .

وراح الحجاج يتهامسون ، يتحدثون عن عيسى الذى أحيا لعازر ، وقال الذين ذهبوا إليه فى جنح الليل إنه اليوم إلى المعبد قادم ، فخرج الحجاج يرصدون طريقه يدفعهم حب الاستطلاع ، كانوا جميعا يبغون أن يروا ذلك الذى كثر

الحديث عن آياته ، خرجوا وفى أيديهم سعف النخيل ، وأغصان الليمون ، وكان اليوم أحد .

وأقبل ركب عيسى ، كان راكبا جحشا وحوله حواريوه ، كان مهيبا يشع من وجهه نور الإيمان واليقين ، فلما رآه الناس استولت عليهم الحماسة ، فراحوا يهزون فى أيديهم الأغصان وسعف النخيل ، وهرع إليه بعضهم يفرشون طريقه بثيابهم ، وارتفعت أصواتهم بتسابيح اقتبسوها من مزامير داود :

— أوصنا (خلصنا) ، مبارك الآتى باسم الرب ، أوصنا فى الأعالى .

وانساب الركب تحوطه الجموع الهاتفة فى طرقات أورشليم ، فخف الحجاج ينظرون ، ويتساءلون :

— من هذا ؟

— عيسى النبى الذى من ناصرة الجليل .

رأى الفريسيون استقبال الناس له ، فأحسوا كمدا ، كانوا يدبرون قتله ، فإذا بالجموع تلتف به ، فلن يستطيعوا تنفيذ خطتهم إلا بعد انصراف الحجاج المفتونين به إلى ولاياتهم ، وانطلق الركب والفريسيون يرقبونه ، ونار الحقد تأكل أفئدتهم ، وغمغموا فى يأس :

— هوذا العالم قد ذهب وراءه .

وهبط عيسى عن جحشه ، وتقدم إلى الهيكل ، فألفى الصيارفة وتجار الحمام والعجول والأغنام قد عادوا لاحتلال أروقته ، فثار غضبه ، طردهم قبل ذلك مرة ، وطهر الهيكل من أدرانهم ، وإذا بهم يعودون إلى ما كانوا فيه ، كان همهم أن يبيعوا الذبائح للحجاج ، وأن يحققوا أرباحهم ، أما نظافة الهيكل فلم تكن موضوعا ذا بال .

وفى ثورته قلب موائد الصيارفة ، وكراسى باعة الحمام ، وأخرج العجول والأغنام وهو يصيح :

— مكتوب : بيتى بيت الصلاة ، فجعلتموه مغارة لصوص .

حتى فى ثورته لم ينس طبعه ، لم يكلمهم بحديث من عنـده ، بل استشهد بما هو مكتوب فى ناموسهم ، كانت كل أحاديثه اقتباسا ، ومع ذلك كان لها فى نفوس سامعيه وقع عجيب .

ووقف يعظ الناس ، وأصوات الأطفال تتجاوب فى الهيكل :

— أوصنا . . أوصنا .

غاظ ذلك الترحيب رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين ، فقالوا له فى غضب:

— أما تسمع ما يقول هؤلاء ؟

كانوا يحرضونه على أن يزجرهم ، فمن هو حتى يخلصهم ؟ ! ولكن عيسى قال فى هدوء ، مقتبسا من المزامير :

— أما قرأتم قط : من أفواه الأطفال والرضع أعددت تسبيحا .

كان ذلك اليوم نصرا ، وبدا كأنما انقشع ليل دعوته السرمد ، وفود تستقبله فى حماسة استقبال الغزاة الفاتحين ، وجموع تصغى إليه فى خشوع ، والفريسيون والكتبة والأعداء يصرفون الأنياب غيظا . أشرقت شمس دعوته ، ولكن ما أقصر ذلك الشروق .

كان الناس يعيرونه آذانهم وقلوبهم مغلقة ، هتافات تنطلق من الحناجر والأفئدة صامتة ، وحماسة تتهلل بها الوجوه ونفوسهم لا تنفعل لها ، كان ترحيبهم به ترحيب جماهير ، وما كان ترحيب إيمان ويقين .

ولم يشأ الفريسيون أن ينقضى اليوم وهو يتألق فى نصره ، فراحوا يجادلونه ويحاورونه ، محاولين أن يشككوا فيه الجموع ، وكانت مناظرتهم له قاسية ، تقطر بالعداوة ، ففطن عيسى إلى ما تطويه صدورهم من خيانة ، فعزم على أن يخرج من أورشليم ، لا يقضى ليله بين جدرانها .

وتقدم بعض الحجاج اليونانيين إلى تلميذه فيلبس ، وقالوا له :

— ياسيد نريد أن نرى عيسى .

فأمهلهم حتى يسأله ، وفى جنح الليل انسل هو وحواريوه إلى جبل الزيتون ، ليمضوا ليلهم بعيدا عن أعدائه وشانئيه .

٤١

« وإذ قال الله يا عيسى ، إنى متوفيك ، ورافعك إلى ، ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلى مرجعكم ، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » .

(قرآن كريم)

على جبل الزيتون ، وتحت الأشجار نام الحواريون . كان الليل هادئا ، والنجوم ساهرة ، والسكون هاجعا غارقا فى السكرى ، وعيسى ساجدا يصلى لله ويدعوه ، وقام ونظر إلى السماء وقد بللت عينيه الدموع ، وإذا بجبريل يهبط إليه يبلغه وحى الله :

— يا عيسى ، إنى متوفيك ، ورافعك إلى ، ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلى مرجعكم ، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون .

دثره حزن عميق ، كان يبغى أن يتم رسالة ربه ، وإذا بالوحى يخبره أن أيامه على الأرض انقضت ، لم يصدقه الناس ولم يؤمنوا به ، وهو ذاهب إلى ربه ، تاركا للناس حوارييه ، إنهم لم يفهموه يوما ، فكيف يدعون الناس إلى الله بعد موته ؟ وفكر فى تلاميذه ، فزاد حزنه ، كان أدرى بهم من أنفسهم ، سيدب بينهم الشقاق ، ويحل الخصام ، وتضيع بينهم تعاليمه . لو مد الله فى أجله لثبت أركان دعوته ، ولتركها واضحة لا يكتنفها غموض ، كانت مدة رسالته قصيرة ، لم تكن كافية ليغرس فى الناس أصول ما يدعو إليه ، حتى حواريوه لم يتمكنوا من أن يعوا كل ما يقول .

وفاض ضوء النهار على جبل الزيتون ، وعيسى فى إطراقه الحزين ، وجاء إليه فيليبس وأندراوس وبعض حوارييه ، وقالوا له :

— يطلب الحجاج اليونانيون أن يروك .

فقال عيسى فى أسى :

— أتت الساعة التى يتمجد فيها ابن الإنسان ، الحق الحق أقول لكم : إن لم تقع حبة فى الأرض وتمت ، فهى تبقى وحدها ، ولكن إن ماتت تأتى بثمر كثير ، اضطربت نفسى ، ماذا أقول ؟ . إلهى نجنى من هذه الساعة .

وصمت قليلا ثم قال :

— إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلى الجميع .

فطن تلاميذه إلى أنه ينعى إليهم نفسه ، فاضطربوا وقالوا :

— سمعنا من الناموس أن المسيح يبقى إلى الأبد ، فكيف تقول : ينبغى أن يرفع ابن الإنسان ؟ من هو ابن الإنسان هذا ؟

لم يجبهم ، بل قال :

— النور معكم زمانا يسيرا ، فسيروا مادام لكم نور ، لئلا يدرككم الظلام من يسير فى الظلام لا يدرى إلى أين يذهب ، ما دام لكم النور آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور .

وذهبوا إلى أورشليم ، وكانت تموج بالحجاج ، ودخلوا الهيكل وقام عيسى يعظ الناس :

— كان لرجل ابنان ، فجاء إلى الأول وقال له : يا بنى اذهب اليوم اعمل فى كرمى ، فقال : لا أريد أن أذهب ، ولكنه ندم وذهب . وجاء إلى الثانى وقال له : يا بنى اذهب اليوم اعمل فى كرمى ، فقال : هأنذا ذاهب ، ولم يذهب . فأى الاثنين نفذ إرادة الأب ؟

— الأول .

— الحق أقول لكم إن الخطائين والزوانى يسبقونكم إلى ملكوت الله ، لأن يحيى جاءكم بالحق فلم تؤمنوا به ، وأما الخطاءون والزوانى فقد آمنوا به . وأنتم بعد أن رأيتم الحق لم تؤمنوا به .

وساد صمت قليل ، ثم قال :

— اسمعوا مثلا آخر . غرس رب بيت كرما ، وأحاطه بسياج ، وحفر فيه

معصرة ، وبنى برجا ، وسلمه إلى كرامين وسافر ، ولما قرب وقت الحصاد أرسل عبيده إلى الكرامين ليأخذ ثماره ، فأخذ الكرامون عبيده ، جلدوا بعضا ، وقتلوا بعضا ، ورجموا بعضا ، فأرسل عبيدا آخرين ، ففعلوا بهم كذلك ، فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟

— يهلكهم ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين ، يعطونه الحصاد فى أوقاته .

فاستشهد بما جاء فى المزامير :

— أما قرأتم قط فى الكتب : الحجر الذى رفضه البناءون صار حجر الزاوية ؟ لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل ثماره[١] .

وضاق الفريسون به ذرعا ، فالجموع تتكاثف حوله ، وتهتم بأمره ، وهم يبغون أن يقبضوا عليه ، ويتخلصوا منه ، ولكنهم يخشون الجماهير التى تنظر إليه نظرتهم إلى نبى .

واستمر عيسى فى وعظه وضربه الأمثال .

— مثل ملكوت السموات كمثل ملك أقام عرسا لابنه ، وأرسل عبيده يدعون المدعوين إلى العرس ، فأبوا أن يأتوا ، فبعث إليهم عبيدا آخرين ، وقال لهم : قولوا للمدعوين إنى أعددت غدائى ، وذبحت العجول الحنيذة ، وجهزت كل شىء ، تعالوا إلى العرس ، فأبوا وذهب واحد إلى حقله ، وآخر إلى تجارته ، وسب الباقون عبيده وقتلوهم ؛ فلما سمع الملك بذلك غضب ، وأرسل جنوده وقتل أولئك القاتلين ، وأحرق مدينتهم ، ثم قال لعبيده : العرس قائم ، وليس هناك مدعوون ، اذهبوا إلى مفارق الطرق ، وادعوا كل من تجدونه . فخرج العبيد وجمعوا الأشرار والصالحين . فلما دخل الملك لينظر ، رأى رجلا فى غير لباس العرس ، فقال له : يا صاحب ، كيف دخلت إلى هنا ؟ فسكت ، فقال الملك للخدام : شدوا وثاقه ، واطرحوه فى الظلمة . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان ، كثيرون يدعون ، وقليلون هم الفائزون .

---

(١) جاء فى القرآن : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . و « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين » .

كان يذكر لهم أن من يأتى ملكوت الله دون أن يرتدى ثياب التقى ، يلقى فى نار جهنم ، وظل الناس يتطلعون إليه ينتظرون منه المزيد ، فضاق صدر الفريسيين ، فابتعدوا يتناجون ويتشاورون ، يفكرون فى أن يحرجوه ، وبعد تفكير وتدبير ، أرسلوا إليه أحد أعوان هيرودس ، فقال له :

— نعلم أنك صادق . وأنك تهدى إلى طريق الله بالحق ، لا تخشى فى الله لومة لائم ، فقل لنا : أيجوز أن نعطى جزية لقيصر ؟

ساد المكان صمت كصمت الرموس ، وأرهفت الآذان ، ألقى أعداؤه حبائلهم ينتظرون أن يسقط فيها ، قال :

— لماذا تختبروننى يا مراءون ؟ !

والتفت إلى الملأ وقال :

— أرونى دينارا .

فقدموه له ، فتناوله وقال :

— لمن هذه الصورة والكتابة ؟

— لقيصر .

— أعطوا إذا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .

أصابهم غم ، كانوا يعلقون آمالا على هذا السؤال ، فجميع اليهود يكرهون أن يؤدوا جزية للوثنيين ، فذلك دليل على أنهم أصبحوا أذلة ، ولم يعودوا شعب الله المختار ، كان أعداؤه يحسبون أنه سيحرم دفع الجزية للرومان ، تملقا للجماهير ، فيرفعون إلى الحكام الأقوياء نبأ ثورته على السلطان ، ويوقعون بينه وبين هيرودس العداوة والبغضاء ، وهيرودس سفاك للدماء ، لا يغفر لمن يهين صديقه قيصر العظيم ، ولكن إقراره بدفع الجزية نقض غزلهم ، وما أقرها التماسا للعافية ، فما أقصر أيامه على الأرض ، ولكن لأنه لم يرسل مشرعا ، ينظم قوانين التوريث ، ويحدد العلاقات بين الحاكمين والمحكومين ، ويسن القوانين ، بل أرسل بشيرا باقتراب ملكوت الله ، الذى ستكون فيه شريعة الله هى القانون السماوى السائد فى دنيا الناس .

٤٢

« فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون » . (قرآن كريم)

الهيكل فى لجمة الليل يتلألأ بالأنوار ، فيبدو كعمود من نور هابط من السماء ، وعيسى وحواريوه على سفح جبل الزيتون يتمددون ، حتى إذا غفلت أعين المدينة ، ومشى الـكرى إلى جفونها ، انسلوا فى خفة إلى بيت نيقوديموس ، فهو يعد لهم وليمة سرا قبل حلول العيد .

كان نيقوديموس ثالث أعضاء السنهدرين ، سمع عيسى لما وعظ فى الهيكل أول مرة ، فتفتح له قلبه ، فذهب إليه متسترا بالليل وقابله ، وأصغى إليه ، ولم ينصرف من عنده حتى صدقه وآمن به ، ولـكنه لم يعلن إيمانه على الملأ ، بل كتمه فى صدره خشية الناس .

وكان عيسى ، كلما وفد إلى أورشليم ، يذهب لمقابلته فى سواد الليل ، يتناجيان ويتحدثان فى الدين ، حتى إذا رق النقاب الأسـود ، وفضحت الشمس أنوار السرج ، جلس نيقوديموس إلى أعضاء السنهدرين يتشاورون فيما يفعلون ، ليتخلصوا من ذلك الذى جاء يستل منهم النفوذ ، فإذا ما أحكموا خطتهم أشار عليهم بما يدع للرسول فرصة الإفلات مما يدبرون .

أنار الضوء المنبعث من الهيكل سفح الجبل ، كان عيسى وسمعان ويوحنا ويعقوب — أحب تلاميذه إلى قلبه — يتسامرون ، وكان الباقون يستلقون على العشب ، يتطلعون إلى السماء ، واستلقى يهوذا الأسخريوطى وحده ، بعيدا عن الجميع .

انعكس على وجهه ما كان يجرى فى صدره . بان فيه قلق وحيرة واضطراب ، إنه غريق لا يدرى ما يفعل ، تتجاذبه تيارات ، تطفو به إلى السطح حينا ، ثم تغوص به إلى القرار السحيق .

الأفكار تتزاحم فى رأسه ، والأحساسات تتدفق فوارة فى جوفه ، والشك يعذبه ويضنيه حتى ليكاد يقف مفزوعا يصرخ فى الفضاء ، معلنا الآراء العنيفة التى تأكل صدره وتطحنه وتقسو عليه ، فيئن أنينا مكتوما يزيد ثورة نفسه ، ويمزق قلبه كسكين .

راح يفكر فى ذلك الجالس بين تلاميذه فى هدوء ، وأخذ يسأل نفسه : من هو ؟ أجاء لسعادتنا ، ليخلص أنفسنا من آلامها ، أم جاء ليعذبنا ويضنى أرواحنا ، ويلقى فى صدورنا بذور الشك القاسية ؟ أجاء يخرج بنى إسرائيل من الظلام إلى النور ، ثم يقودنا نحن — تلاميذه الذين ضحينا بكل شىء فى سبيله — من النور إلى الظلام البغيض ؟ من هو ؟ لست أدرى ، فالقلق يحيرنى ، والشك يكاد يقتلنى ، أهو المسيح ؟ فإن كان المسيح فأين ذلك الملك الدائم إلى الأبد الذى يأتى به المسيح ؟ هاهى ذى الأيام تمر ، ولا أمل ولا بصيص من نور ، إنه يلقى المواعظ ويضرب الأمثال ، والجموع تحشر زمرا ، ثم لا شىء غير الإصغاء ثم الانصراف ، دون أن ينفذ إلى القلوب الإيمان والتصديق ! إذا كان هو المسيح فأين ملكه ؟ سألوه عن دفع الجزية لقيصر فأقر دفعها ، فمتى يبدأ مناوأة السلطان ، ويسود سلطانه على الجميع ؟ انتظر . . انتظر . . انتظر . عيل صبرى ولم يعد فى قوس الصبر منزع ، تبددت آلامنا سدى ، وذهبت آمالنا شعاعا .

انتظر . . . انتظر . . . انتظر ، أما لهذا الانتظار من آخر ؟ الوثنيون يسخرون بالله وهو صامت . لماذا لا ينزل عليهم كسفا من السماء ؟ لماذا لا يقسو فى مهاجمته إلا على الكتبة والفريسيين ، لماذا يدعنا فى حيرة ؟ يقول إنه ما جاء لينقض الناموس ، بل جاء ليكمله ، ثم يقول مرة أخرى إن الخمر الجديدة لا توضع فى زقاق عتيقة . لست أدرى ماذا يبغى بنا ، إنى حائر . . قلق .

إذا اتفقت مواعظه مع الكتبة والفريسيين اطمأن قلبى ، وإذا عارضت آراؤه آراءهم فيا للقلق الذى يساورنى ، ماذا دهانى ، تقوض عش الأمل الذى بنيته فى صدرى ، فصار جوفى خرابا ينعق فيه البوم .

وأراد أن يتخلص من ذلك الكابوس ، فرفع رأسه ونظر ، فخيل إليه أن الأضواء تخفت ، وأن الظلام يمد رداءه ، فيحجب كل شىء ، حتى الهيكل السابح فى النور ، بدا لعينيه سوادا ، ففزع ، فقد رانت على عينيه دكنة قلبه .

وحاول أن يطرد الأفكار التى كانت تلح عليه فى عناد ، يريد أن يركن إلى الهدوء ، ولكن هيهات ، نجوم السماء توحى إليه بأفكار ، وزئير الرياح ينقلب فى أذنيه اعتراضات . تآمر السكون عليه ، وراح يشد أزر نفسه الساخطة ، خيل إليه أن الريح تصرخ : فليأت ملكوتك ؟ فليأت ملكوتك،فأخذ يفكر فى ذلك الملكوت برغمه ، أين ذلك الملكوت ؟ ومتى يأتى ؟ نبتهل إلى الله فى كل صلاة أن يبعثه . ولم يستجب الله الدعاء ، لماذا لا يحدثنا عن ذلك الملكوت ؟ إن كل ما قاله عن ذلك الملكوت أنه كلام الله ، لماذا يتركنا فى حيرة ؟ إننى قلق .. إننى حائر ، الشك يخزنى وخزا ما أقساه !

ورنت فى أذنه أصوات : ينبغى أن يرفع ابن الإنسان ، من هو ابن الإنسان هذا ؟ لم يحر جوابا ، بل تحدث عن النور والظلام ، والسائرين فى النور والظلام ، وتركنا حيارى . من هو ابن الإنسان ؟ من هو ابن الإنسان ؟ لا أدرى ، لا أدرى إلا أن القلق يقتلنى ، والشك يخز قلبى بأصابعه الباردة .

إننى غريق استسلم لليأس ، ولكن لماذا ذلك الاستسلام ؟ ماذا فعلت ؟ ماذا فعلت أنا يهوذا الاسخريوطى حوارى الرسول ، الذى أوحى الله إليه أن آمن بى وبرسولى ؟ فعلت فعلة منكرة ، اتفقت مع أعدائه على أن أسلمه ، أنا يهوذا الأسخريوطى يسلم نبيه ؟ لا . لن يكون ذلك ، لن يسلم يهوذا الأسخريوطى نبيه .

ما هذا القلق ؟ ما هذه الحيرة ؟ يا للشك القاسى المرير ، أريد أن أهدأ . . أن أستريح ، رأسى يكاد أن ينفجر ، قلبى يتمزق ، أنفاسى تضيق ، ليتنى أموت ، أموت وأستريح .

وقام وركع ورفع وجهه إلى السماء ، وانهمرت دموعه ، وأحس أنها تنبع من فؤاده ، وقال فى حرارة صادقة :

ـ أبانا الذى فى السماء ، لماذا اخترتنى لهذه التجربة ، أبتهل إليك أن تنير طريقى ، إنى أخبط فى الظلام ، لا أدرى أين أسير ، إنى قلق . معذب . مضنى ، فأعد يا رب الهدوء إلى قلبى ، والصفاء إلى نفسى ، واهدنى سواء السبيل . .

يا رب رحمتك ، فلئن لم ترحمنى لأكونن من الهالكين .

وخر ساجدا تمتزج دموعه بالتراب .

« يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث ، فإنا خلقناكم من تراب ،
ثم من نطفة ، ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ،
ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى » .

(قرآن كريم)

الهيكل يموج بالجموع ، ووقف الناس حلقات يتحدثون ، الصدوقيون فى ثيابهم الغالية ، وفى أصابعهم الخواتم ، وعلى رءوسهم العمائم على هيئة أهرام ، وعلى شفاههم ابتسامات ساخرة ، كانوا يتحدثون عن هزيمة الفريسيين أمام معلم الناصرة ، قال لهم : ادفعوا الجزية : ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فلم يعترضوا ، لأنهم لو اعترضوا عليه لفضحوا أنفسهم ، وأعلنوا على الملأ عدم ولائهم للامبراطور ، ولم يعترضوا لأن علماءهم يقولون : « قانون الدولة شريعة » ، فلم يكن أمامهم إلا تجرع الهزيمة صامتين .

وراح الفريسيون يتحدثون ، فيبدون حيرتهم ، فهم لا يدرون من هو ، ولا من أين جاء ؟ كلما سألوه سؤالا ليحرجوه ، رد كيدهم إلى نحورهم ، وأجابهم جوابا مفحما ، فلا يملكون إلا الصمت والحيرة ، إنه يحفظ الناموس ، ويستشهد به ، وما تعلم فى مدارس الربيين ، فعلمه عجيب يحيرهم ، ولولا الكبرياء ، لاعترفوا أن ذلك العلم من عند الله رب العالمين .

وتحدث الناس عنه فى خيبة أمل ، جاءت الفرصة ليكسب قلوبهم ، ولكنه تركها تفوت ، لو قال : لا يجوز أن ندفع جزية لقيصر ، لدوت حناجرهم فى الهيكل تهتف له ، ولأقروا جميعا بزعامته ، إنهم أبناء الله ، شعبه المختار ، فلا يليق أن يأتوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، لو أنه شق عصا الطاعة لأيدوه ، فهم يريدون من يخلصهم من قوانين الرومان ، ويعيدهم إلى ناموس الله ، ولكنه لم يفعل ، بل ثبت الخزى والعار ، أعطوا ما لقيصر لقيصر ؟ أهذا قول يقوله

رسول ؟ أكان موسى يقول ذلك لو وجه إليه نفس السؤال ؟ أين يهوذا الجليلى ، الذى أنزل النسر الرومانى عن الهيكل ، ليقود ثورتهم ، بدل ذلك النبى الجليلى ، الذى يهادن أعداء البلاد ؟

تلفت الصدوقيون إرصادا لمقدمه ، كانوا يترقبون حضوره ، ليسخروا منه ومن الفريسيين ، إنه يؤمن بالبعث بعد الموت ، ويشاركه فى ذلك الإيمان الفريسيون ، ولكنهم ما كانوا يصدقون أن الأموات يحيون ، فما أشار الناموس إلى ذلك الموضوع . أعدوا سؤالا يوجهونه إليه عن البعث ، سؤالا يقطر سخرية وزراية ، سيجعلونه ومن لف لفه من الفريسيين أضحوكة الجميع .

وأقبل عيسى ، فارتسمت الابتسامات فى وجوه الصدوقيين ، وتريثوا ، حتى إذا قام يدعو الناس ، وخفت الجموع إليه ، اقتربوا منه فى خيلاء ، وقالوا :

— قال موسى : إن مات امرؤ ولم يعقب ، تزوج أخوه امرأته ، لينجب لأخيه نسلا ، فإذا كان هناك سبعة أخوة ، وتزوج الأول امرأة ومات عنها دون أن يعقب ، فتزوجها الثانى فمات دون أن يعقب ، فتزوجها الثالث فالرابع حتى تزوجت جميع الأخوة ثم ماتت ، فإذا قامت القيامة ، فمن من أزواجها السبعة تتزوج ؟

لمعت عيون الصدوقيين سخرية ، وترقب الفريسيون قوله ، فيا طالما أفحمهم الصدوقيون بمثل هذه الأسئلة المعقدة ، فهى وإن كانت تبدو سخيفة تافهة ، إلا أنها أسئلة قائمة تنتظر ردا ، وأرهفت الجماهير آذانها فى شغف ، وتطلعت إليه تنتظر قوله .

لم يطرق ليفكر ، ولم تظهر فى وجهه الحيرة ، بل قال فى هدوء :

— تضلون ، لأنكم لا تعرفون الكتب ولا قوة الله . فى الآخرة لا يزوجون ولا يتزوجون ، بل يهيمون كملائكة الله فى السماء .

أما البعث ، أفما قرأتم ما قيل لكم على لسان الله القائل : أنا إله إبراهيم ، وإله إسحاق وإله يعقوب ، ليس الله إله أموات بل إله أحياء .

تذكر الناس ما قاله الله لموسى على الجبل : أنا إله إبراهيم ، وإله إسحاق ، وإله يعقوب ، إنه إله هؤلاء الأنبياء الأحياء عنده ، هذا مكتوب فى الناموس ، وهذا دليل على الآخرة ، فإذا كانوا لم يفطنوا إليه ، فليس الذنب ذنب الناموس ، بل عيب عيونهم المغلقة .

وفرح الفريسيون ، فها هو ذا يسوق الدليل الذى يؤيدهم من الناموس ، وارتفعت أصواتهم بالتهليل ، حتى غطت أصوات الاعتراض المنبعثة من الصدوقيين الكافرين باليوم الآخر .

ودنا فريسى منه وسأله :

-- ما أعظم وصية فى الناموس ؟

ـ إن أول كل الوصايا هى: اسمع ياإسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد . وحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل فكرك ، ومن كل قدرتك . هذه هى الوصية الأولى . والثانية هى : حب قريبك كنفسك . ليس هناك وصية أخرى أعظم من هاتين .

— نطقت صدقا . لأن الله واحد لا آخر سواه ، ومحبته من كل القلب ، ومن كل الفهم ، ومن كل النفس ، وكل القدرة . ومحبة الغير كالنفس هى أفضل من كل الذبائح والقرابين .

فرنا عيسى إلى الفريسى فى عطف ، وقال له :

— لست بعيدا عن ملكوت الله .

ونظر إلى الجمع وقال :

— بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء .

هاتان الوصيتان هما ركنا كل دين ؛ الدعوة إلى الله وحده لا شريك له ، فما جاء رسول إلا ليدعو قومه إلى الله الواحد القهار ، لا يشرك معه إلها آخر ، والدعوة إلى المحبة والخير ، إلى أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه .

إنها الدعوة الخالدة ؛ دعوة نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى والنبيين ، ودعوة عيسى المسيح ، ودعوة من جاء يبشر به ، ويدعو فى صلاته أن تأتى أيامه ، أيام الملكوت المرتقب .

وانصرف عيسى ، وجلس أمام خزانة الصدقات وحواريوه حوله ، وأقبل الناس يلقون النقود ، فراح الأغنياء يضعون فى زهو مبالغ كبيرة ، وجاءت امرأة فقيرة ، ووضعت فى هدوء فلسين ، فالتفت إلى تلاميذه وقال :

— هذه الفقيرة ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا فى الخزانة ، لأن الجميع ألقوا من فضولهم ، أما هذه فقد ألقت من عوزها ، ألقت كل ما عندها .

٤٤

« يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ قل إنما علمها عند ربى »
« قرآن كريم »

انطلقوا صامتين ، وإن كان كل منهم مشغولا بأفكاره ، عيسى حزين لتلك العداوة وذلك العناد البادى من الفريسيين ، حاربوه فى اليهودية ، وحاربوه فى الجليل . حتى من مدينة كفر ناحوم أخرجوه ، كانوا يتظاهرون أنهم على استعداد ليصدقوه ، لو أتاهم بآية من الله ، لتطمئن قلوبهم ، ولكنهم ما كانوا يصدقونه ولو انفتحت فى السماء أبواب ، وهبطت عليهم منها الملائكة المكرمين ، فقد كان كل ما يرمون إليه أن يشككوا الناس فيه .

ذهب إليهم وهو يطمع فى أن يؤمنوا به ، قبل أن يتوفاه الله ، ولكنهم لجوا فى العداوة والنكران ، رفضوه وبالغوا فى الرفض ، حتى تقطعت خيوط الأمل ، فقام يصفعهم برأيه فيهم ، ويغلق خلفه الباب . كان ثائرا كبركان ، حتى إن الجماهير حدقوا فيه مذهولين ، فما كان الذى ينفث تلك الحمم عيسى الوديع ، بل يحيى الثائر قام من الأموات .

وسار حواريوه ترن فى آذانهم كلماته ، فيأخذون فى التفكير ، فما حدث اليوم فى الهيكل هو فراق ما بينه وبينهم ، لن يكون هناك مجال للتوفيق ، كان تقريعه للفريسيين قاسيا ، ولولا جموع الحجاج ، لهجموا عليه وقتلوه ، راح يصرخ فيهم : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون » . « ويل لكم أيها القادة العميان » هتك رياءهم أمام الناس ، وتركهم فى الهيكل عظاما نخرة .

وخرجوا مطرقين ، والتفت أحد تلاميذه إلى الهيكل ، والشمس ترسل أشعتها إليه ، فتنعكس ذهبا وهاجا ، كان منظرا يملأ النفس روعة ، فأراد أن يسرى عن نبيه ، فقال له :

— انظر ، يا لهذه الحجارة وهذه الأبنية !

فقال له عيسى وقد اكفهر وجهه :

— أترى هذه الأبنية العظيمة ! ستنقض ، ولن يبقى حجر على حجر .

وعض يهوذا على نواجذه ، ورفع يده إلى شعره يجذبه فى حنق ، فما بال كلمات عيسى تقطر فى هذه الأيام مرارة ؟ أجاء إلى بنى إسرائيل بالأمل ، أم جاءهم بالنقمة والعذاب ؟ ما ذنب الهيكل المقدس حتى يصب عليه لعنته ؟ إذا كان الفريسيون والكتبة رفضوه ، فقد ثار فى وجوههم وألقمهم أكثر من حجر ؟ وسقط يهوذا فريسة للشك والقلق والحيرة .

وراحوا يرقون جبل الزيتون ، وعلى سفحه جلسوا ، عيسى فى إطراقه الحزين والشمس فى الغروب ، والشفق أحمر ، ولكن كل شىء فى عينيه ليل سرمد ، انقضت أيام رسالته ، وما أقل الذين آمنوا به ، وما أندر من فهموه .

ودنا منه بطرس ويعقوب ويوحنا وأندراوس ، وسألوه عن القيامة ، ومتى هى ؟ فقال لهم :

— إذا سمعتم بحروب وبأخبار حروب ، فلا ترتاعوا ، فهذا لا بد أن يكون ، ولكن ذلك ليس المنتهى ، فستقوم أمة على أمة ، ومملكة على مملكة ، وتقع زلازل ومجاعات واضطرابات . هذه هى مبدأ الأوجاع .

انظروا إلى نفوسكم ، سيسلمونكم إلى المجالس ، وتجلدون فى المجامع ، وتوقفون أمام ولاة وملوك من أجل شهادة لهم ، وينبغى أن يكرز (يعظ) ببشارة الملكوت فى جميع الأمم ، فمتى ساقوكم ليسلموكم فلا تهتموا من قبل بما تتكلمون به ، بل تكلموا بما يوحى إليكم ، لأنكم لستم المتكلمين بل الروح القدس .

سيسلم الأخ أخاه إلى الموت ، والأب ولده ، ويقوم الأبناء على آبائهم يقتلونهم ، وسيكرهونكم من أجلى ، ولكن من يصبر فهذا هو الفائز .

فمتى نظرتم رجفة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس ، فليهرب الذين فى اليهودية إلى الجبال ، ولا ينزل من على السطح ليأخذ من بيته شيئا ، ولا يرجع من فى الحقل ليأخذ ثيابه ، وويل للحبالى والمرضعات فى تلك الأيام .

إن قال لكم أحد هوذا المسيح هنا ، أو هوذا هناك فلا تصدقوه ، فسيقوم مسيحون كذابون ، وأنبياء كذابون ، يأتون بآيات وعجائب ليضلوا المختارين أيضا ، لو أمكن ، فانتظروا . هأنا قد سبقت وأخبرتكم بكل شيء .

تظلم الشمس بعد ذلك الضيق ، وتمحى آية القمر ، وتهوى النجوم ، وتتزعزع قوات السماء[1] ، أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ، ولا الملائكة الذين فى السماء ، علمها عند الله .

انظروا واسهروا وصلوا ، لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت . اسهروا لأنكم لاتعلمون متى يأتى رب البيت ، أمساء أم صباحا ؟ أم يأتى بغتة فيجدكم نياما . ما أقوله لكم أقوله للجميع : اسهروا .

انفعلوا جميعا للحديث ، أهو حديث وداع ، أهو إنذاره الأخير ، وراحوا جميعا يفكرون ، فما كان لهم إلا التفكير ، وهاجت وساوس يهوذا ، وثارت نفسه ، مابال عيسى يتحدث عن قيام الأبناء على الآباء ، وجلد حوارييه فى المجامع ، ما بال بشاراته انقلبت حزنا ورعبا ؟ أين ملك المسيح الذى سيدوم إلى الأبد ؟ ومتى هو ذلك اليوم الذى تظلم فيه الشمس ، وتتساقط من السماء النجوم ؟ إنه يحس كأنما صار ريشة تعابثها الرياح ، لماذا يعذبهم بأحاديثه المغلفة بالغموض ؟ لماذا لاينير لهم الطريق ، إنه يخبط فى الظلام ، لا يجد من يهديه .

يا رب ، قليل من النور ؛ انتشر فى كهف صدره ظلام ثقيل ، فران على البقية الباقية فى قلبه من الإيمان والتصديق ، الشك يحزه ويعذبه ، أقلعت الطمأنينة ، وتركته للقلق والاضطراب ، ليته يستطيع أن يكفر به ويستريح .

---

(١) ذكر بعد ذلك فى الأناجيل : « لايمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله » ولما كان ذلك الجيل قد مضى ولم تتحقق النبوءة ، ولما كنت لا أعتقد أن نبيا يخبر خبرا ثم لايصدق ؛ حذفت النبوءة ، واعتبرتها زائدة ، وقد فعل مثل ذلك تولستوى فى إنجيله الذى نسقه من الأناجيل ، فقد حذف كل ما ظنه زائدا .

ألفت كتب كثيرة لإزالة الاعتراضات التى قامت حول هذه النبوءة . ولم تصل هذه الكتب إلى شيء ، بل زادت الأمر تعقيدا .

٤٥

« ولا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون » .
(قرآن كريم)

قاعة واسعة مدت فيها الموائد ، وجلس حولها الكتبة والفريسيون ؛ أعداء الأمس ، وحلفاء اليوم ، ألفت بينهم المشاركة فى بغض عيسى ، ذلك الخطر المترجح فوق رءوسهم : سخر منهم فى المجمع أمام الوفود ، وسخريته قاسية مريرة ، أمضى من السيف .

كلماته التى ألقاها فى وجههم ترن فى آذانهم ، فتفجر المقت فى أجوافهم ، وتجعل دماء الحقد تتدفق فوارة فى عروقهم ، كانت كلماته كجمرات من نار أحرقت نفوسهم ، وتركت كبرياءهم رمادا .

تقريعه لهم لا يزال يرن فى جنبات الهيكل ، وقد حفر فى أذهان الملأ ، وسيصبح قصة إذا ما انقضى العيد وعاد الناس إلى ولاياتهم . فى الجليل وفى اليهودية وفى الأردن وفى مصر وفى سورية وفى بابل وفى اليونان ، سيرددون سخريته بهم « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون . فاحفظوا كل ما يقولون لكم وافعلوه ، ولكن لا تعملوا حسب ما يفعلون ، فهم يقولون ولا يفعلون . . . يعملون كل أعمالهم لوجه الناس ، يعرضون عصائبهم ، ويعظمون أهداب ثيابهم . . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لأنكم تطوفون البر والبحر لتهدوا واحدا ، ومتى هديتموه قدعوه إلى الجحيم » .

كانت سهام تهكمه فتاكة ، كفيلة بأن تهدم أمة ، فلو أنهم صبروا عليه حتى يوم العيد ، لقام بين الجموع يرشقهم بسهام نقده ، ويركبهم بسخريته ، فتضيع هيبتهم ، ويهون على الناس أمرهم . الأرض تميد تحت أقدامهم ، فإذا لم يثبتوها بدمائه ، انشقت وبلعتهم ، وإنه لأيسر عليهم أن يقتلوه من أن يزول سلطانهم .

لما التأم جمعهم ، راحوا يتباحثون ، كان قتله رأى الجميع ، ولكنهم اختلفوا فى التنفيذ ، إذا تركوه حتى انقضاء العيد أفسد عليهم الناس ، وإذا قتلوه فى العيد ، فقد تثور الجموع ، فالجماهير متقلبة ، ترضى اليوم وتغضب غدا ، وتبرم أمراوسرعان ما تنقضه ، وتزهق روحا ثم تبكى على الشهيد ، فمن يدرى إذا ما قتلوه أن يعلن الثورة من لم يؤمنوا به !

كان الكتبة والفريسيون يتدبرون ، وكان يهوذا الأسخريوطى منطلقا بقامته الطويلة وشعره الأسود ، وعينيه القلقتين فى شوارع أورشليم ، يكاد ينفجر من الحنق ، فقد حدث اليوم ما أشعل فى نفسه الثورة ، فتأججت قوية عاتية ، حتى فاقت كل ما سبقها من ثورات .

ثار يوم سكبت مريم المجدلية قارورة نادرة من الطيب لتدهن بها قدميه ، ولم يرشدها — وهو الرسول المتقشف — إلى طريق الخير ، إلى أنها لو تصدقت بثمنها لكان ذلك أذكى وأطيب . وحنق لما رآه يتوعد — وهو رسول الرحمة — الهيكل المقدس ، كان يهوذا يحب الهيكل ، فهو أمل بنى إسرائيل ، فحرك غضبه أن يرى سيده يصب عليه اللعنة .

ولكن ما حدث اليوم فجر مرجل غضبه ، وأجج نار قلقه ، فعيسى استقر فى بيت عنيا ، وراح يمضى يومه فى بيت مريم ، ركن إلى الهدوء ولن يخرج إلى الهيكل ، يدعو الناس إلى ربه ، كأنما غسل يديه من رسالته .

ليته يخرج ويثور فى وجوه الجموع الجاحدة الكافرة ، ليته يأتى هنا بآية ، كتلك الآيات التى أتى بها فى الجليل ، ليته يفعل شيئا بدل ذلك الهدوء البغيض ، فيهوذا من كل قلبه يتمنى أن يقوم عيسى بعمل يدعم رسالته ، يمحو طبقات الشك التى تراكمت فى جوفه ، حتى كادت تخنق ما فى فؤاده من إيمان وتصديق .

ولحه أترابه ، فيهوذا من اليهود ، وليس كباقى الحواريين من الجليل ، فخفوا إليه ، وراحوا يسخرون من معلمه ، ومن تعاليمه ، ومن الملكوت الذى يبشر به ، فأحس كأن سخريتهم خناجر تمزق قلبه ، وتزيد نار غضبه اندلاعا .

وقفزت إلى رأسه فكرة ، إذا كان عيسى قد ركن إلى الدعة ، أو إذا كان قد استسلم لليأس ، فسيضطره إلى العمل ، سيحرض أعداءه عليه ، سيرشدهم إلى

مقره حتى يعود إلى الكفاح ، فالاحتكاك بالأعداء كفيل بإذكاء روح المقاومة فيه .

سيرشدهم إليه ليخرجه من عزلته ، فقد ينتصر عليهم فى العيد ، وتؤمن به الوفود ، فيكون ذلك قبس النور الذى يبدد الليل السرمد ، ويمهد الطريق إلى ملك المسيح الدائم ما دامت الأرض والسماء .

لو آمن الناس به فى العيد ، لانقشعت عن عينى يهوذا الغشاوة ، وتبخر الشك القلق الحائر الجوال فى نفسه ، فذلك الإيمان يحيي الأمل فى إمكان تأسيس مملكة المسيح ، التى جاءت بها البشارات .

وقام فى نفسه اعتراض ؛ إنه يسلم سيده إلى أعدائه إذا أرشدهم إليه ، وما كان يجب أن يمسوه بسوء . إنه شك فيه ، وانتابه قلق ، ولكن ذلك ما كان ليدفعه إلى تسليمه .

وكاد يعدل عن تلك الفكرة ، ولكن ذهنه أمده بما يؤيده فيما ذهب إليه ، إنه لو أرشدهم إلى عيسى لجدد شباب الدعوة ، فلا خوف عليه منهم ، فيا طالما حاولوا أن يمسكوه ، ولكنه كان يجتاز فى وسطهم كالطيف ، فلن يستطيعوا أن يمسوه بسوء .

كان يهوذا يتخبط ، لا يدرى حقيقة عواطفه ، كان يشك فيقلق ويثور ، وكانت تهب عليه نسائم من الإيمان فيثور على ثورته ، فكان قلقا مضطربا ، كل ما يبغيه أن يعيد إلى نفسه الطمأنينة والهدوء .

وانسل يهوذا إلى حيث كان الكتبة والفريسيون مجتمعين ، وقعد بينهم يصغى إلى آرائهم ، كادوا يجمعون على تركه حتى تتفرق الجموع ويعود الحجاج إلى دورهم ، ثم ينقضون عليه ويقتلوه ، ولكنه قال لهم إن خير ما يفعلونه أن يقبضوا عليه قبل العيد ، فى مكان خلاء ، بعيدا عن محبيه ، وأعجبتهم الفكرة ، ووافقوا عليها ، وخرج يهوذا ، وهو يأمل أن يكون ما فعله هو بداية مملكة المسيح الدائمة ، بداية النور الذى يفضح ظلام قلبه .

٤٦

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » .

(قرآن كريم)

جلس عيسى صامتا مطرقا ، ولاح فى وجهه حزن ، وراحت مريم المجدلية ترنو إليه ، فتستشعر أسى ، ولكنها ما كانت قادرة على أن تكلمه ، كانت تحترم صمته ، ولا تجرؤ أن تخرجه من أفكاره ، وإن كانت فى قرارة نفسها تحس أنها أفكار حزينة ، مغرقة فى الحزن .

وجلس لعازر والحواريون صامتين ، يترقبون أن يقول عيسى شيئا ، فشمس عيد الفصح تدرج لتحتل كبد السماء ، وأحس عيسى أن عيونهم مصوبة إليه ، فرفع رأسه وقال لبطرس ويوحنا :

— اذهبا وأعدا لنا الفصح[1] لنأكل .

— أين تريد أن نعده ؟

إذا دخلتما المدينة يستقبلكما إنسان حامل جرة ماء . اتبعاه إلى البيت حيث يدخل ، وقولا لرب البيت : يقول لك المعلم أين المنزل حيث آكل الفصح مع تلاميذى ؟ سيريكما علية كبيرة مفروشة ، فأعداه هناك .

وخرج بطرس ويعقوب ، وغادرا بيت عنيا ، ودرجا فى طرقات جبل الزيتون فلاح لهما الهيكل يتألق فى الشمس كالذهب ، وانطلقا إلى أورشليم ، والشمس عالية فى السماء ، ولا ظل لشىء على الأرض ، فقد كان الوقت ظهرا .

ولمحا رجلا يحمل جرة ماء ، وما أندر أن يحمل رجل جرة ، فذلك عمل النساء ، فانطلقا فى أثره حتى إذا دخل بيتا دخلاه ، وحدثا صاحبه ، فإذا به صديق من أصدقاء المسيح ، وعرفا مكان الاجتماع ، ثم ذهبا إلى الهيكل ليقدما النحائر .

---

(١) فى الأناجيل اضطراب حول هذا اليوم ، حتى إنه لايمكن الجزم أكان هذا العشاء فصحا حقيقيا أم ما يشبه الفصح !

أخذت الشمس تنحدر نحو الأفق الغربى ، وقرعت طبول الهيكل الفضية إيذانا ببـدء النحر ، فتدفق اليهود يسوقون ذبائحهم أمامهم ، وغص الرواق بالاسرائيليين ، ووقف على الدرج الـكهنة اللاويون يقرعون الطبول ، إعلانا للمدينة المقدسة أن ذبائح الفصح تذبح ، وراح الحجاج يصعدون الدرج اثنين اثنين ، ويقدمون قرابينهم لتنحر ، ويتلقى كاهن دماءها فى قلجانة ذهبية ، وتنتقل الفلجانة من كاهن لـكاهن حتى تصل إلى الـكاهن الأكبر ، الواقف أمام المذبح المقدس ، فيلقى بالدم فيه .

وذبح بطرس ويوحنا الذبائح ، وعادا إلى مكان الاجتماع ، يعـدان الفطير ، وحمل الفصح ، وانتظرا وفود المسيح وإخوانهم .

وغابت الشمس وراء جبل الزيتون ، وخرج عيسى وحواريوه من بيت عنيا ، وذهبوا إلى المدينة المقدسة ، كانت شوارعها غاصة بالجماهير ، فراح عيسى يخترق جموعهم دون أن يعرفه أحد ، كانوا يهرعون إليه إذا قام فى الهيكل يدعوهم إلى الله ، أما إذا سار بينهم فما كانوا يميزونه من آلاف الجليليين الغادين الرائحين فى المدينة .

دلفوا إلى مكان الاجتماع ، فإذا موائد الفصح مدت ، وإذا الأرائك صفت ، فذهبوا يتكئون . فحاول كل من الحواريين أن يجلس إلى جوار المسـيح ، وارتفعت بينهم المشادات ، كل منهم يحاول أن يثبت أنه أعظم من زميله ، فزاد ذلك الشقاق فى حزنه ، فحواريوه لم يفهموه ، ولم تؤثر فيهم تعاليمه .

جاءته يوما سالومى أم يعقوب ويوحنا ، تلتمس منه أن يسمح لابنيها أن يجلسا معه فى ملـكوته ، أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، كانت تحسب أن ملـكوته عالما كائنا فوق السحاب ، فأرادت لابنيها السلطان ، وما جاءته من تلقاء نفسها ، بل دفعها إلى ذلك أحب حوارييه إليه ، وهاهم أولاء فى ساعاته الأخيرة يتنافسون ، كأنما يتنازعون ميراث ملك أو سلطان .

وأراد أن يضع حدا لنزاعهم ، فقال لهم :

— اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أمضى .

فصمتوا ، وأخذوا يأكلون ، ثم تناول كأسا وقال :

— خذوا هذه واقتسموها بينـكم ، لأنى أقول لـكم إنى لا أشرب من نتاج الـكرمة حتى يأتى ملـكوت الله .

وفرغوا من الطعام ، وقام عيسى يغسل أيديهم[1] ، فتعاظموا ذلك ، وتكارهوه ، وقال بطرس فى إنكار :

— أنت تغسل يدى ؟ ! أبدا .

— لا تعلم الآن ماذا أصنع ، ولكن ستفهم فيما بعد .

— لن تغسل يدى أبدا .

— ألا من رد على شيئا الليلة مما أصنع فليس منى ، ولا أنا منه .

فقال بطرس :

— هاك يدى ورجلى ورأسى .

فلما فرغ من ذلك ، قال لهم :

— أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام ، وغسلت أيديكم بيدى ، فليكن لكم بى أسوة ، فإنكم ترون أنى خيركم ، فلا يتعظم بعضكم على بعض ، وليبذل بعضكم لبعض نفسه ، كما بذلت نفسى لكم .

الحق الحق أقول لكم : إنه ليس عبد أعظم من سيده ، ولا رسول أعظم من مرسله .

الحق الحق أقول لكم : الذى يقبل من أرسله يقبلنى ، والذى يقبلنى يقبل الذى أرسلنى . وصمت عيسى قليلا ، ثم قال :

— أنتم الذين ثبتوا معى فى تجاربى ، ستكونون معى فى ملكوت الله ، تأكلون وتشربون على مائدتى ، وتجلسون على كراسى ، تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر .

اطمأن يهوذا إلى أفكاره التى احتلت رأسه ، فهاهو ذا المسيح يضمن له الجنة ، ويعده بكرسى يدين سبطا من أسباط بنى إسرائيل ، فلوكانت تلك الأفكار جرة شريرة ، لحرمه من ملكوت الله ، فقوى ذلك القول عزمه ، فاستأذن من المسيح فى أن يذهب لقضاء حاجة ، فقال له عيسى :

— ما أنت فاعله افعله سريعا .

فخرج يهوذا وانطلق إلى الهيكل ، ليخبر أعداء المسيح عن مكانه ، ليخرجه من عزلته ، لينفث فيه روح المقاومة والجلاد ، ليجدد شباب الدعوة ، انطلق وهو يحس فى أعماقه أن المسيح يبارك خطواته .

---

(١) ذكر فى الأناجيل أنه قام يغسل لهم أرجلهم ، وأنه خلع ثيابه واتزر بالمنشفة .

٤٧

« وإذ قال عيسى ابن مريم ، يا بني إسرائيل ، إنى رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين »
(قرآن كريم)

كان الحزن مخيما على جو الاجتماع الأخير ، عيسى يعظهم ويحدثهم عن موته ، وعن القادم بعده ، وهم فى حيرة لا يفهمون ، راح يقول لهم :

— لا تضطرب قلوبكم ، أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بى ، فى بيت الله منازل كثيرة ، قلت لكم : إنى ذاهب لأعد لكم مكانا ، فإن مضيت وأعددت لكم مكانا ، آتى وآخذكم إلى ، فحيث أكون تكونون ، وحيث أذهب تعلمون الطريق .

فقال له توما :

— يا سيد ، لا نعلم أين تذهب ، فكيف نعرف الطريق ؟

— أنا هو الطريق والحق والحياة . لا يأتى أحد إلى الله إلا بى . لو كنتم عرفتمونى لعرفتم الله أيضا .

قال له فيلبس :

— يا سيد أرنا الله وكفانا .

— الذى رآنى فقد رأى الله ، والكلام الذى أكلمكم به لست أتكلم به من نفسى ، ولكن يوحيه الله إلى .

إنى ذاهب إلى الله ، فإن كنتم تحبوننى ، فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الله فيعطيكم (فراقليط)[1] آخر يمكث معكم إلى الأبد ، روح الحق الذى

---

(١) فراقليط لفظة يونانية ترجمتها جمعية التوراة الأمريكية (بالمعزى) ، وترجمها الكتاب المسلمون (بأحمد) ووضح الأب عبد الواحد داود الأشورى العراقى فى كتابه (الإنجيل والصليب) ، الكلمات اليونانية التى فى التوراة والإنجيل بمعنى أحمد وإسلام .

لا يستطيع العالم أن يقبله ، لأنه لا يراه ولا يعرفه ، وأما أنتم فتعرفونه ، لأنه ما كث معكم ويكون فيكم .

الذى لا يحبنى لا يحفظ كلامى ، والكلام الذى تسمعونه ليس لى ، بل لله الذى أرسلنى ، بهذا كلمتكم وأنا معكم ، وأما (الفراقليط) الروح القدس الذى سيرسله الله ، فهو يعلمكم كل شىء ، ويذكركم بكل ما قلت لكم .

قلت لكم : أنا ذاهب ثم أعود إليكم ، فلو كنتم تحبوننى كنتم تفرحون ، لأنى ذاهب إلى الله ، والله أعظم منى .

فقال له سمعان بطرس :

— يا معلم ، إنى مستعد أن أمضى معك إلى الموت(١) .

فنظر عيسى إليه فى إشفاق ، وقال له :

— أقول لك يا بطرس لا يصيح الديك اليوم قبل أن تنكر ثلاث مرات أنك تعرفنى .

وحدث هرج فى المكان ، حتى فى لحظاته الأخيرة يختلفون ، فقال لهم :

— قوموا ننطلق من ههنا .

فقاموا وخرجوا إلى المدينة المحتفلة بالعيد ، كان القمر يرسل أشعته الفضية ، فيكسى المدينة العتيقة ثوبا قشيبا ، وتلألأ الهيكل فى الفضاء مزهوا ، وساروا حتى إذا بلغوا جبل الزيتون ، راحوا يصلون خاشعين ، ويبتهلون إلى الله .

أحببت ، لأن الله يسمع تضرعاتى ،
لأنه أمال أذنه إلى
فأدعوه مدة حياتى ،
اكتنفتنى حبال الموت ،
أصابتنى شدائد الهاوية
كابدت ضيقا وحزنا .
وباسم الرب دعوت .
آه يارب . نج نفسى .

---

(١) ذكر فى إنجيل لوقا : إنى مستعد أن أمضى معك حتى إلى السجن . وقد حذفت « السجن » لأن الحديث حديث وداع ، ويدور حول الموت .

وجلسوا على سفح الجبل ، وراح يوصيهم :

— هذه وصيتى ، أن يحب بعضكم بعضا ، كما أحببتكم . ليس هناك حب أعظم من أن يضع المرء نفسه لأجل أحبائه . أنتم أحبائى إن فعلتم ما أوصيكم به . بلغتكم كل ما أوحى الله إلى ، أوصيكم أن يحب بعضكم بعضا .

اذكروا الكلام الذى قلته لكم ، ليس عبد أعظم من سيده ، إن كانوا قد اضطهدونى فسيضطهدونكم ، وإن كانوا قد حفظوا كلامى فسيحفظون كلامكم ، ولكنهم يضطهدونكم من أجلى ، لأنهم لا يعرفون الذى أرسلنى .

لو لم أكن قد جئت ودعوتكم إلى الله ، ما كانت لهم خطية ، أما الآن فلا عذر لهم ، الذى يبغضنى يبغض الله ، لو لم أكن قد أتيت لهم بآيات من الله ما كانت لهم خطية ، أما الآن فقد رأوا آيات ربى ، وكفروا بالله ورسوله .

ومتى جاء (الفراقليط) الذى سيرسله الله ، روح الحق الذى من عند الله ينبثق ، فهو يشهد لى ، وتشهدون أنتم أيضا ، لأنكم معى من الابتداء[١] .

قد كلمتكم بهذا لكى لا تعثروا ، سيخرجونكم من الجامع ، بل تأتى ساعة يظن فيها كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله[٢] ، وسيفعلون هذا بكم لأنهم لم يعرفوا الله ولا عرفونى ؛ كلمتكم بهذا حتى إذا جاءت الساعة تذكرون أنى قلت لكم ، ولم أقل لكم من البداية لأنى كنت معكم .

أما الآن . فأنى ماض إلى الذى أرسلنى . ولا يسألنى أحد منكم أين تمضى ، ملأ الحزن قلوبكم ، لأنى قلت لكم هذا ولكن أقول لكم : إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم (الفراقليط) ، ولكن إن ذهبت أرسله

---

(١) لم يشهد أن عيسى رسول الله إلا القرآن والحواريون والموحدون الأوائل .

(٢) فى سنة ٣٢٥ بعد الميلاد اجتمع مؤتمر نيقية ، وكان مكونا من ألف راهب ، لحل مشكلات الدين ، والفصل فيها . حاول « آريوس » رئيس الموحدين البرهنة على أن المسيح « عبد الله » وحاول « أناتاثيوس » الشماس السكندرى أن يبرهن (التثليث) وكان متأثرا بالديانه المصرية القديمة . اعترف بعبودية المسيح ثلثا المؤتمرين ، ولكن قسطنطين ، وكان قد تنصر وكان حديث عهد بالوثنية انضم إلى الأقلية الداعية إلى التثليث ، وقتل الموحدين ، وهو يحسب أنه يؤدى خدمة لله : وأحرقت جميع الكتب الداعية إلى التوحيد ، ولم تبق إلا الكتب التى أقرها مؤتمر نيقية .

إليكم . لى أمور كثيرة لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق . لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمعه يتكلم به[١] .

بعد قليل لا تبصرونى ، ثم بعد قليل أيضا ترونى ، لأنى ذاهب إلى الله .

فراح تلاميذه يتهامسون :

— ما هو هذا الذى يقول لنا ، بعد قليل لا تبصرونى ، ثم بعد قليل أيضا ترونى ، لأني ذاهب إلى الله ؟ ما هو هذا القليل الذى يقول عنه ، لسنا نعلم بماذا يتكلم ؟

وفطن المسيح إلى حيرتهم ، فقال لهم :

— أعن هذا تتساءلون فيما بينكم ، لأنى قلت : بعد قليل لا تبصرونى ، ثم بعد قليل أيضا ترونى ؟ الحق الحق أقول لكم ستبكون وتنوحون ، والعالم يفرح . ثم أنتم ستفرحون ؛ سيتحول حزنكم إلى فرح .

لم يفهموا مرمى حديثه ، سيفرح الناس لما يرون على الصليب رجلا يحسبونه المسيح ، وسيحزنون هم ويبكون ، ولكن حينما يعرفون أن الذى صلب كان غيره ، سيتحول حزنهم إلى فرح شديد .

واستأنف حديثه ، وقال لهم فيما قال :

— هوذا تأتى ساعة ، وقد أتت ، الآن تتفرقون فيها ، كل واحد إلى خاصته وتتركوننى وحدى ، وأنا لست وحدى لأن الله معى ، قد كلمتكم بهذا ليكون لكم سلام ، سيكون لكم ضيق فى العالم ، ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم .

ورفع عيسى عينيه إلى السماء وقال :

— يارب ، قد أتت الساعة ، كتبت على أن أشرب هذه الكأس ، فلتكن مشيئتك .

يارب ! هذه هى الحياة الأبدية : أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ، وعيسى المسيح الذى أرسلته[٢] .

---

(١) قال الله تعالى فى القرآن مخاطبا النبى محمدا (ص) « واتبع مايوحى إليك من ربك ، إن الله كان بما تعلمون خبيرا » .

(٢) هذا النص جاء فى إنجيل يوحنا ويشبه قول المسلمين : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن عيسى رسول الله .

الآن علموا أن كل ما أعطيتنى هو من عندك . لأن الـكلام الذى أعطيتنى قد أعطيتهم ، وهم قبلوا وعلموا يقينا أنى خرجت من عندك ، وآمنوا أنك أنت الذى أرسلتنى . يارب ، لم يعرفك العالم ، أما أنا فقد عرفتك ، وهؤلاء عرفوا أنك أرسلتنى .

ولف الحزن جبل الزيتون بغلالة سوداء ، لم يقو ضوء القمر أن يفضحها ، فقام عيسى وسار صوب وادى قدرون ، وسار تلاميذه مطرقين صامتين ، وصوته يرن فى آذانهم :

— أنا قد غلبت العالم .

٤٨

« ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين »

(قرآن كريم)

« تآمر الرؤساء معا على الرب ومسيحه قائلين : لنقطع قيودهما ، ولنطرح عنا ربطهما . الساكن فى السموات يضحك ، الرب يستهزىء بهم » مزامير [٢ : ٢ — ٤]

أشجار الزيتون الضخمة تحجب ضوء القمر عن وادى قدرون ، فيلف المكان ظلام دامس ، والسكون عميق يبعث فى النفوس رهبة ، وعيسى وحواريوه ينسابون كأطياف ، وإن كانت خطواتهم ثقيلة حزينة ، فعيسى يحس أن أيامه على الأرض انقضت ، بعد أن أوحى الله إليه أنه متوفيه ورافعه إليه ، والحواريون يستعيدون أقواله ويفكرون فيها ، ويمعنون فى الفكر ، فلا يهتدون إلى شىء . «خرجت من عندالله ، وأيضا أترك العالم وأذهب إلى الله» «أنا معكم زمانا يسيرا ، ثم أمضى إلى الذى أرسلنى . ستطلبوننى ولا تجدوننى ، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا » ماذا يقصد بهذا ؟ وكيف لا يستطيعون أن يذهبوا حيث يكون هو ؟ وكيف يذهب إلى الله ؟ أقوال غامضة لم تقدر عقولهم على كشفها .

وابتعدوا عن أسوار المدينة العتيقة ، وهم يفكرون فى أقواله : « كلكم تشكون فى هذه الليلة » كيف يشكون فيه وقد آمنوا به وصدقوه ، إن إيمانهم به عميق ، فهم يؤمنون أنه رسول الله ، فلن يشكوا فيه أبدا .

ودخلوا ضيعة جثسيمانى ، وكانت ليوسف الرامى ، وهو صديق من أصدقائه ، وكان ينفرد فيها بحوارييه كلما جاءوا إلى أورشليم . كان القمر يرسل أشعته ، فيبدو العشب أخضر زاهيا ، والضوء يتخلل أشجار الزيتون ، فتتبعثر فى ظلها دنانير فضية ، كانت ليلة رائعة ولولا الحزن المنبعث فى أجوافهم ، والرهبة المسيطرة عليهم ، لكانت ليلة موحية بالأفكار والأمثال .

والتفت إلى حوارييه ، وقال بصوت حزين :

— اجلسوا ههنا حتى أمضى وأصلى هناك .

وانطلق وأخذ معه بطرس وابنى زبدى يعقوب ويوحنا ، حتى إذا ابتعد عن باقى حوارييه ، ظهر فى وجهه الأسى ، وجزع من الموت ، فالتفت إلى أحب تلاميذه إليه وقال :

— نفسى حزينة حتى الموت . امكثوا ههنا واسهروا معى .

وجلس بطرس ويعقوب ويوحنا ، وتقدم خطوات ليصلى لله ، وما مست أجسام أحب حوارييه إليه الأرض حتى راحوا فى سبات .

وخر عيسى ساجدا ، وراح يدعو الله :

— إلهى ، إن أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس ، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت .

وظل فى صلاته وابتهالاته ودمعه سروب ، ثم قام وذهب إلى تلاميذه الذين دعاهم ليسهروا معه ، فألفاهم نياما ، فجعل يوقظهم ويقول :

— سبحان الله ، أما تصبرون لى ليلة واحدة . اسهروا وصلوا ، أما الروح فنشيط ، وأما الجسد فضعيف .

وجلس معهم قليلا ، فأحس رغبة فى الصلاة ، فقام وتركهم ، وما خلا بنفسه يدعو الله حتى عادوا للنوم .

وخر ساجدا ، وراح يدعو الله :

— إلهى : كتبت على أن أشرب هذه الكأس ، فلتكن مشيئتك .

واستمر فى دعائه ، ثم جاءهم فوجدهم نياما ، فأيقظهم ، فقالوا له :

— والله ما ندرى ما لنا ، والله لقد كنا نسمر فنكثر السمر ، وما نطيق الليلة سمرا ، وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه .

فقال فى أسى :

— يذهب الراعى ، وتتفرق الغنم .

وتركهم وما ابتعد ليستأنف صلاته ودعاءه ، حتى ثقلت جفونهم فناموا ، وظل فى خشوعه ، فأرهفت حواسه ، ومس أذنيه صوت خافت أخذ يتضح ، إنه وقع أقدام مقتربة ، فقام ينظر فإذا أضواء مصابيح ومشاعل ، وغمر الضوء المكان ، فهب الحواريون مرعوبين .

وتقدم الجنود الرومانيون ، يحملون سيوفهم ، وحولهم خدام من عند رؤساء الـكهنة والفريسيين ، فتقدم المسيح منهم ، وقال لهم :

— من تطلبون ؟

— عيسى الناصرى[1] .

لم يكونوا يعرفونه ، أرسلوا ليقبضوا على رجل لم يروه قبل ليلتهم ، فقال لهم عيسى :

— إنى أنا هو .

خفق قلب يهوذا فى جوفه ، ترى أيقبضون عليه ؟ وينقضى ملك المسيح ، ويظل هو فى شكه وقلقه ، أم يمر من بينهم دون أن يلقوا عليه الأيادى ، ويخرج من استسلامه ويأسه ، ويستأنف جهاده وكفاحه ، وفى ذلك تجديد شـباب الدعوة ، التى لم تتفتح براعمها ؟ !

رجع الجنود إلى الوراء ، وسقطوا على الأرض ، فانشرح صدر يهوذا ، إنه يحس فى تلك اللحظة ذلك الظلام الذى تجمع فى صـدره ينقشع ، وراح الصفاء يغسل روحه ويطهرها .

نظر عيسى إلى الجنود وهم ينهضون ، وقال لهم فى تحد :

— من تطلبون ؟

— عيسى الناصرى .

— قلت لـكم إنى أنا هو . فإن كنتم تطلبوننى ، فدعوا هؤلاء يذهبون .

وشهر بطرس سيفا ، وضرب عبد رئيس الـكهنة ، فقطع أذنه ، ونظر عيسى فوجد أنصاره أهون من أن يحموه ، فقال لبطرس :

— اجعل سيفك فى غمده .

فوضع بطرس السيف فى قرابه ، واتسعت عيون التلاميذ رعبا ، فقال لهم عيسى :

— اذهبوا .

---

(١) اعتمدت رواية يوحنا — وإن كانت تختلف عن روايات متى ولوقا ومرقص — لأنه كان فى مكان قريب من عيسى .

فانطلقوا فرارا لا يلوون على شيء ، وتركوا رسولهم الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور ، تحت أشجار الزيتون يحيط به جنود رومانيون غلاظ ، مدججون بالسلاح ، وبقى يهوذا يترقب ، خافق القلب مرعوبا ، فلو أن الرومانيين ألقوا القبض على عيسى ، لقتل يهوذا الشك والقلق .

وتقدم عيسى خطوات ، فرجع الجنود إلى الخلف وسقطوا على الأرض ، وانطلق عيسى من بينهم دون أن يروه ، وذهب ليختفى ، ويتحقق قوله لتلاميذه : « بعد قليل لا تبصروننى ، ثم بعد قليل أيضا تروننى » .

أحس يهوذا نورا ينسكب فى جوفه ، وهزته موجة من الفرح ، عاد إلى الحوارى الذى أوحى الله إليه أن آمن بى وبرسولى إيمانه الكامل ، وغسلت روحه ، وتخلصت من شوائب الشك ، كما يتخلص الثوب من أدرانه إذا غسل بالماء .

وقام الجنود الرومانيون الغلاظ حانقين ، ونظروا فلم يجدوا إلا يهوذا واقفا فى الظلام وحده ، فهجموا عليه وأمسكوه يحسبونه عيسى ، وأراد يهوذا أن يقاومهم وأن يصرخ بهم أنهم أخطئوه ، ولكنهم انهالوا عليه بالسباب ، وأوسعوه ضربا ، ثم شدوا وثاقه ، فتيقن أن الله أنزل به ذلك البلاء ، ليجازيه على شكه الذى نبت فى جوفه ، بعد أن أوحى إليه الإيمان ، فلزم الصمت ، وعزم على أن لاينبس بكلمة ، وأن يتحمل التجربة القاسية ليتطهر ، ويستحق أن يجلس مع المسيح فى مملكة الله ، ويدين أسباط إسرائيل الاثنى عشر ، كما قال له المسيح .

٤٩

« إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فإذا هم مبصرون » . (قرآن كريم)

أضواء المشاعل تتراقص ، فالهواء يعبث بها ، فتضطرب الأنوار الساقطة على الوجوه ، فتبدو السحن غريبة ، وأصدر قائد الجنود أوامره بالسير ، فساروا ويهوذا فى وسطهم بقامته الطويلة ، مطرقا ، كل من يراه يحسبه عيسى ، وسار على البعد بطرس يرصد ما يفعلونه بمن حسبه سيده ، الذى تركه أحب الناس إليه فى أيدى أعدائه ، وولوا فرارا .

غادروا الضيعة ، وانطلقوا فى وادى قدرون ، لا يسمع إلا وقع أقدامهم ، وقد استسلم يهوذا لقضاء الله ، ولم يرتجف ولم يحزن : بل لفته طمأنينة ، بعد انقشاع ضباب الشك الذى تلبد حول إيمانه وتصديقه .

سيصبر يهوذا[1] حتى الموت ، ليكفر عن الوساوس التى نبتت حينا فى جوفه ، فما كان له أن يتزعزع ، وقد شرح الله صدره للايمان ، استكان لضعفه ، وترك الشيطان يمسه ، فحق عليه أن يتحمل العذاب ليتطهر ، ويستحق أن يجلس مع المسيح فى مملكة الله ، ورن فى أذنيه قول المسيح : « الحق أقول لكم : إنكم أنتم الذى تبعتمونى فى التجديد ، متى جلس ابن الإنسان على كرسى مجده ، تجلسون أنتم أيضا على اثنى عشر كرسيا ، تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر » فأحس يهوذا كأن قوة علوية تثبته ، فهو أحد الاثنى عشر الموعودين المبشرين بالمجد والعظمة ، وما كان لمثله أن يتردى فى الظلام .

---

(١) كتب نقاد الغرب ينقدون الاختلافات الكبيرة فى « محاكمة المسيح وموته وقيامته » الواردة فى الأناجيل . وترجع الاختلافات إلى أن متى ولوقا ومرقس ويوحنا لم يعاينوا شيئا منها بل تلقفوا أخبارها من أفواه العامة واستمدوا بعض المعلومات من مخيلاتهم .

مسه طائف من الشيطان . ولما كان من المؤمنين تذكر ، فانجابت الغشاوة عن عينيه ، فإذا هو مبصر . فقرر أن يتحمل عن سيده العذاب والاضطهاد .

كان الليل قد انتصف ، وكانت المدينة المقدسة غارقة فى ضوء القمر ، وأنوار الهيكل تنفذ من الكوات كإشعاعات قطعة من الماس ، والجنود الرومانيون ويهوذا يدرجون فى طرقات أورشليم التى سادها الصمت العميق .

ودلفوا إلى الهيكل ، وساروا إلى بيت رئيس الكهنة ، وسمحت لهم المرأة الواقفة عند الباب بالدخول . وأقبل بطرس الذى كان على البعد يقتفى آثارهم ، وأراد أن يدخل ، فرمته المرأة بنظرة فاحصة ، ثم قالت :

— ألست أنت أيضا من تلاميذ هذا الإنسان ؟

فاضطرب بطرس وقال :

— لا لست من تلاميذه .

ساق الجنود الرومانيون يهوذا إلى غرفة واسعة ، تضيئها المشاعل ، وقد جلس فى نصف دائرة فريسيون وكتبة ، ورأس الاجتماع شيخ كبير ، أبيض الشعر ، هو حنان ، صهر رئيس الكهنة قيافا ، وساد الاجتماع قلق ؛ كانوا يخشون فى أعماقهم أن ينزل عليهم غضب من السماء ، وإن أخفوا ذلك وتظاهروا بالعبوس والتقطيب .

أرادوا أن ينتهوا من محاكمته سريعا ، وأن يصدروا حكمهم بموته ، ثم يفروا من ذلك القلق السارى فى المكان ، فقال له حنان :

— من هم تلاميذك ؟ وماهى تعاليمك ؟

فصمت يهوذا ولم يحر جوابا ، فصاح به حنان :

— تكلم .

ولكن يهوذا لم يحرك ساكنا ، فتقدم أحد الخدام ، ولطم يهوذا لطمة قوية ، وقال له :

— جاوب رئيس الكهنة .

وبقى يهوذا ساكنا لاينبس بكلمة ، وراح حنان يلقى عليه أسئلته ، ويهوذا غارق فى الصمت .

ودخل بطرس إلى الردهة الطويلة ، كانت الليلة شديدة البرودة ، فأوقد الجنود الرومانيون نارا يصطلونها ، فاقترب بطرس من النار ، ووقف ينعم بالدفء ، إذ وقف هناك في القاعة القريبة من يحسبه سيده ، يحاكم أمام أعدائه ، ويحاسب حسابا عسيرا :

ورنا أحد الجنود إلى بطرس مليا ، إنه هو ذلك التلميذ الذى رفع سيفه ، وقطع أذن ملخس عبد رئيس الكهنة ، فاقترب منه ، وقال له :

— ألست أنت أيضا من تلاميذه ؟

فاضطرب بطرس وقال :

— لا لست من تلاميذه .

واقترب منه خادم من خدام رئيس الكهنة ، وقال له :

— ألم أرك معه في البستان ؟

— لا . إني لا أعرفه .

وانتهز بطرس فرصة تشاغلهم عنه بالنار التي كانوا يذكونها ، فانسل هاربا ، مغادرا الهيكل ، لينجو بنفسه .

لم يتكلم يهوذا ، فضاق به حنان ذرعا ، وأمر أن يقودوه إلى قيافا رئيس الكهنوت ، ليرى رأيه فيه ، فانطلقوا به في جوف الليل ، حتى إذا وقف أمام قيافا ، ظل في صمته العميق .

كان قيافا يرى أنه خير للأمة أن يموت واحد من أن تقوم بسببه حرب أهلية بين بني إسرائيل ، كانت غايته أن يقتله ويستريح ، فراح يسأله وهو مطرق ، مستمسك بالصمت ، فأحس ضيقا ، وأراد أن ينتهي منه ، فأرسل يستدعي — وهو رئيس الكهنوت — شهود زور يشهدون عليه ، فلم يجد ، وأخيرا أقبل شاهدان وقالا :

— هذا قال إني أقدر أن أنقض هيكل الله ، وفي ثلاثة أيام أبنيه .

فقال له قيافا :

— أما تجيب بشيء ؟ ما رأيك فيما يشهد به هذان عليك .

لو كان المقبوض عليه عيسى ، لقال إنه قال ذلك ، فما كان لنبي أن يكفر بأقواله ، ولكنه كان يهوذا ؛ لم يشأ أن يكذب في لحظاته الأخيرة ، فظل ساكتا لا ينطق بكلمة . نفد صبر رئيس الكهنة ، فقال له :

— أستحلفك بالله أن تقول لنا : هل أنت المسيح ؟

لم يشأ يهوذا أن يكذب ، فقال له :

— أنت تقول ذلك .

ثم صمت قليلا وقال فى حماسة من يؤمن بكل كلمة ينطق بها :

— من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا على يمين القوة . وآتيا على سحاب السماء .

فمزق رئيس الكهنة ثيابه ، فما أضاء ذلك القول شيئا ، إنه قول يقوله أى مؤمن بالمسيح ، وأراد قيافا أن ينهى هذه المحاكمة ، فقال :

— لقد كفر فما حاجتنا إلى شهود ، ها قد سمعتم كفره .

والتفت إلى الفريسيين والكتبة والصدوقيين ، وقال لهم :

— ماذا ترون فيه ؟

وهل كان يرى أعداء المسيح غير موته ، فقالوا :

— إنه مستوجب الموت .

حكموا على يهوذا بالقتل ، وهم يحسبون أنه المسيح ، ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين ، وابتسموا فى راحة ، ولكن « الساكن فى السماء يضحك . الرب يستهزئ بهم » .

وانقضى الليل ، وصاح الديك ، فتذكر بطرس قول عيسى له : إنه سينكره ثلاث مرات قبل صياح الديك ، فهام على وجهه يبكى وينتحب ، حتى كادت كبده تتصدع من البكاء .

« فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون »[1] . (قرآن كريم)

خرج إلى الردهة بعد أن قرر المجتمعون استحقاقه للقتل ، فقام إليه الخدم والجنود يبصقون فى وجهه ، ويلطمونه ويصفعونه ، ويركلونه ، ويسددون اللكمات إلى وجهه ، ويضحكون مستهزئين ، ويهوذا يتحمل إهاناتهم فى صبر عجيب ، كان يخفف من آلامه أنه يتلقى الاضطهاد عن سيده الذى هداه إلى النور .

وساقوه إلى غرفة يحبسونه حتى طلوع النهار ، وانعقاد السنهدرين ، فما كانت تجرى المحاكمات القانونية إلا فى وضح النهار ، وأدخلوه ودخلوا وأغلقوا الباب خلفهم ، وأخذوا يصفعونه ساخرين ، ثم قفزت إلى أذهانهم فكرة يقطعون بها الوقت حتى طلوع النهار ، فحجبوا عينيه ، وتقدم إليه واحد منهم ، ولطمه . وقالوا له هازئين :

— تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك ؟

وجلجلت ضحكاتهم المقيتة تمزق السكون ، واستمروا فى عبثهم وقسوتهم ، ويهوذا صابر ، فمهما اشتدت آلام الجسد ، فهى أهون من عذاب الروح .

وانقضى الليل ، وأشرقت الشمس ، وانعقد السنهدرين ، من الفريسيين الذين هتك المسيح رياءهم ، ومن الصدوقيين المتعجرفين الكافرين بيوم الدين ، ورأس المجتمعين قيافا ، رئيس الكهنة المتظاهر بالتقوى ، الضالع مع الهيروديين

---

(١) قال سلسوس من علماء القرن الثانى للميلاد ،ونقل عن أكهارن من علماء ألمانيا « بدل النصارى أناجيلهم ثلاث مرات أو أربع مرات ، بل أكثر من هذا تبديلا ، كأنما مضامينها بدلت » .

فى الفسق والفساد ، وكان بينهم نيقوديموس ، ثالث أعضاء المجلس ، الذى آمن بعيسى وأخفى إيمانه .

كان نيقوديموس مضطربا لايقوى على أن يرفع عينه ، كان يفكر فى إنقاذ من آمن به ، وكان يخشى أن تفضحه خفقات قلبه ، لذلك راح يعبث بأصابعه ، يحاول أن يوارى ما به .

وجىء بيهوذا ، ومثل أمام أعضاء السنهدرين ، وقد غير الاضطهاد هيئته ، وما وقعت عينا نيقوديموس عليه حتى أحس يدا تعصر قلبه ، وانقبض . كانت آثار التعذيب قاسية ، فاستشعر كأن خنجرا يحز فؤاده ، وطأطأ بصره حتى لا تظهر على وجهه انفعالات نفسه .

وقال له قيافا :

— إن كنت أنت المسيح فقل لنا .

ماذا يقول لهم يهوذا ؟ إذا قال لهم إنه المسيح كذب ، وإن قال لهم إنه يهوذا لم يصدقوه ، فقال لهم فى سخرية :

— إن قلت لكم لا تصدقون ، وإن سألت لا تجيبونى ولا تطلقونى .

وصمت قليلا ، وحسب أن الله رفع عيسى ، فقال :

— منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسا عن يمين قوة الله .

فصاح قيافا :

— ما حاجتنا إلى شهود ، سمعنا اعترافه .

وأمر بإخراجه ، وراح أعضاء السنهدرين يتشاورون ، لم يقل شيئا يستحق عليه القتل ، لم يدع الألوهية ، فلو أنه ادعاها لما كانوا فى حاجة إلى التفكير فى تهمة تغير صدر بيلاطس عليه ، إنهم يريدون أن يتخلصوا منه ومن تأليب الشعب عليهم . هذه هى المسألة .

وفكروا فيما يتهمونه به ، إنه عمل فى السبت وخرق الناموس وهذا يستوجب القتل ، ولكنه أثبت فى كل مرة أنه كان يعمل الخير فى السبت ، وأفحمهم وألقمهم أكثر من حجر ، واتهموه أنه ادعى أنه إله ، فأثبت لهم أنه استعار التشبيه من مزامير داود ، وأنه لم يقصد به الألوهية ، بل الاختيار والاصطفاء ، كان هدفهم

قتله . فليقولوا لبيلاطس إنه يدعو الناس إلى الثورة ، وإلى الامتناع عن دفع الجزية ، فلو أنهم رفعوا إليه ذلك لوافق على قتله .

خرج يهوذا إلى الجنود الغلاظ ، فعادوا يبصقون في وجهه ، ويسبونه ، ويصفعونه ويلطمونه ، وانضم إليهم بعض الفريسيين والصدوقيين ينتقمون لسهام السخرية المريرة التي رشقها عيسى في أبدانهم .

وقام رؤساء السنهدرين ، وانطلقوا إلى قصر بيلاطس الهائل : وكان قريبا من الهيكل ، ويهوذا مشدود وثاقه ، وحوله الجنود الرومانيون ، ودلفوا إلى القصر العظيم ، واستأذن قيافا رئيس الكهنوت في الدخول على الحاكم ، فلما أذن له ، قال :

— جئنا بعيسى ، ذلك الذي أضل كل إسرائيل بتعاليمه وآياته الكاذبة ، من الجليل حتى أورشليم ، ولم يكتف بدعواه ، بل راح يفسد الأمة ، ويحرض الناس على الامتناع عن دفع الجزية لقيصر ، زاعما أنه المسيح ملك اليهود . كان بيلاطس يحب عيسى ، سمع بآياته وتعاليمه ، فمال إليه قلبه ، وإن كتم ذلك عمن حوله ، فطلب أن يدخلوه ، فلما دخل يهوذا انفرد به ، وقال له :

— سلمك الكهنة وشيوخ الشعب إلى يدى ، فقل الحق لأقيم العدل ، لأنى قادر على أن أطلقك ، وقادر على الأمر بقتلك .

فقال يهوذا :

— إذا أمرت بقتلى ترتكب ظلما كبيرا ، لأنك تقتل بريئا .

واستمر بيلاطس يحاور يهوذا وهو يحسبه عيسى ، ثم دعا رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب ، وقال :

— أية شكاية تقدمونها على هذا الإنسان ؟

— لو لم يكن خطيرا ما دفعنا به إليك .

وراحوا يكيلون إليه التهم ، ويهوذا صامت لا ينبس بكلمة ، حتى تعجب كانت اتهاماتهم تقطر عداوة ، وإن كانت بعيدة عن الحق ، فلم يجد فيها بيلاطس الوالى ، ما يستجوب القتل .

لم يطمئن ضمير بيلاطس إلى تأييد حكم السنهدرين ، فطن إلى أنهم يريدون

قتله غيرة منه ، كانوا مرائين ، ففضحهم أمام الشعب الغافل ، ولو تركوه يسعى في الأرض لفض الناس من حولهم .

وفطن رؤساء الكهنة أن بيلاطس يفكر في إطلاقه ، فقالوا له :

— إذا تركت هذا الجليلي فلست محبا لقيصر ، كل من يدعو نفسه ملكا يقاوم قيصر .

فلما سمع بيلاطس لفظة الجليلي ، قفزت إلى رأسه فكرة ، فقال :

— هل الرجل جليلي ؟

— نعم .

— أرسلوه إلى هيرودس[1] ، فهو من رعاياه ، ليرى فيه رأيه .

وخرج الكهنة وشيوخ إسرائيل ويهوذا والجنود الرومانيون ، وانطلقوا إلى هيرودس ، فقد كان في أورشليم في العيد ، وتنفس بيلاطس الصعداء ، حسب أنه استراح من الحكم في هذه القضية ، التي لا يستريح ضميره إذا بت فيها بما يرضى أعضاء السنهدرين وشيوخ إسرائيل ، الواغلين في العداوة والبغضاء .

(١) ذكر خبر إرساله إلى هيرودس في إنجيل يوحنا فقط . ولم تتفق رواية مع أخرى في الأناجيل الأربعة بشأن هذه المحاكمات وهذا دليل ظاهر على أنهم تلقفوا أخبارها من أفواه العامة .

٥١

« أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله »
(قرآن كريم)

خرجت الشمس من أكمامها ، وأرسلت أشعتها إلى أورشليم التى لم تغمض لها عين طوال الليل ، كان أهلها يحتفلون بالعيد ، ورجال الدين فيها من فريسيين وصدوقيين وناموسيين يحيكون مؤامرتهم ، ليقتلوا عدوهم ، مكروا ومكر الله ، ففر عيسى من أعدائه ، وسقط يهوذا فى أيديهم ، ليطهر الاضطهاد نفسه من أدران الشك التى رسبت فى جوفه ، فما كان له أن يشك بعد أن شرح الله صدره للايمان ، وليتحقق قول المسيح : « كلكم تشكون فى هذه الليلة » .

شبه[1] لهم ، فلم يعرفوه ، وراحوا يحاكمونه وهو صامت ، إذا تكلم يكشف سيده أو ينطق كذبا ، فلاذ بالسكوت ، فما كان له أن يكذب وهو فى تطهيره ، ليتحقق وعد المسيح له بأنه من تلاميذه الذين سيجلسون معه فى ملك الله .

سار رجال السنهدرين وجنود الرومانيين ويهوذا بينهم ، ولحته الجماهير التى كانت تخف إليه ، فأسرع الرجال والنساء يسبونه ، ويبصقون فى وجهه ، ويؤذونه وهو مطرق ساكن ، وارتفع صوت يقول :

— إنه رجل صالح ، لا يستحق هذا .

فزجرت الأصوات ، وارتفعت الاعترافات :

— إنه أضلنا ، لو كان نبيا لأيد رسالته بالآيات .

---

(١) ذكر « جاى وفرير » مؤلفا كتاب « أصول الطب الشرعى » حادثة استحضر فيها ١٥٠ شاهدا لمعرفة شخص يدعى « مارتن جير » فجزم ٤٠ منهم أنه هو هو ، وقال خمسون أنه غيره ، والباقون ترددوا جدا ، ولم يمكنهم أن يبدوا رأيا ، واتضح أن هذا الشخص غير مارتن ، بعد أن عاش مع زوجة مارتن وأقاربه وأصحابه ومعارفه ثلاث سنوات .

— وافق على أن ندفع الجزية لقيصر، وما كان لنبي أن يرشد قومه إلى وضع نير الرق فى أعناقهم .

— أين هذا الذى يدعى النبوة من يهوذا الجليلي ، الذى ثار ليحررنا من الرومانيين ، فما كان لأبناء الله أن يكونوا تحت حكم الوثنيين عبدة الأوثان .

— يا قوم ، إنه رجل صالح يدعو إلى الله .

وثار فى وجهه الناس ، فصمت وانسل بعيدا ، قبل أن يبطشوا به .

وبلغ رجال السنهدرين قصر هيرودس أنتيباس ، كان الجنود الرومانيون يغدون ويروحون أمامه وفى أيديهم الرماح ، كانوا يقومون بالحراسة ، فوالى الجليل وفد إلى أورشليم فى العيد ، يقدم القرابين إلى الهيكل إرضاء لرعاياه اليهود . فهو حريص على أن يظهر أمامهم فى مسوح الرهبان ، وإن كانوا يتهامسون بأحاديث الليالى الصاخبة الماجنة التى يقضيها فى قلعة ما كيروس .

جلس هيرودس يستقبل الصباح ، وأرخى لخياله العنان ؛ سمع وهو فى أورشليم بالعداوة القائمة بين بنى الناصرة ورجال الدين ، فتحركت مخاوفه ، فأوهامه تلح عليه أن ذلك النبي ما هو إلا يحيي ، قام من الأموات يثأر لقومه ، إن شبح يحيي يطارده ويؤرقه ويصرخ به فى سكون الليل ، فيطير من عينيه السهاد ، بلغ سمعه همس الناس أن الله نصر جيوش الحارث والد زوجته التى فرت منه لما تزوج من هيروديا ، على جيوشه ، انتقاما لدماء نبيه الزكية . فزاد ذلك فى مخاوفه ، وبات فى قلقه يترقب ساعة الانتقام .

ودخل عليه حاجبه ، وقال له إن رؤساء السنهدرين يلتمسون مقابلته ، فأذن لهم بالدخول ، وهو يعجب ، فما كانوا يفدون إليه فى العيد ، فلطالما جاء قبل ذلك حاجا إلى أورشليم ، ولطالما ساق أمامه الهدى ، وذبحه فى المذبح قربانا إلى يهود إله إسرائيل ، ولم يخفوا لاستقباله ، وإن كانوا يسارعون إلى بيلاطس ممثل الرومانيين .

أقبل قيافا ورئيس الصدوقيين ورئيس الفريسيين ، وقالوا :

— جاء من الجليل من يزعم أنه نبي ، وراح يفسد الناس ، ويغريهم بعدم دفع الضرائب إلى قيصر ، وقد حاكمه السنهدرين ، وأصدر حكمه بقتله ، ولما كان من رعاياكم ، فقد أرسلنا الوالى إليكم .

خفق قلب هيرودس ، كان يطمع فى أن يرى عيسى ، ليقضى على وساوسه التى تقلقه ، ولكن عيسى رفض أن يذهب إلى ذلك الثعلب فى قصره ، وها هى ذى الفرصة قد سنحت ليراه ويحدثه ، ويطلب منه أن يأتى بآية من آياته ، وإنها لتسلية فى العيد ، أن يشاهد هيرودس الآيات !

وجيء بيهوذا مشدودا وثاقه ، فرماه هيرودس بنظرة سريعة فاحصة ، فسكنت الطمأنينة قلبه ، لم تكن فى وجهه صرامة يحيى . فملامحه لا توحى بما كانت توحى به ملامح النبى الخشن من رهبة ، كانت نظرة من يحيى تزلزل هيرودس ، وتذيب جبروته .

وقف يهوذا خافض الرأس ، وإن كانت السكينة تعشش فى فؤاده ، وهيرودس يديم إليه النظر ، ويصغى إلى الفريسيين والصدوقيين الذين كانت الاتهامات تتدفق من أفواههم تقطر عداوة ومقتا .

وقال هيرودس للماثل أمامه :

— ما تقول أنت ؟

لم يحر يهوذا جوابا ، وسلم أمره لله ، وترقب قضاء الله فى صبر عجيب ، فقد أضيء أمامه الطريق ، ووضح السبيل . قال له هيرودس :

زعمت أنك رسول الله ، فإن أردت أن يصدقوك فأت بآية إنا منتظرون .

لم يفتح يهوذا فمه ، ولم ينطق حرفا ، وانقشعت مخاوف هيردوس ، وعاد إلى طبعه ، فراح يسخر من يهوذا ، وبعث إلى رجال بلاطه يشاركونه فى الزراية بالرجل ، والتهكم عليه ، فقد وجدوا فيه مادة لعبثهم البغيض .

وصاح صائح :

— إنه مجنون .

وجلجلت ضحكات الزراية والاستخفاف ، وأراد هيرودس أن يرفه عن بلاطه فى العيد ، فأمر بإلباس الرجل ثياب المجانين !

أخذ الجنود يهوذا ، يصفعونه ويلطمونه ويخزونه بأطراف حرابهم ، وهيرودس ورجاله يقهقهون ، كأنما سلب منهم كل شعور ، حتى رجال الدين ، أعضاء السنهدرين شاركوهم فى الهذر المقيت .

وجىء بيهوذا وقد ألبس ثوبا أبيض لامعا ، فرنت قهقهات العابثين ، وتطايرت فى القصر ألفاظ الاستخفاف والمجون ، وارتسمت ابتسامات عريضة فى وجوه الفريسيين المتزمتين ، ولم يروا فيما يجرى أمامهم فى العيد خرقا للناموس ، يستأهل العبوس والتقطيب .

أين عيسى ليسخر من ريائهم ، ويمرغ كبرياءهم فى الأوحال أمام ذلك الوالى الغليظ القلب ؟ أين عيسى ليصفعهم بقوارعه ، ويجعلهم ينكمشون فى الأركان ؟ أين ذلك الذى دمغهم بالعار على مر الزمان ؟ إنه لم يكن هناك فى ذلك القصر العابث ، بل كان هناك يهوذا الغارق فى صمته ، التائب من ذنبه ، يتحمل ذلك الاضطهاد ، ليتم له التطهير .

كانت الجفوة قائمة بين بيلاطس وهيرودس ، كان كل منهما ينتظر عقب أن عين حاكما على ولايته ، أن يبدأ صاحبه بزيارته ، ولكن لما لم تتم تلك الزورة تغيرت النفوس ، ولكن بدأ اليوم انجياب تلك السحابة ، أرسل بيلاطس إلى هيرودس ذلك الجليلى ، ليرى أمره فيه ، فرأى هيرودس أن يرد له مجاملته ، بأن يعيد له الرجل يتصرف فيه ، فأمر أعضاء السنهدرين أن يعودوا إلى بيلاطس ، وكتب له :

— أقم العدل فى بيت إسرائيل .

٥٢

« لـكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين »
(قرآن كريم)

كانت كلوديا بروكيولا ، زوجة بيلاطس الحاكم الرومانى فى أورشليم ، فى شرفة القصر تشاهد المدينة المقدسة فى عيد الفصح ، الرجال فى ثياب الصلاة ينطلقون إلى الهيكل ، والنساء فى الثياب الزاهية الجديدة ، أسدلن على وجوههن نقبا كثيفة ، والأطفال ينطلقون مرحين ، فى أيديهم قطع من فطير الفصح .

نظرت كلوديا صوب القصر القريب ، النازل به هيرودس حاكم الجليل ، فلمحت على البعد السنهدرين من فريسيين وصدوقيين يسوقون أمامهم فريستهم ، وحوله الجنود ، تحلقهم جمهرة من خدام الهيكل واللاويين والمتطفلين ، تخفق قلب كلوديا فى شدة ، وأحست انقباضا ، لم يحكم هيرودس فى أمره ، بل أعاده إلى زوجها ليتصرف فيه .

رأت كلوديا فى نومها حلما حول ذلك الرجل ، حلما أفزعها وأقلقها ، حلما أوحى إليها فيه ، أن ذلك الرجل برىء لا يستحق القتل ، وقد تألمت فى نومها من تلك الرؤيا ، ولما استيقظت ظلت منقبضة ، وحاولت أن ترفه عن نفسها بالتطلع إلى الناس فى العيد ، ولـكن رؤيتها لذلك الجمع جددت قلقها ، فبعثت إلى زوجها :

— إياك وهذا البار ، فقد تألمت فى الحلم كثيرا من أجله .

فـكر بيلاطس فى أمر ذلك النبى الجديد ، إن تعاليمه لا تغضب الرومانيين ، تدعو إلى حب الأعداء ، ودفع الجزية ، وإعطاء ما لقيصر لقيصر ، لا تثبت روح التمرد والثورة ، بل روح الاستكانة والخضوع .

إذا اتهم بأنه ملك اليهود ، فقد أعلن أن مملـكته ليست مملـكة أرضية ، إن

هى إلا مملكة سماوية ، وما كان بذلك ينافس طيبروس أو أحفاده فى سلطانهم ، ما قاده رؤساء الكهنة إليه إلا ليكون أداة تنفيذ لمآربهم ، يريدون أن يقتلوه ، ليتخلصوا من سخريته .

من أتباعه حتى يفزع بيلاطس منه ؟ حفنة من الصيادين الفقراء ، وبعض النساء المستضعفات ، أهؤلاء هم رعاياه فى مملكته ؟ أهؤلاء هم الذين يثيرهم على طيبروس والإمبراطورية الرومانية ؟ إن هى إلا عداوة محلية بينه وبين الفريسيين المتحجرفين . والصدوقيين الرافلين فى الغرور ، ألبسوها ثوب الخيانة العظمى ، ليوغروا صدر بيلاطس عليه ، فينفذ فيه حكم الإعدام ، ولكن بيلاطس قد عزم على أن ينقذ الرجل ، ويخلى سبيله .

جرت العادة أن يطلق الشعب فى العيد سراح أحد المسجونين ، وفى يد بيلاطس أسيران ، ذلك الذى جاء به رجال الدين ، وباراباس الثائر سفاك الدماء ، فإذا ما خير الشعب فيمن يطلق لهم سراحه ، فلا شك أن الجماهير ستطلب الإفراج عن النبى الناصرى .

عاد رؤساء السنهدرين إليه برسالة هيرودس ، فطلب الرجل الحائر . فلما دخل يهوذا عليه ، أحس إشفاقا نحوه ، كان مجهدا مكدودا ، وما كان وجهه ينم عن ثورة أو شر ، كان مطرقا فى استسلام ، كأنما ألقى للأقدار مقاليده .

وعاد بيلاطس يحاور ذلك الذى أرسلت إليه كلوديا أنها رأت فى المنام أنه برىء ، فلم يقس عليه ولم يشتد ، ثم خرج إلى الجموع الزاخرة التى حشرت فى ساحة القصر ، وأطل عليهم ، وقال لهم :

— قدمتم إلى هذا الإنسان كمن يفسد الشعب ، وهأنذا قد فحصت عنه قدامكم ، ولم أجد فى هذا الإنسان علة مما تشتكون به عليه ، ولا هيرودس أيضا ، لأنى أرسلتكم إليه ، إنه لم يفعل ما يستحق عليه القتل ، فدعوه لى أؤدبه ، وأطلق سراحه .

ما كان هذا يبغى الفريسيون والصدوقيون والكتبة والصرافون وباعة الأغنام والحمام فى الهيكل ، فارتفعت أصواتهم :

— اقتله ، اقتله .

وراح قيافا وحنان وأعضاء السنهدرين يغذون ثورة الشعب ، فراحت الحناجر تهتف بالوالى الرومانى :

— نريد قتله . . نريد قتله .

— لم يفعل مايستوجب القتل .

— اقتله . اقتله .

وصمت بيلاطس قليلا حتى تهدأ الثورة المفتعلة التى حركها أعضاء السنهدرين ، واستجاب لها خدام الهيكل ، والجماهير التى تنتقل إليها عدوى الثورة ، أو عدوى الرضا ، دون أن تدرى لماذا ترضى ولماذا تثور !

وخفتت الأصوات ، وبدأ بيلاطس يتكلم ، فتعلقت به العيون ، وأرهفت له الآذان ، قال :

— إننا نطلق لكم فى العيد أسيرا ، فمن تريدون أن نطلق لكم فى هذا العيد ، باراباس أم عيسى الذى يدعى المسيح ؟

فهتف الفريسيون والصدوقيون وتجار الهيكل :

— باراباس .

وانطلقت العدوى إلى الجماهير ، فراحت تردد :

— باراباس . . باراباس .

تضايق بيلاطس ، كان يطمع فى أن يؤيده الشعب ضد أعضاء السنهدرين ، كان ينتظر أن ترتفع الأصوات طالبة إطلاق سراح ذلك الذى لم يرتكب إثما ، من كان كل ذنبه أن حسده رجال الدين ، فإذا بالجماهير ببغاوات تردد ما تلقن .

وأراد أن يثير حماسة الجماهير ، أن يزيل الغشاوة التى أسدلها على العيون الفريسيون والصدوقيون ، فأتى بيهوذا مشدودا وثاقه ، وقال لهم :

— فماذا أفعل بهذا ؟

كان يحسب أن رؤيته تعيد إلى الناس رشدهم ، ولكن خاب ما حسبه ، فقد ارتفعت أصوات الأعداء مجلجلة .

— ليصلب .

وتجاوبت الأصوات وراحت ترن فى القصر :

— ليصلب ، ليصلب .

فقال بيلاطس فى يأس :

— أى شىء فعل ؟

— اصلبه . . اصلبه .

— لم يفعل ما يستوجب الصلب .

— اصلبه . . اصلبه .

— أؤدبه وأطلقه .

— خذ هذا وأطلق لنا باراباس .

— باراباس . . . باراباس .

— اصلبه . . اصلبه .

— نريد باراباس . . باراباس . . باراباس . . باراباس .

— اصلبه . . اصلبه .

رأى بيلاطس الفتنة تتحرك ، غلا مرجل غضب الجماهير ، وما هى إلا إشارة من رجال السنهدرين الحانقين ، حتى يندلع لهيب الثورة ، فقال لهم :

— خذوه أنتم فاصلبوه ، فإنى لا أجد ما آخذه به .

فصرخ رجال السنهدرين :

— لنا ناموس ، وحسب ناموسنا هو يستحق الموت ، لأنه جعل نفسه ابن الله . ياللرياء ، إنهم يدعون أنفسهم شعب الله المختار ، أبناء الله ، وقد حاولوا أن يتهموه بالمروق لما قال لهم إنه ابن الله ، ولكنه أثبت لهم أنه استعار ذلك من كتبهم ؛ من مزامير داود ، وأنهم جميعا « أبناء العلى يدعون » . أثبت لهم أنه لم يدع الألوهية ، وأثبت لهم أنه ابن الله مثلهم جميعا ، وأنه عبده ورسوله ومصطفاه ، فلماذا يحاولون الآن أن يلصقوا به تهمة سبق أن برءوه منها ؟ وهل كان بيلاطس الرومانى الوثنى يفهم كثيرا أو قليلا فى مثل هذه الأمور ؟ أرادوا أن يوهموه أنه ارتكب إثما كبيرا فى حق ناموسهم ، ليرغموه على التصديق على صلبه ، فما كانوا قادرين على أن يصلبوه ما لم يوافق على ذلك الحاكم الرومانى ، صاحب الكلمة والسلطان ، قال لهم بيلاطس لعلهم يوافقون :

— اجلده ، ثم أطلق سراحه .

— اصلبه ، إنه يستحق القتل حسب ناموسنا .

لم يستطع أن يثنيهم عن عزمهم ، وبدأ الشر يطل بخطمه . فجاء بيلاطس بماء وغسل يديه أمام الجميع . وقال :

— إنى برىء من دم هذا البار .

فصاح الكتبة والفريسيون والصدوقيون وتجار الأغنام والحمام والصرافون ، وخدام الهيكل ، والشعب المخدوع :

— دمه علينا وعلى أولادنا .

وخرج باراباس إلى الجماهير ، فانطلقت هتافات الفرح ، وأخذ عسكر بيلاطس يهوذا ، ليعذبوه ويجلدوه قبل أن يصلبوه ، وصدق عيسى ، فالناس يفرحون ، وتلاميذه يذرفون الدمع الهتون .

٥٣

« وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون » (قرآن كريم)

جنود الرومانيين يقودونه إلى جوف القصر ، يسخرون منه ، ويبصقون فى وجهه ، ويلطمونه ويصفعونه ويضحكون ، كانوا فى أعماقهم يكرهون اليهود ، فأتيحت لهم فرصة التنفيس عن البغض المكتوم .

وبدأ جلد يهوذا ، فخف جميع جنود القصر ينظرون فى سرور ، كان حدثا جديدا فى حياتهم الرتيبة ، فهرعوا يتسلون منشرحين ، ترن ضحكاتهم مدوية ، كلما عابثه جندى أو لطمه ، أو استخف به أو ركبه بمجونه الطليق .

وخلعت عنه ثيابه ، وشد إلى عمود ، فأصبح ظهره العارى مكشوفا ، وجاء جلاد ، كان وجهه جامدا كأنما نحت من صخر ، وفى يده سوط ذو ثلاث شعب من الجلد ، فى نهاياتها قطع من رصاص ، ورفع الجلاد يده ، وأهوى بالسوط على ظهر يهوذا يمزقه ، فلم ينقبض قلب جندى واحد ، بل انبسطت الأسارير .

وانهالت الضربات ، ويهوذا يئن كوحش جريح ، وفاضت التهليلات فى المكان ، تبلدت الإحساسات ، وطغت وحشية البشر ، حتى فاقت ضراوة الحيوان ، وتطايرت السخريات ، وانطلقت التهكمات ، فتلقفها الجنود مسرورين ، كما يتلقف الأطفال هدايا العيد .

تمزق ظهر يهوذا ، ولف سوط على وجهه فقطعه ، وجاءته ضربة على رأسه فراح فى غيوبة ، فلم يعد يحس مما حوله شيئا ، وتم جلده ، فهرع إليه بعض الجنود يقلبونه ، فألفوا أنفاسه تتردد ، فأحسوا رضا ، لا لأنهم أشفقوا عليه أن يموت ، ولا لأنهم جزعوا لموته ؛ بل لأنهم سيجدون فيه تسليتهم ، حتى يسلموه إلى من يصلبونه .

وصاح صائح :

— صمتا يارفاق ، إنكم بين يدى ملك اليهود .

وقال آخر :

ألبسوه ثياب ملكه وتوجوه .

فأسرع الجنود إليه ، ولفوه فى ثوب قرمزى ، ثم ضفروا إكليلا من الشوك ، وتوجوه به ، ووضعوا فى يده قصبة ، رمزا للصولجان ، واصطف الجنود ، وراحوا يمرون أمامه ، وينحنون فى سخرية ، كما تنحنى الرعايا أمام الملك ، ويقولون فى زراية :

— السلام عليك يا ملك اليهود .

ولم يكتفوا بعبثهم القاتل ، بل كانوا يأخذون القصبة من يده ، ويضربونه بها على رأسه ، ويتصايحون فرحين ، كان بينهم كحمل برىء وقع بين براثن وحوش ، أو كفأر صغير تنهشه عشرات القطط .

دار رأس يهوذا ، وفاضت آلامه ، وزادت حتى غاب عن حسه ، فلم يعد يستشعر العذاب ، كانت تدثره غيبوبة رحيمة تفقده الشعور .

واقتيد يهوذا إلى بيلاطس ، حيث كان قيافا وحنان وأعضاء السنهدرين يترقبون فريستهم ، ودخل يهوذا والدم يجرى على وجهه ، وينبثق من ظهره ، يجر رجليه ، يكاد يسقط من الإعياء .

نظر بيلاطس إلى رجال الدين المتنمرين ، إلى حملة الشريعة الذين طمس الله قلوبهم ، وأعماهم الحقد البغيض ، إلى المجرمين الحقيقيين ، الذين لو أصاخ إلى صوت ضميره لدمغهم بالافتراء والكذب ، ولكنه كان يخشى منهم ، فهم القوة المحركة للشعب الأعمى ، إنهم قادرون على أن يرسلوا إلى قيصر فى رومية الوفود . يلتمسون منه أن يخلعه ، وأن يأتيهم بوال جديد ، ففضل السلامة على أن يلقى سمعه لصوت الضمير ، قال :

— خذوا ملككم واصلبوه .

أحسوا فى صوته رنة زراية ، فقالوا له :

— ليس لنا ملك إلا قيصر .

وقام رؤساء الكهنة وعيونهم تلمع بالقسوة ، وانطلقوا وجنود الرومان يدفعون أمامهم يهوذا المحطم ، كان يريد أن يموت ويستريح ، لم يعد يخشى الموت ، فبعده العزة والسيادة على أسباط بنى إسرائيل .

وارتفع صوت بيلاطس :

— خذوا هذه ، وضعوها على الصليب .

فالتفت قيافا وحنان وأعضاء السنهدرين ، فوقعت عيونهم على رقعة كتب فيها : « عيسى الناصرى ، ملك اليهود » . فثارت دماؤهم فى عروقهم ، إن ذلك الوالى الرومانى يسخر منهم ، ولا يكف عن سخريته ، فقالوا له :

— لا تكتب « ملك اليهود » ، فذاك قال : أنا ملك اليهود .

فقال لهم بيلاطس :

— ما كتبت قد كتبت .

« وما قتلوه وما صلبوه ولـكن شبه [١] لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، مالهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا » .

(قرآن كريم)

ركب الموت فى طريقه إلى جلجثا : قائد رومانى يعتلى صهوة حصان أبيض ، وثلاثة رجال يحملون صلبانهم ، وحفنة من الجنود الرومانيين حولهم ، وجمع من الناس ينطلقون فى أثرهم ، ليشاهدوا الصلب ، تزجية للوقت فى العيد .

كانوا ثلاثة يئنون تحت ثقل الصليب ، يهوذا ولصين حكم عليهما بالصلب معه ، وكان يهوذا أكثرهم ضعفا . كان مجهدا محطما ، مزقته السياط والمحاكمات ، فى وجهه جروح ، وفى ثوبه دم جف ، فألصق الثوب بالجسم ، وساقاه تتثنيان تحته ، يحس كأنما يكاد يهوى من الإعياء مغشيا عليه .

كانت أورشليم تموج بآلاف الحجاج من سورية ومصر وبابل وآسيا الصغرى واليونان ، فألقوا نظرة عابرة على موكب الموت ، وعادوا يستأنفون ما كانوا فيه من مرح وحبور ، فما تجشموا عناء السفر جلبا للأحزان ، بل للحج والترفيه .

وفى أثر الموكب الحزين ، سارت نسوة محجبات يذرفن الدموع ، فهن أرق قلبا من الرجال الذين آمنوا به ، فلما أحسوا الخطر انفضوا من حوله ، وقست القلوب . سمعوه فى الهيكل وهللوا له ، فلما دنت الساعة الفاصلة بخلوا عليه حتى بالدموع .

---

(١) ذكر جورج سايل مترجم القرآن إلى الإنجليزية ، فى سورة آل عمران صفحة ٣٨ أن السيرنثيين Cerinthians والـكربوكراتيين Carpocratians وهم من أقدم فرق النصارى ، قالوا إن المسيح نفسه لم يصلب ، وإنما صلب واحد آخر من تلاميذه يشبهه شبها تاما .

وهناك الباسيليذيون يعتقدون أن شخصا آخر صلب بدل المسيح .

دب الوهن فى جسد يهوذا ، فسقط وصليبه فوقه ، ولولا الأنفاس الضعيفة المترددة ، لحسبوه قد مات ، فصرخ به رجال قيافا وحنان أن يقوم ، وأن يحمل صليبه ، ولكنه كان عاجزا عن النهوض .

وأقبل سمعان القيروانى من حقله ، ورأى جمعا ينطلق خارج المدينة : جنودا رومانيين ، وصلبانا ونساء على البعد يبكين ، فذهب يشاهد مايجرى فى الطريق . فلما رآه القائد الرومانى ، قال له ، وهو يشير إلى الصليب الساقط فوق يهوذا :

— احمل هذا .

وذهب سمعان يفعل ما أمر به القائد ، فما كان لامرئ أن يرفض أمرا صدر إليه من قائد رومانى ، ولكن رجال قيافا وحنان اعترضوا على ذلك الأمر ، وقالوا :

— لابد أن يحمل هو صليبه حتى النهاية . هذا هو الناموس .

كان القائد يبغى أن ينتهى من عمله ، فما كان يهمه كثيرا أو قليلا أن تطبق حرفية شريعة لا يؤمن بها ، فلم يلتفت لاعتراضهم ، وحمل سمعان الصليب ، ومال اثنان على يهوذا وعاوناه على النهوض ، وانطلق ركب الموت فى الطريق .

وكان بين النسوة امرأتان ، أحستا فى قلبيهما وقدة نار ، وراحت دموعهما الحارة تجرى ، فلا تريان إلا ماهما فيه من حزن عميق ، كانتا العذراء أم المسيح ، ومريم المجدلية ، التى أخرجها من الظلمات إلى النور ، ولولا تلك الدموع التى غامت بها العيون ، ولولا الحزن الثقيل الذى نزل بهما ، ولولا اليأس الذى ذهب بنفسيهما شعاعا ، لفطنتا إلى أن ذلك المجهد المكدود ، الرازح تحت عبء الصليب غير عيسى الحبيب .

وبلغوا المكان ، وثبتت الصلبان فى الأرض ، وجيء بالرجال الثلاثة ، وخلعوا عنهم ثيابهم ، فأشاحت النسوة بوجوههن ، وقلوبهن منقبضة ، وأحست مريم خناجر تطعنها فى فؤادها ، وعلا النشيج والنحيب .

ورفع الرجال ، وفى وسط أكفهم دقت مسامير لتثبيتهم فى خشب الصلبان فأحست النسوة كأن المطارق تدق قلوبهن ، فتمزق نياط أفئدتهن ، ودقت مسامير أخرى فى الأقدام ، فكادت مريم أم المسيح تنهار ، وكتمت مريم المجدلية صرخة مفزوعة كادت تفر من قلبها المطعون .

وصدق المسيح . كان بنو إسرائيل فى العيد يمرحون ويفرحون ، إذ كانت أمه وأحبابه وأصحابه فى جلجثا فى حزن تخر من ثقله الجبال ، حزن أسدل أغشية قاتمة كثيفة على العيون ، فلم تعد ترى إلا السواد .

وراح الوقت يمر وئيدا بغيضا ، ويهوذا على الصليب يئن من العذاب ، وقد ثبتت فوق رأسه الرقعة التى كتب فيها « عيسى ملك اليهود » ورجال قيافا وحنان يرمقونها فى غيظ شديد ، كانوا يحسون فى تلك اللحظة الرهيبة أن سخرية بيلاطس بهم تلطمهم وتكدر صفو المشهد الذى عملوا له ، وترقبوه طويلا .

وبدأ همس الرجال الذين لم يؤمنوا بعيسى ، فراحوا يقولون :

— خلص آخرين وعجز عن أن يخلص نفسه .

— إن كان هو المسيح ملك إسرائيل ، فلينزل الآن عن الصليب ، لنرى ونؤمن به .

ولو تهتكت الأغشية عن عيونهم ، ولو أرهفت آذانهم ، والتقطت سخرية القدر بهم ، لتيقنوا أن ذلك المصلوب ليس هو ، وأنه خلص آخرين وخلص نفسه ، ولكن كان فى عيونهم عمى ، وفى آذانهم وقر ، وما كان الله يريد لهم الهداية وقلوبهم أعشاش للنفاق والرياء والكفر .

وراح الجنود الرومانيون يسخرون بيهوذا وهو على الصليب ، التقطت آذانهم ما يهمس به أعداؤه ، فقالوا له :

— إن كنت أنت المسيح فخلص نفسك .

فقال له المصلوبان معه :

— إن كنت أنت المسيح فخلص نفسك وإيانا .

ولكنه لم يكن المسيح ، كان يهوذا يتجرع الكأس المريرة ، ليشفى روحه مما علق بها من وساوس وشكوك ، فلم يخلص نفسه ولم يخلصهما .

وغابت الشمس ، وزحف الظلام ، والرجال الثلاثة على الصلبان يتعذبون ، يتفصد منهم العرق ، ويلتقطون أنفاسهم فى جهد ، يئنون من الآلام القاسية المريرة ، وهتف يهوذا فى صوت واه :

— أنا عطشان .

كان هناك إناء مملوء خلا ، فغمسوا إسفنجة فيه ، ورفعوها إليه ، فلما أخذ يهوذا الخل ، ألقى رأسه على صدره . دب فيه ضعف شديد ، فلم يعد قادرا أن يرفعه . وصدق عيسى ؛ فقد قال فى العشاء الأخير : « وأقول لكم إنى من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا ، إلى ذلك اليوم ، حينما أشربه معكم جديدا فى ملكوت ربى[١] » . فهو لم يشرب الخل على الصليب ، بل شربه يهوذا ، فالخل من نتاج الكرمة ، وما كان لرسول أن يقول كذبا .

وضج يهوذا من آلامه ، وتذكر أن الله يعذبه بشكه الذى خالط إيمانه ، فحقد على نفسه وصرخ :

— إيلى إيلى لم شبقتنى ؟ ! [إلهى إلهى لماذا تركتنى] .

لم يقل : أبى . . أبى لم تركتنى ؟ فما كان يهوذا تعود أن يدعو الله « بأبى » ساءه أن يتركه الله يتردى فى الشك حينا ، كانت تجربة قاسية ، دفع ثمنها غاليا صابرا ، وفى لحظاته الأخيرة وهن فصرخ معاتبا ، ولولا سكرات الموت ما نبس بكلمة .

أفزعت تلك الصرخة المدوية فى الظلام الواقفين يترقبون النهاية ، وقال بعضهم:

— إنه ينادى إيليا .

وتحركوا فى فزع ، فقال آخرون :

— انتظروا لنرى هل يأتى إيليا يخلصه .

ومزق الصوت قلوب النساء ، فارتفع فى سكون المكان نشيج ونحيب ، زاد فى قلق أعصاب الخائفين المترقبين حدوث معجزة ، ولكن المعجزة لم تأت ، فما كان صاحب المعجزات هناك .

وصرخ يهوذا صرخة أخرى ، أعقبها صمت مطبق ، فقد أسلم الروح . مات الموتة الأولى ، ولم يذق بعدها الموت ، فقد خلص من أدران الشك ، ليحيا مع المسيح إلى الأبد .

استحق يهوذا أن يكون مع المسيح وحوارييه ، يدين أسباط إسرائيل الاثنى عشر . كان من المتقين الذين أرسلهم عيسى إلى بنى إسرائيل يبشرون باسمه ، ويدعون الناس إلى ملكوت الله ، وكان من الذين أوحى الله إليهم

---

(١) ذكرت فى إنجيل متى : فى ملكوت أبى . وسبق أن قلت إن أبى يقصد بها ربى .

أن آمنوا بى وبرسولى ، وكان من المبشرين بالجنة . مسه طائف من الشيطان ، فلما تذكر إذا هو مبصر ، فقدم نفسه راضيا عن سيده ليتطهر ، فتاب الله عليه ، فقد تاب توبة لو قسمت على أهل الأرض لوسعتهم .

تضايق رؤساء السنهدرين من الانتظار الطويل ، أرخى الليل سدوله ، ومشى الوصب فى أبدانهم ، بعد السهر فى تدبير مؤامرتهم ، فأرسلوا إلى بيلاطس يستأذنونه فى كسر سيقان المصلوبين ودفنهم ، كانت هذه العادة متبعة لتقصير آلام المصلوبين ، والتخلص منهم ، فقد كان بعضهم يستمر أياما قبل أن يلفظ آخر أنفاسه ، وعاد الرسل من عند بيلاطس بالإذن بذلك ، فأخذ الجنود مطرقة ثقيلة ، وكسروا سيقان اللصين ، وذهبوا إلى يهوذا ، فألفوه قد فارق الحياة .

وأراد أحد الجنود أن يتحقق من موته ، فطعن جنبه بحربة ، ولما رأى رجال الدين أن المصلوب قد انتهى ، غادروا المكان يحسون كأنما انزاح كابوس عن صدورهم ، وانداحت فى أفئدتهم نشوة الظفر ، حسبوا أنهم قتلوا عيسى ، وتخلصوا منه ، وخلا لهم وجه بنى إسرائيل ، يمتصون أموالهم باسم الدين ، فمن ذا الذى يبصرهم بعده أن الله غنى عن عباده ، وأنه لاينال من لحوم الأضحيات ودمائها ، ولكن يناله التقوى منهم ؟ وما دار بخلد أعضاء السنهدرين أن الله سخر منهم ، وما صلبوه وما قتلوه ولكن شبه لهم ، « الساكن فى السموات يضحك ، الرب يستهزئ بهم » .

انطلق رجال الدين وقد حقت عليهم الضلالة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون . وبقى المصلوب فى الظلام بين حفنة من النساء الباكيات النائحات ، وأما حواريو المسيح فقد ولوا الأدبار مفزوعين ، ولو أنهم فهموه ، لما شكوا فيه ، ولتيقنوا أنه لم يصلب ، بل صلب غيره ، فقد قال لهم : « كلكم تشكون فى الليلة » ، و « طوبى لمن لايعثر فى » . ولو أصاخوا لرن فى آذانهم قوله ، مؤكدا نصره على أعدائه من صدوقيين وفريسيين :

— إنى قد غلبت العالم .

٥٥

« وما أنزلنا عليك الكتاب إلا ليبين لهم الذى اختلفوا فيه »
(قرآن كريم)

انسحب الجنود الرومانيون ورجال السنهدرين وخدمة الهيكل يحملون مشاعلهم فى أيديهم ، وخلفوا المصلوبين فى الظلام الدامس الثقيل ، ومريم المجدلية وأختها مرثا وسالومى أم يعقوب ويوحنا وحفنة من النسوة المؤمنات ، يبكين فى حرارة ، حتى تكاد أكبادهن تتصدع من البكاء ، كان الأمل فى معجزة تنقذ المصلوب يراود أخيلتهن حتى اللحظات الأخيرة ، ولكن لما طعنه الجندى الرومانى بحربته تبخر الأمل ، وجرت دموع اليأس . نفذ القدر ، وحم القضاء ، وأسلم المصلوب الروح . دون أن تنقذه السماء ، فما كان المصلوب رسول الله ، وما كان صاحب المعجزات .

كان يقف على البعد رجلان ، يرصدان مايجرى فى جلجثا ، وفى قلبهما حزن عميق ، كانا نيقوديموس ، ثالث أعضاء السنهدرين ؛ من آمن بالمسيح وكتم إيمانه ، ويوسف الرامى عضو السنهدرين الذى تخلف عن الاجتماع الأخير ، الذى حكم فيه بالقتل على من حسبوه المسيح ، لأن الإيمان عرف طريقه إلى قلبه .

ساد الظلام جلجثا ، فزاد انقباض نفسيهما ، فالرومانيون يخلفون أجساد المصلوبين تنهشها الكلاب ، وتتخطفها طيور السماء ، فعز عليهما وهما من اليهود الذين يحفلون بدفن الموتى فى مقابر فاخرة ، أن يترك جسد من حسبوه المسيح فى الخلاء ، ففكرا فى أن يستأذنا بيلاطس فى مواراته فى التراب .

كان يوسف الرامى أكثر جرأة من نيقوديموس ، فانطلق فى الظلام ، حتى إذا بلغ أورشليم أغذ السير إلى قصر بيلاطس ، لايخشى غضب الوالى الرومانى ، فياطالما غضب على من جاءه يلتمس منه مايريد يوسف أن يلتمسه .

دخل على بيلاطس ، فألفاه فى إيوانه ، فتقدم منه وقال :

— جئت ألتمس يا مولاى الإذن لى بدفن عيسى .

تعجب بيلاطس وقال :

— أمات هكذا سريعا ؟

كان المصلوبون يقاسون عذاب الصلب يوما أو يومين ، أما هذا المصلوب فلم يستغرق بعض يوم ، فلم يصدق بيلاطس ، وبعث إلى قائد المئة يسأله ، فلما أكد له موته ، سمح ليوسف بدفنه .

ذهب يوسف واشترى كتانا ، وذهب نيقوديموس وجلب مئة رطل من مر وعود ، وفى لجمة الليـــل فى جلجثا لاح قبس نور المشعل الذى يحمله نيقوديموس القادم بالطيب ، وما هى إلا لحظات حتى لاح نور آخر يجاهد أن يزحزح طبقات الظلمات ، كان النور المنبعث من مشعل يوسف الرامى ، القادم بالأكفان والتصريح بدفن المصلوب .

هب يوسف ونيقوديموس ينزعان المسامير الطويلة المثبتة لقدميه ، وجىء بسلم وارتقاه أحدهما ، وأخذ ينزع المسامير من كفيه ويسند الجسد بكتفه ، وهرعت النسوة يعاونه على إنزال المصلوب ، وحملت الجثة بينهم ، وانطلقوا إلى حديقة قريبة ، كانت ملـكا ليوسف الرامى ، وكان بها قبر فاخر أعده يوسف لنفسه .

وذهب يوسف وأحضر ماء ، وراح هو ونيقوديموس يغسلان الجثة ، ويزيلان منها آثار الدم . وتقدمت مريم المجدلية ومرثا وسالومى ، ونزعن عن رأسه تاج الشوك الذى توجه به الرومانيون مستهزئين ، وأخذن يحنطن الجثة بالحنوط الذى جاء به نيقوديموس ، ولما غطى به الجسد ، تقدم يوسف وقبل جبهته ، وتقدم الجميع يقبلونها ، مريم فى نشيج ونحيب ، والنسوة فى بكاء وعويل ، والرجلان صامتان ، وإن كان الحزن يمزق فؤاديهما ، ووقدة من النار تلسع حلقيهما ، والدموع تزيد نفسيهما أسى ولوعة .

وجىء بالـكتان وأدرج الجسد فيـه ، وقام يوسف ونيقوديموس يقرآن فى صوت حزين صلاة الموتى ، ولما انتهت الصلاة ، حمل الجسد المدرج فى الأكفان ، ودلى فى قبره ، ووورى بالتراب ، وانصرف الجميع فى جوف الليل البهيم مطرقين .

٥٦

« بل رفعه الله إليه » .

(قرآن كريم)

نور الفجر لم يبدد بعد ظلام الليل ، وبدأت زقزقة العصافير تعكر السكون المسيطر على حديقة يوسف الرامى ، التى قبر فيها يهوذا ، وأخذ شبح يدنو فى الظلام مطرق الرأس ، كانت مريم المجدلية متشحة بالسواد قادمة فى البكرة ، تذرف على القبر الدموع ، تقدمت فى خطوات ثقيلة ، حتى إذا بلغت القبر ألفت الحجر مرفوعا عنه ، خفق قلبها ، وانتابتها رهبة ، وراحت تركض تنقب عن الحواريين ، الذين هاموا على وجوههم حذر الموت .

وعادت وفى رفقتها سمعان بطرس ويوحنا ، وقالت لهما :

— أخذوا السيد من القبر ، ولسنا نعلم أين وضعوه[١] .

كانت تحسب أن المصلوب هو السيح ، فلما سرقت الجثة انتابها هم ثقيل ، وجرت دموعها غيظا ، ونظر يوحنا إلى القبر فوجده خاليا ، ودخل بطرس باندفاعه المعهود ، فلم يجد الجثة فاضطرب ، ودخل يوحنا ، فلما لم يجد شيئا غاص قلبه حزنا ، وبقيا صامتين لحظات ، ثم خرجا مطرقين ، وانصرفا وقد خلفا مريم المجدلية تذرف الدمع الهتون .

فر عيسى فى الليل من الجنود الرومانيين بعد أن ولى حواريوه الأدبار ، ووقع يهوذا فى أيديهم ، فلما صلب وهدأت نفوس أعضاء السنهدرين وأتباعهم ، واطمأنوا إلى أنهم تخلصوا من عدوهم ، خرج عيسى من مخبئه ، وهبط من جبل الزيتون إلى وادى قدرون ، ثم انطلق إلى حديقة يوسف الرامى ، إلى قبر

---

(١) هذه رواية إنجيل يوحنا ، والأناجيل الأخرى متضاربة متناقضة فى هذا الموضوع ويذكر جورج يوست الأمريكى فى قاموس الكتاب المقدس ، أن الجزء الخاص بهذا الموضوع فى إنجيل مرقص لم يكن فى نسخ إنجيل مرقص القديمة ، بل أضيف إليه فيما بعد .

يهوذا ، الحوارى الذى دفع حياته ليتطهر من أدران الشك الذى راوده .

لمح عيسى مريم المجدلية مطأطئة الرأس ، وقد انخرطت فى البكاء ، فاقترب منها ، وبلغ أذنيها وقع أقدام ، فالتفتت ، ووقع بصرها عليه ، على عيسى الذى يكاد كبدها ينصدع من البكاء عليه ، ولكنها لم تعرفه[1] ، حتى مريم شكت فيه .

— يا امرأة ، لماذا تبكين ؟ من تطلبين .

وانسكب فى أذنيها صوته ، صوته الذى طالما جلست الساعات تصغى إليه منتشيه ، ولكنها لم تميزه ، لم تميز وجهه ، ولم تميز صوته ، بل حسبته البستانى ، فقالت له فى توسل .

— يا سيد ، إن كنت أنت حملته ، فقل لى أين وضعته وأنا آخذه .

كانت مريم تحسبه البستانى ، حمل الجثة إلى مكان آخر وأخفاها ، حتى مريم المجدلية شبه لها ، مريم التى كانت دارها بصيص الأمل فى الليل السرمد ، الواحة . الوارفة فى صحراء دعوته القاسية ، مريم التى أحبته حبا طاهرا سما على كل حب لم تعرفه ولم تعرف صوته ، وحسبته البستانى ، فما أيسر أن يختلط الأمر على رجال السنهدرين الذين لم يروه إلا عرضا ، وعلى بيلاطس وهيرودس اللذين لم يقابلاه أبدا .

وارتفع صوت عيسى مرة ثانية :

— يا مريم .

والتفتت مريم ، وأنعمت النظره، وهتفت :

— ربونى (أى يا معلم) .

وهرعت إليه ، تمرر يدها فى دهش على وجهه وعلى يديه ، كانت على يقين أنه صلب ، فظنت أن الماثل أمامها روح ، فجعلت تتحسسه ، فقال لها :

— لا تلمسينى ، لأنى لم أصعد بعد إلى ربى[2] ، ولكن اذهبى إلى إخوتى ، وقولى لهم : إنى أصعد إلى أبى وأبيكم ، وإلهى وإلهكم .

وهرعت مريم إلى الحواريين فى مرح وفرح ، تخبرهم أنها رأت السيد[3] ، وأنه أخبرها أنه ذاهب إلى ربه ، وأن الله يرفعه .

---

(١) يوحنا : ٢٠ — ١٤ .　　(٢) ذكر فى يوحنا ٢٠ : ١٧ أبى .

(٣) فى ترجمة جمعية التوراة الأمريكية « رب » بدل سيد ويلاحظ أن هذه الجمعية تترجم كلمة « مار » اليونانية « برب » إذا كانت عن عيسى صلى الله عليه وسلم ، و « بسيد » إذا كانت عن غيره !

وسار عيسى يتلفت ، لا خوفا من أعدائه ، فقد سخر الله منهم ، بل تلفت الودع للدنيا ، وفيما هو فى سيره ، إذ لمح اثنين من تلاميذه ، فأسرع إليهما ، وانطلق معهما فى الطريق يحادثهما ويحاورهما ولم يعرفاه[1] ، ولم يفطنا إلى أنه عيسى ، حتى تلاميذه شبه لهم ، قال لهما :

— ماذا تتطارحان ؟ وما هذا العبوس ؟

فأجابه أحدهما :

— أأنت غريب ؟ لم تعلم ماحدث فى أورشليم فى هذه الأيام ؟

كان يأمل أن يعرفاه ، وكان يحب أن يعرف كيف فهم تلاميذه ما جرى من حوادث ، وهم بعيدون عن مجراها ، هائمون على وجوههم حذر الموت ، فقال له:

— ماذا حدث ؟

— حوادث عيسى الناصرى ، الذى كان نبيا مقتدرا فى الفعل والقول أمام الله والشعب ، وكيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه ، وكنا نرجو أن يكون المزمع أن يفدى إسرائيل .

لم يقولا : عيسى الناصرى ابن الله ، ولم يقولا عيسى الناصرى الرب ، بل قالا عيسى الناصرى النبى ، الذى أسلم للكهنة والحكام ، فضايق عيسى أنهم لم يفقهوا شيئا ، ولم يفهموا قوله فى تلك الليلة التى قال لهم فيها : «كلكم تشكون فى هذه الليلة ، و «طوبى لمن لا يعثر فى» . ولكن كلهم شبه لهم فيه ، فقال لهما :

— أيها الغبيان وقصيرا الإيمان .

واقتربوا من القرية التى كان التلميذان منطلقين إليها ، فتظاهر عيسى أنه مستأنف سيره ، فقالا له دون أن يعرفاه :

— امكث معنا ، مال النهار ، ولاحت بشائر الليل .

فدخل معهما ، وجىء بالطعام ، فتناول الخبز ، وباركه وكسره ، وقدمه لهما . ولما انتهى الطعام ، خرج عيسى وتلميذاه فى حيرة لا يدريان أكان هو عيسى أم غيره ؟ !

أرخى الليل سدوله ، فاجتمع الحواريون يتهامسون فى دار بعيدة عن عيون

---

(١) لوقا ٢٤ : ١٣ — ٢٥ .

اليهود ، كانوا يذكرون أن مريم رأت المسيح ، وأنه أخبرها أنه صاعد إلى ربه ، وصدق بعضهم ذلك القول ، ورفض بعضهم الآخر أن يصدقه ، حسبوا أن أوهام مريم صورت لها ما قالت ، فقد كانوا جميعا يحسبون أن عيسى صلب وقبر ، ولو دار بخلدهم أنه فر من الجنود الرومانيين ، وأن غيره صلب عنه ، لكان تصديقها يسيرا .

وفيما هم فى حوارهم ، دخل رجل وقام فى وسطهم ، فنظروا إليه ، فخفقت قلوبهم رعبا ، كان عيسى بقامته الطويلة وعينيه السوداوين منتصبا ، وأراد أن يعيد إليهم طمأنينتهم ، فقال لهم فى صوت هادىء :

— سلام لكم .

لم يصدقوا أعينهم ، وحسبوه خيالا ، فهرعوا إليه يتحسسونه ، فلما يتقنوا أنه المسيح ، فرحوا وتحقق قوله لهم : إنه عما قليل لا يرونه ، ثم عما قليل يبصرونه ، وأن العالم يفرح وهم يحزنون ، ثم ينقلب حزنهم فرحا .

وراحوا يتحدثون ، فتيقن أنهم لم يفقهوا شيئا ، فغادرهم وخرج ، وانساب فى سكون الليل وحده ، إنه خارج كما خرج موسى ، خارج على ألا يعود ، ذاهب إلى ربه ليتوفاه ويرفعه إليه .

ذهب عيسى مطرقا ، فلا بنى إسرائيل اصطلحوا ، ولا تلاميذه استطاعوا ان يفهموا أسرار ملكوت الله على الوجه الصحيح ، ذهب ويتردد فى أذنيه قوله : « ولكن متى جاء ابن الإنسان فلعله يجد الإيمان على الأرض » . ذهب ليرفعه الله إليه ، ويرسل إليهم « الفراقليط » الذى بشرهم به ليمكث معهم إلى الأبد ، « الفراقليط » روح القدس ليعلمهم كل شىء ويذكرهم بكل ما قاله ، ويشهد له أنه عبد الله ورسوله ، « ويرشدهم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به » وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى .

ذهب ليأتى ذلك الذى « جعله الله عهدا للشعب ونورا للأمم ، ليفتح عيون العمى ، ليخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن ، الجالسين فى الظلمة » ذلك الذى « يضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » ومن بشر موسى به ، وقال عنه أشعيا عن لسان الله عز وجل : « هوذا عبدى الذى أعضده ، مختارى

الذى سرت به نفسى ، وضعت روحى عليه ، فيخرج الحق للأمم ، لا يصيح ولا يسمع فى الشارع صوته . . . لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الأرض ، وتنتظر الجزائر شريعته »

ذهب عيسى وما وضع الحق فى الأرض ، كسره أعداؤه ، أما الآخر عبد الله ومختاره فلا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الأرض ، حتى يسود الدنيا ملكوت الله .

وبلغ عيسى ظلام الليل الثقيل ، ليرفعه الله إلى العزة والمجد والخلود .

لجنة النشر للجامعيين



الثمن ٢٥ قر